د. محمد عمارة

في فقه الحضارة الإسلامية

مكتبة الشروق الدولية

في
فقه الحضارة الإسلامية

الطبعـــة الثانية

١٤٢٧هـ ـــ يناير ٢٠٠٧م



٩ شارع السعادة - أبراج عثمان - روكسي - القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ - ٤٥٠١٢٢٩ _ ٢٥٦٥٩٢٩

Email: < shoroukintl @ hotmail. com >

< shoroukintl @ yahoo.com >

د. محمد عمارة

فى فقه الحضارة الإسلامية



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

عندما نزل الروح الأمين - جبريل عليه السلام - على قلب الصادق الأمين - محمد بن عبد الله ﷺ - بالقرآن الكريم، وحيًا خاتمًا لسلسلة رسالات السماء إلى الأرض، كان ذلك إيذانا بانتقال الإنسانية إلى سن الرشد، وانتقال الرسالات السماوية إلى طور جديد وفريد..

● فلم تعد الرسالات قائمة، فى إعجازها، على الآيات المادية التى تدهش العقل، فتشله عن التفكير.. وإنما أصبحت المعجزة القرآنية معجزة عقلية، تستنفر العقل وتستحثه على التعقل والتدبر والتفكر والتذكر، فى بدء الخلق.. وفى المسيرة التاريخية للخلق.. وفى الإعادة كرة أخرى.. وفى المصير.. وتؤلف بين عالم الغيب وعالم الشهادة، وتحتكم إلى العقل فى البرهنة على الألوهية والوحدانية والنبوات والرسالات والحساب والجزاء.. وفى التمييز بين المحكمات والمتشابهات.. فتبوأ العقل مكانًا عاليًا فى الدين والحضارة جميعًا..

● ولم تعد الشريعة خاصة بقوم دون غيرهم.. ولا بزمن محدود.. وإنما جاءت الشريعة الإسلامية عالمية للناس كافة.. وخالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ومن ثم صالحة لكل زمان ومكان.. يستل الاجتهاد الفقهى والفقه المجتهد والمجدد من ثوابتها ومقاصدها وحدودها وقواعدها وروحها الأحكام المتجددة دائمًا وأبدًا، والمواكبة للواقع المتغير والمصالح المستجدة عبر الزمان والمكان..

● ولم تعد الرسالة - وشريعتها - واقفة عند شدة الأحكام، التى استدعتها قساوة قلوب اليهود، وغلاظة عقولهم ولا واقفة عند الوصايا المغرقة فى الروحانية - كرد فعل لشدة أحكام الشريعة اليهودية - كما هو الحال فى البشارات الإنجيلية -

وإنما جمعت الشريعة الإسلامية ـ اتساقًا مع الفطرة الإنسانية السوية ـ بين العقل والنقل والتجربة والوجدان.. كما جمعت بين آيات الله فى كتابه المسطور ـ الوحى القرآنى ـ وآياته فى كتابه المنظور ـ تلك المبثوثة فى الأنفس والآفاق ـ فأسست، بهذه الوسطية الجامعة، نظرية جديدة وفريدة فى المعرفة، سواء فى مصادر هذه المعرفة أو فى سبل تحصيلها.. فكانت الشريعة الوسط، للأمة الوسط، الشهيدة والشاهدة على العالمين.. والتى وضعت ـ بهذه الوسطية ـ عن الناس إصرهم والأغلال التى كانت عليهم..

● ولم تقف هذه الشريعة الخاتمة عند إقامة شعائر الدين، ومناسك الاعتقاد، ووصايا منظومة القيم والأخلاق فى عالم الفرد المؤمن.. وإنما كانت إيذانا باستدعاء «الدولة» لتجسيد الدين والاعتقاد والقيم والأخلاق «نظما مدنية» فى الاجتماع والسياسة والاقتصاد والقانون والعلاقات الدولية، حتى لقد جعلت من القرآن حياة تمشى على الأرض، وشمائل وسجايا فى مختلف ميادين الحياة.. كما جعلت الإسلام دين الجماعة، والرهبانية جهاداً فى سبيل الدين والدنيا.

● ولذلك، كان نزول البلاغ القرآنى.. وكان البيان النبوى لهذا البلاغ القرآنى بمثابة «الحجر» الذى ألقى فى الماء، لتتداح من حوله دوائر «الثقافة».. و«المدنية».. و«الحضارة».. و«الإبداع»، لا فى ميادين العلوم الشرعية وحدها، وإنما فى سائر الميادين لمختلف ألوان العلوم.. علوم الغيب والشهادة.. والمعقول والمنقول.. والحس والوجدان القلبى.. والأرض والسماء..

ومن هنا أقام الإسلام ـ لأول مرة فى تاريخ الرسالات السماوية ـ الجوامع الخمسة التى حققت الانتماء الجامع للجماعة المؤمنة فى العقيدة.. والشريعة.. والحضارة.. والأمة.. ودار الإسلام..

وكان رسول الإسلام ﷺ: مبلغ الوحى.. ومبينه.. وقائد الأمة.. ومؤسس الدولة.. والحضارة.. ودار الإسلام.. وذلك لأول مرة فى تاريخ الأنبياء والمرسلين..

● ولم تكن الهجرة ـ فى التجربة الإسلامية الأولى ـ واقفة عند المهاجرين الذين أخرجهم الشرك المكى من ديارهم، بعد أن فتنهم فى دينهم.. وإنما كانت

إنجازا ذا أبعاد حضارية.. كانت ـ أيضًا ـ هجرة من البداوة الأعرابية وحياة الارتحال، الذى لا يقيم تمدنا وتراكما حضاريا، لافتقاره إلى الحضور والقرار والاستقرار.. حتى لقد عُدّت العودة عن الهجرة ـ بهذا المعنى الحضارى ـ إلى البداوة، بعد هجرة التمدن والقرار والاستقرار «ردة» عن هذا المستوى من التحضر الذى مثلته الهجرة فى صدر الإسلام، فقيل لمن عاد إلى البادية بعد التحضر فى الحاضرة: «أَرْتَدَدْتَ أعرابيًا»؟!..

فكانت الهجرة طورا فى التمدن والتحضر، صنعه الإسلام.. لذلك، كان تميز الإسلام «بالدولة» الحارسة للدين.. والمسوسة بالدين فى ذات الوقت.. كان ذلك تميزًا جعل الإسلام «دينا» و«حضارة»، كما هو «دين» و«دولة».. وهو تميّز تفردت به الشريعة الإسلامية الخاتمة عن سائر الشرائع السماوية السابقة.

فلم تكن فى تلك الشرائع السابقة الدولة القائمة.. ولا الحضارة المستمرة.. فعلى حين حكمت حياة الدول والحضارات سنن «الولادة» و«الفتوة» و«التراجع» و«موت» هذه الدول والحضارات.. تميزت الدولة والحضارة فى الإسلام بالخلود المكتسب من الإطلاق والخلود اللذين تميزت بهما الشريعة التى أثمرت الدولة والحضارة.. فجائز عليهما «الضعف» و«التراجع»، لكنهما لا يزولان مادام الرباط قائمًا بينهما وبين الشريعة الخاتمة والخالدة.. وبالتجديد وفقه سنن التقدم والنهوض يعاودان دورات اليقظة بعد السبات.. ومراحل الازدهار بعد كبوات الجمود والتقليد..

***

لذلك، كان فقه الحضارة الإسلامية، والوعى بمنهاجها الوسطى الجامع لعناصر ومقومات ومكونات الحق والعدل.. والمبرأ من غلوى الإفراط والتفريط، فريضة من فرائض الفكر الإسلامى، وواجبًا من واجبات العقل المسلم دائمًا وأبدًا، عبر الزمان والمكان..

وعندما تدخل الحضارة الإسلامية إلى مثل المأزق الذى تعيش فيه الآن، فإن هذه الفريضة تغدو أكثر تأكيدًا.. وهذا الواجب يصبح أكثر إلحاحًا..

ففقه السنن التى قامت بها وعليها الحضارة الإسلامية، فى فجرها الأول، ليس

مجرد «قراءة» للتاريخ، وإنما هو «وعى» بهذا التاريخ، لابد منه لفقه الخروج من المأزق الراهن الذى دخلت فيه هذه الحضارة.. وفى هذا «الوعى» يكمن معنى المقولة المأثورة الصادقة التى تقول: «لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها».. فالوعى بسنن النشأة والتأسيس.. وبالقوانين التى حكمت تدافع هذه الحضارة مع أعدائها، هو - فى الحقيقة - علم الوعى بأسباب الإقلاع الحضارى من المأزق الذى نعيش فيه..

كما أن الوعى بالسمات والقسمات التى بها تميزت الحضارة الإسلامية عن غيرها من الحضارات، ليس مجرد دراسة مقارنة للترف الفكرى.. أو المفاخرة والمباهاة.. وإنما هو علم البعث الحضارى المتميز لحضارتنا الإسلامية، دونما مسخ أو نسخ أو تشويه..

لذلك، كانت دراسات هذا الكتاب قبسات من الوعى والفهم والفقه لحضارة الإسلام.. نسأل الله سبحانه وتعالى، أن يجعلها نافعة وفاعلة فى إضاءة طريق الإقلاع والنهوض من المأزق الحضارى الذى دخلت فيه حضارتنا، بفعل الهيمنة الغربية التغريبية.. وبسبب الجمود والتقليد لتخلفنا الذاتى الموروث.. إنه، سبحانه، خير مسئول.. وأكرم مجيب.

دكتور

محمد عمارة

مبلغ الرسالة.. وقائد الأمة.. ومؤسس الدولة.. والحضارة
النبى ﷺ فى سطور

● هو: أبو القاسم، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم..

● من قريش.. يتصل نسبه إلى عدنان، من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل.

● وأمه: آمنة بنت وهب.. القرشية، الزهرية..

● ولد بمكة، يوم الاثنين ٩ ربيع الأول سنة ٥٣ ق. هـ ٢٠ أبريل سنة ٥٧١م.

● وأرضعته - بالبادية - حليمة السعدية، من بنى سعد بن بكر بن هوازن.

● نشأ يتيما، فلقد مات أبوه قبل أن يولد، فربته أمه إلى أن ماتت - وهو فى السادسة من عمره - فكفله جده عبد المطلب، إلى أن مات - وهو فى الثامنة من عمره - فكفله عمه أبو طالب.

● شب كامل العقل، عالى الهمة، صادقا، أمينا، شجاعًا، فاضل الأخلاق.. حتى لقد لقبه قومه - واشتهر - بالصادق الأمين..

● اشتغل برعى الغنم حينا.. ثم بالتجارة، وسافر إلى الشام فى تجارة للسيدة خديجة بنت خويلد الأسدية القرشية.

● وفى الخامسة والعشرين من عمره تزوج من السيدة خديجة.. وأنجب منها كل أولاده، باستثناء إبراهيم - الذى مات طفلا -.. وظلت خديجة زوجه الوحيدة حتى توفيت سنة ٣ ق.هـ، فتعددت بعدها زوجاته.

● لم يعش بعده من أولاده، وينجب سوى فاطمة، التى تزوجت من على بن أبى طالب، فكان آل بيت النبى هم نسلها من ولديها الحسن والحسين.. على حين

توفى بقية أولاده ـ القاسم، وعبد الله، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وإبراهيم ـ فى حياته.

● لم يعبد صنما منذ نشأ.. وكان يميل إلى التأمل بحثًا عن الحقيقة ـ ثم أخذ يخلو إلى نفسه شهر رمضان من كل عام، فى غار حراء، بمكة، يتحنث ـ [يتعبد] ـ فيه تعبد الحنفاء ببقايا شريعة إبراهيم الخليل، عليه السلام..

● وبينما هو فى الغار سنة ١٣ ق.هـ سنة ٦١٠م جاءه الوحى من الله بالنبوة والرسالة.. فأخذ يدعو المقربين منه إلى الإسلام، سرًا، ثلاث سنوات.. فآمن به نفر قليل.. ثم جهر بالدعوة.

● نزل عليه القرآن منجما ـ [مفرقًا] ـ وكان كتبة الوحى يكتبونه ويحفظونه.. وهو معجزته التى تحدى بها قومه..

● أصابه الأذى، مع أصحابه، من مشركى قريش وملئها وأغنيائها، فصبروا.. وحاصرته قريش، مع أصحابه، فى شعب بنى هاشم، وقاطعوهم اقتصاديًا واجتماعيًا، حتى كادوا أن يهلكوا جوعًا.. فأذن لبعض أصحابه بالهجرة إلى الحبشة.. وأخذ يعرض نفسه ودعوته على القبائل، طلبًا للحماية والإيمان..

● ولما استجاب نفر من «يثرب» ـ [المدينة] ـ من الأوس والخزرج ـ لدعوة الإسلام، تعاقدوا معه وبايعوه ـ عند العقبة ـ على تأسيس دولة الإسلام بالمدينة، فكانت هجرة أصحابه إليها، ودخلها مهاجرًا يوم الاثنين ٨ ربيع الأول سنة ١ هـ ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢م.

● ولاحقته قريش، فى مهجره، بالعداء والعدوان.. فأذن الله له بالقتال، فكانت غزواته الثمانية والعشرون.. وبها توحد العرب فى دولتهم الإسلامية للمرة الأولى فى التاريخ.. ودخل الناس فى دين الله أفواجًا.

● وفى سنة ١٠هـ سنة ٦٣٢م حج حجة الوداع، وخطب فيها أطول خطبه، التى تحدث فيها مقننا الحقوق المدنية وواجبات الدين والدنيا..

● وفى يوم الأحد ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ ٧ يونيه سنة ٦٣٢م صعدت روحه إلى الرفيق الأعلى، بعد عمر بلغ ـ بالتقويم القمرى ـ ٦٣ عامًا وثلاثة أيام ـ

وبالتقويم الشمسى ـ ٦١ عامًا وثمانية وأربعين يومًا . . وكان عدد أمته يوم وفاته ١٢٤,٠٠٠ . .

● كان خطيبًا، أوتى جوامع الكلم . . إذا خطب [فى نهى أو زجر] احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، كأنه منذر بقتال . . وإذا خطب فى الحرب اعتمد على قوس . . وإذا خطب فى السلم اعتمد على عصا .

● وكان محدثًا، حلو المنطق، فى كلامه ترتيل وترسيل . وإذا تكلم تبسم .

● متواضعًا، يجلس ويأكل على الأرض . . يخيط ثوبه . . ويخصف نعله . . ويلبى دعوة الفقير والرقيق إلى خبز الشعير . . ويجالس المساكين . .

● وكان طويل الصمت، قليل الضحك، وإذا ضحك وضع يده على فمه . . يمزح ـ قليلاً ـ ولا يقول إلا حقا، وإذا مزح غض بصره، شديد الحياء، إذا صافحه أحد لا يترك يده حتى يكون المصافح هو الذى يترك يده .

● ضخم الرأس، واليدين، والقدمين، ربعة، ليس بالطويل ولا بالقصير، واسع الجبين، سبط الشعر، فى وجهه تدوير، وميل إلى الحمرة، كث اللحية، عظيم الفم، فى أسنانه تفليج وتفريق، عيناه سوداوان، يرسل شعره إلى أنصاف أذنيه، أسمر اللون، ضخم رءوس العظام . . يلبس قلنسوة بيضاء، ويمسح رأسه ولحيته بالمسك . .

وإذا مشى لم يلتفت، وإذا التفت التفت جميعًا، يتكفأ فى مشيته كأنما ينحدر من علٍ . وإذا اهتم لأمر أكثر من مس لحيته .

● وكان شجاعًا بطلاً، إذا حمى وطيس الحرب احتمى به أصحابه، وإذا اشتد بأسها كان أقرب أصحابه إلى الأعداء .

● يكثر من مشورة أصحابه، وإذا عزم على غزوة أخفاها وورى بغيرها .

● وصف نفسه فقال : «أدبنى ربى فأحسن تأديبى . . أنا نبى الملحمة . . ونبى المرحمة» . . ووصفته زوجه عائشة فقالت : «كان خلقه القرآن» . . ووصفه الله سبحانه، فى القرآن، فقال : ﴿وإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ صدق الله العظيم .

* * *

ماذا تعني بشرية الرسول ﷺ

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ ؟ [الإسراء: ٩٣]

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]

عندما اصطفى الله، سبحانه وتعالى، محمداً بن عبد الله، نبيّاً ورسولاً.. وعندما صدع محمد بأمر ربه، فدعا الناس إلى التوحيد، وإلى الإيمان به نبيّاً ورسولاً.. لم تكن هناك شبهة على «بشرية» محمد بن عبد الله!.

فهو قد نشأ يتيمًا في الفرع الهاشمي من قبيلة قريش، بمكة.. وهو قد شب الشباب الطيب المألوف من البشر المستقيمين.. ثم هو قد رعى الغنم حينا من الدهر.. ومارس التجارة حينا آخر.. كما كان يصنع أقرانه من البشر العاديين.. فليس في حياته هذه، ما كان يثير أية شبهة حول «بشريته»، أو يلقي عليها الشكوك أو الظلال!.

ومع كل هذا فلقد وجدنا القرآن الكريم تجتهد آياته البينات لتؤكد على «بشرية» محمد، ولتنفي أن يكون إلا ﴿بَشَرًا رَّسُولاً﴾.. وبشراً يوحى إليه من السماء، بالنبأ العظيم!.

فلمَ كان هذا التأكيد والإلحاح على قضية لم تكن محل خلاف ولا شبهة ولا جدال؟!!.

* * *

لإدراك السر، الذي يجيب على هذا التساؤل.. لابد من النظر إلى رسالة محمد بن عبد الله ﷺ في سياق ما تقدمها من رسالات نهض بها الرسل الذين

ستتوج على درب اتصال السماء بالبشر لهدايتهم إلى الصراط المستقيم.. وأيضًا في ضوء، تكون الرسالة المحمدية هي الرسالة الخاتمة لطور النبوة والرسالة، بما يعنيه ذلك من بلوغ الإنسانية مرحلة «الرشد»، التي تأهلت بها لأن توكل إلى «عقلها الراشد»، تهتدي به ـ كلما انحرفت أو ضلت ـ إلى جادة الرسالة الخاتمة، دونما حاجة إلى رسول جديد!..

ولقد كان هذا الطور الجديد الذي ارتقت إليه الإنسانية، طور «الرشد»، هو الذي حدد الطابع الذي تميزت به «معجزة محمد ﷺ»، التي تحدى بها قومه.. فجاءت لذلك!.

● معجزة عقلية ـ رغم أنها «نقل» و«وحي» ـ. فهي لا تدهش العقل ولا تذهله، وإنما هي تنضجه وترشده، وتجعله مناط التكليف، وتتخذه حكمًا وحاكمًا في فقه مراميها واكتناه أسرار إعجازها، واستخراج البراهين والأحكام مما ضمت من السور والآيات..

● وهي، لهذا السبب، خالدة خلود الرسالة الخاتمة؛ لأن تأثيرها دائم الفعل والبرهنة.. فهي ليست سفينة نوح، أو ناقة صالح، أو عصى موسى، أو إبراء عيسى للأكمه والأبرص.. إلى آخر المعجزات التي «أدهشت العقل».. والتي وقف «إدهاشها» هذا عند حدود «الشهود»؟!.

● ولأنها كانت التعبير عن بلوغ الإنسانية طور «رشدها».. ومن اتساق «طبيعة إعجازها» مع هذا الطور الجديد.. وجدناها تولي اهتمامها بكثير من القضايا التي تدعم من عوامل «رشد الإنسانية»، والتي تزيل بقايا الشبهات والخرافات والمعتقدات الباقية من المراحل السابقة، عندما كانت الإنسانية «خرافًا ضالة»، تحتاج إلى الوصاية الدائمة، من قبل الرسل والأنبياء.. ولا تؤمن إلا إذا «اندهش عقلها».. وهي مراحل كانت «عقول» الأكثرية فيها تأبى أن تصدق اتصال السماء بالأرض عن طريق «بشر».. فكانت تنزع إلى «رسل ـ ملائكة» تروعها إلى المعجزات «المدهشة للعقول»!..

* * *

فالذين كذبوا نوحًا، عليه السلام، قد أنكروا واستنكروا «جدارة البشر أن

يكون رسولاً»؟!.. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾[1]!.

وكذلك صنع قوم «عاد» مع رسولهم «هود»، عليه السلام ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾[2]!.

أما «ثمود»، الذين أرسل الله إليهم «صالحًا»، عليه السلام، فإنهم مع إنكارهم «جدارة البشر بالرسالة»، قد طلبوا «الآية ـ المعجزة» التي «تدهش العقول»! ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[3].. لكنهم كذبوه، و ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[4] فلما جاءتهم «الآية ـ المعجزة» «المدهشة للعقل» ـ [وهي الناقة] ـ استمروا على تكذيبهم وكفرهم، استنكارا منهم أن يكون بشر رسولاً! ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾[5]!.

وعلى هذا الدرب ـ درب استنكار «جدارة البشر بالرسالة» ـ سار «أصحاب الأيكة ـ أهل مدين» عندما بعث الله إليهم «شعيبًا»، عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[6].. لكنهم كذبوه، مستنكرين جدارته، كبشر، بالرسالة.. ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[7].. ثم طلبوا منه ـ كما طلبت «عاد» من «صالح» ـ «الآية ـ المعجزة» التي «تدهش العقل وتذهله» ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[8].

ولقد تحدث المسيح عيسى ابن مريم، عليه السلام، عن حال بني إسرائيل، عندما أرسله الله إليهم، فقال عنهم: إنهم خراف ضالة.. ولقد جاءهم عيسى بالمعجزات التي «تدهش العقول».. من مثل إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص.. فلم يؤمنوا به.. بل إن الحواريين الذين آمنوا به قد سجلوا، هم الآخرون ـ ورغم إيمانهم به ـ ملامح ذلك الطور الأولى في سلم التطور لعقلانية

البشر، عندما طلبوا، هم الآخرون، من عيسى «الآية ـ المعجزة» التى «تدهش العقول»!.. ﴿إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين (١١٢) قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين (١١٣) قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين (١١٤) قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين﴾[9].

ولذلك.. فعلى الرغم من أن دعوة عيسى، عليه السلام، كانت ﴿أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾[10].. إلا أن قومًا قد ضلوا فيه، فاستعظموا أن تظهر هذه «الآيات ـ المعجزات ـ التى «تدهش العقل» على يد «بشر»، فاتخذوه وأمه إلهين من دون الله؟!.

تلك كانت مسيرة الإنسانية مع رسالات السماء.. ﴿وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين﴾ [الأنبياء:٨]..

فتعبيراً عن قصور هذه الإنسانية فى «الرشد العقلانى»، كان استنكار الأكثرية «جدارة البشر» بالنبوة والرسالة.. والنزوع إلى أن تكون «معجزة» الرسول مما «يدهش العقل» ولا يحتكم إليه؟!..

ولهذا رأينا القرآن الكريم ـ وهو المعجزة العقلية الخالدة للرسالة الخاتمة ـ يلح؛ معالجًا بقايا هذه الفكرية الجاهلية، على بشرية محمد بن عبد الله ﷺ ليعلن ويؤكد:

- جدارة البشر بالاصطفاء الإلهى نبيًا ورسولاً..
- واستحالة أن يكون النبى والرسول إلا بشرًا يوحى إليه..
- وانتهاء الطور الساذج من المسيرة التطورية للإنسان، والذى كانت تناسبه «الآيات ـ المعجزات»، التى «تدهش العقل».. فلقد أخلى هذا الطور المكان لطور بلغت فيه الإنسانية «رشدها».. وإذا كان الإسلام هو الرسالة الخاتمة، وبها ارتفعت الوصاية عن الإنسان، فلابد وأن يلعب «العقل» دوراً قائداً فى «رشد» هذا الإنسان وفى «إرشاده».. ومن ثم فإن «طبيعة الإعجاز» فى معجزة محمد لابد وأن تختلف

عن طبيعتها في معجزات الرسل السابقين.. إنها لن «تدهش العقل» بل ستتخذه حكمًا وحاكمًا؟!.

نعم.. لقد وقف هذا السبب خلف إلحاح القرآن الكريم على «بشرية» محمد ابن عبد الله.. رغم أن هذه «البشرية» لم تكن موضع خلاف ولا موطن شبهات..

فمن العرب من ردد مقولة الأمم السابقة ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[11].. بل وطلبوا ما طلبته تلك الأمم ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾[12]!..

وأمام هذا «المنطق الجاهلي»، الذي وقف بأصحابه عند «جاهلية الإنسانية»، توالت آيات القرآن تكشف زيف هذا «المنطق». فالتكذيب والعناد والجحود هو سبب الكفر، وليس الافتقار إلى «الآية - المعجزة» «المدهشة للعقل»، وذلك بدليل أن مجيء معجزات الرسل السابقين على هذا النحو لم تحول قومهم من الكفر إلى الإيمان ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾[13]... كما أن الرسل كانوا، دائما، بشرا يأتيهم وحي السماء ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾[14].. وبلوغ الإنسانية «طور الرشد» قد آذن بختام «طور النبوة والرسالة»، الأمر الذي أفسح «للعقل الإنساني» مكانًا عاليًا في «ترشيد» الإنسان و«هدايته»؛ ولذلك كله اختلفت «طبيعة الإعجاز» في معجزة محمد، عليه الصلاة والسلام.. ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا (٨٩) وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾[15].

ولقد كان القرآن الكريم، بهذا المنطق، يقطع الطريق على كل المحاولات التي

يمكن أن تظهر من ضعاف العقول، وضعاف الإيمان «بالعقل»، لتشكك فى «بشرية» الرسول، عليه الصلاة والسلام ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[١٦].. فهذا التأكيد على «بشرية» الرسول، وثيق الصلة بالتأكيد على ضرورة أن تبقى عقيدة «التوحيد، فى التصور الإسلامى، محتفظة بنقائها الشديد!.. وفى هذا الضوء، وجب ويجب على العقل المسلم أن ينظر إلى كل «القصص» و«أخبار الآحاد» التى نسبت وتنسب إلى الرسول ﷺ «الخوارق المادية» «المدهشة للعقول»!.. والتى هى من جنس معجزات الرسل الذين سبقت رسالاتهم رسالة الإسلام، عندما لم تكن البشرية قد بلغت سن الرشد الذى آذنت به رسالة الإسلام؟!..

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول محذراً أمته من استعارة سذاجة الأمم التى سبقت، والسير على نهجها فى الانحراف عن «الرقى والبساطة» اللتين تميزت بهما عقائد الإسلام: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»[١٧]؟!

إن «بشرية الرسول»، التى تؤكدها «معجزته ـ القرآن» ليست مجرد «تحصيل حاصل».. وإنما هى «ثورة» على التصورات الجاهلية، للأمم السابقة، عن «طبيعة الرسل» و«طبيعة المعجزات»... كانت كذلك عندما تحدث عنها القرآن الكريم.. وهى لا تزال كذلك.. «ثورة» على «التصورات» التى طرأت على أفكار ومواريث بعض التيارات الإسلامية التى استنامت للقصص الخراقى، ولم تتخذ من «العقلانية الإسلامية» موقفا وديا؟!.

إن علينا أن نتذكر ذلك، ونحن نقرأ هذه الصفحة من فكر الإسلام، وسيرة رسوله، عليه الصلاة والسلام، وأن نعى ماذا يعنيه قول الرسول ﷺ: «اعقلوا عن ربكم، وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه.. واعلموا أنه ينجدكم عند ربكم»!..

ولقد سأل على بن أبى طالب رسول الله عن سنته، فقال: «.. والعقل أصل دينى»!.. صدق رسول الله، عليه الصلاة والسلام.

* * *

● **الهوامش:**

(١) المؤمنون: ٢٣، ٢٤.

(٢) المؤمنون: ٣٣، ٣٤.

(٣) الشعراء: ١٤١ ـ ١٤٣.

(٤) الشعراء: ١٥٣، ١٥٤.

(٥) القمر: ٢٤.

(٦) الشعراء: ١٧٧، ١٧٨.

(٧) الشعراء: ١٨٥، ١٨٦.

(٨) الشعراء: ١٨٧.

(٩) المائدة: ١١٢ ـ ١١٥.

(١٠) المائدة: ١١٧.

(١١) الأنبياء: ٣.

(١٢) الأنبياء: ٥.

(١٣) الأنبياء: ٦.

(١٤) الأنبياء: ٧، ٨.

(١٥) الإسراء: ٨٨ ـ ٩٣.

(١٦) الكهف: ١١٠.

(١٧) رواه البخاري ومسلم وابن ماجه والإمام أحمد.

* * *

المنهاج النبوى فى المداعبة.. والملح.. والطرائف.. والنكات

(١)

الإسلام دين الوسطية.. ولقد شاء الله، سبحانه وتعالى، أن تكون هذه الوسطية «جَعْلاً إلهيًا»، وليس مجرد خيار من خيارات المؤمنين بالإسلام، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[١].

ونحن نلاحظ أن هذه الآية الكريمة قد جعلت الوسطية علة وسببًا يترتب عليه اتخاذ الأمة الإسلامية موقع «الشهود» على العالمين، بما في هذا العالمين من أمم وشعوب، وملل ورسالات وثقافات وحضارات.. وذلك التعليل وثيق الصلة بمعنى «الوسطية» ومعنى «الشهود».. فالوسط ـ كما علمنا رسول الله ﷺ ـ هو العدل: «الوسط: العدل، جعلناكم أمة وسطا»[٢].. والعدل هو الشرط المؤهل للشهادة والشهود على العالمين؛ ولأن هذه الأمة الخاتمة قد آمنت بكل النبوات والرسالات والكتب السماوية، كانت وحدها المؤهلةُ عدالتُها بالشهادة على العالمين، بما في ذلك الشهادة على تبليغ كل الرسل رسالاتهم إلى أمم هذه الرسالات.

* * *

وإذا كان العلماء قد أجمعوا على أنه «لا مُشَاحَّة في الألفاظ والمصطلحات».. فإن انتفاء هذه «المشاحة» واقف فقط عند استخدام هذه الألفاظ وهذه المصطلحات، أما المضامين والمفاهيم المقصودة من وراء استخدام هذه المصطلحات فإن فيها الكثير والكثير جداً من المشاحات، وخاصة عندما تتعدد ـ وأحيانا تتناقض ـ المفاهيم المرادة من وراء المصطلح الواحد؛ بسبب تعدد الثقافات والحضارات والفلسفات والمواريث..

● فمصطلح «الدِّين»، تستخدمه وتردده كل الأمم والشعوب، لكن مفهومه ومضمونه عند أهل «الديانات الوضعية» غيره عند أهل الديانات السماوية.. ومفهومه ومضمونه فى الفلسفات المادية يعنى: الإفراز الخرافى والأسطورى للعقل الإنسانى فى مرحلة الطفولة من تطور الإنسان[3]!.. بينما يعنى «الدِّين»، فى النسق الربانى: الوضع الإلهى الذى نزل به الوحى الأمين على الأنبياء والمرسلين، لسَوْق ذوى العقول، باختيارهم المحمود، إلى الهداية والخير فى الدنيا والآخرة[4]..

● ومصطلح «السياسة»، تستخدمه وتردده كل الأمم والشعوب والثقافات، لكنه يعنى فى الحضارة الوضعية الغربية: فن الممكن من الواقع، تحقيقًا للقوة، وذلك بصرف النظر عن علاقة هذه التدابير السياسية بالقيم والأخلاق.. بينما يضبط النسق الإسلامى - فى فلسفة السياسة - هذه التدابير السياسية بالقيم والأخلاق، فالسياسة - فى هذا النسق - «هى التدابير التى يكون الناس معها أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد»[5].. وفارق جوهرى بين هذا المفهوم للسياسة، وبين مفهومها وفلسفتها الغربية عند «ميكيافيللى» [١٤٦٩ - ١٥٢٧م]، ذلك الذى شاع فى فلسفة السياسة بالحضارة الوضعية الغربية ولا يزال شائعًا وحاكمًا حتى هذه اللحظات.

● «والإقطاع»: مصطلح تردده كل الأمم والشعوب، لكنه يعنى فى الحضارة الغربية: ملكية الأرض ومن وما عليها.. بينما هو فى النسق الإسلامى: تمليك منفعة، لإحياء الأرض الموات، واستثمارها والانتفاع بها، وفق الضوابط التى وضعها - فى الشريعة - مالك الرقبة فى كل الأموال والثروات، سبحانه وتعالى..

● وكذلك الحال مع مصطلح «الوسطية»، الذى يعنى - فى «الفكر الشَّرقى» - التميُّع وانعدام التحديد، وافتقار الموقف «الوسطى» إلى اللون والطعم والرائحة!..

والذى يعنى - فى الفكر الأرسطى.. وفلسفة «أرسطو» [٣٨٤ - ٣٢٢ق م]: الفضيلة بين رذيلتين، أى الموقف الثالث، الذى هو بمثابة نقطة رياضية ثابتة بين قطبين، مع المغايرة الكاملة بين هذا الموقف الثالث - الوسطى - وبين هذين القطبين[6].

لكن المفهوم الإسلامى للوسطية ليس كذلك، فهى وسطية جامعة، تمثل موقفًا ثالثًا بين القطبين المتقابلين والمتناقضين، لكنها لا تغاير هذين القطبين مغايرة تامة، وإنما هى تجمع منهما عناصر الحق والعدل لتكوِّن منها وبها هذا الموقف الوسطى الجديد.. فهى، فى حقيقتها، رفض للغلو الذى ينحاز إلى قطب واحد من هذين القطبين ـ غلو الإفراط أو غلو التفريط ـ..

فوسطية الإسلام، الرافضة للغلو المادى ـ الذى آلت إليه اليهودية ـ والرافضة للغلو الروحى ـ الذى آلت إليه النصرانية ـ هى وسطية لا تغاير المادة والمادية ولا الروح والروحانية كلية، وإنما هى الوسطية الجامعة لعناصر الحق والعدل من المادية والروحانية جميعًا، على النحو الذى يوازن توازن العدل بينهما.. ولذلك، فإنها ـ هذه الوسطية الإسلامية الجامعة ـ تصوغ الإنسان الوسط: راهب الليل وفارس النهار.. الجامع بين الفردية والجماعية.. بين الدنيا والآخرة.. بين الدين والدنيا.. بين الدولة والدين.. بين الذات والآخر.. بين التبتل للخالق والاستمتاع بطيبات وجماليات الحياة، التى خلقها الله وسخرها لهذا الإنسان[٧]..

***

(٢)

ولأن النموذج والقدوة والأسوة تنهض بالدور الأول فى ميدان التربية والتزكية والصياغة للإنسان والمجتمع والثقافة والحضارة، فلقد شاء الله، سبحانه وتعالى، أن تكون القدوة والأسوة للأمة الوسط ذلك النبى الأمى الذى جسدت حياته أكمل نموذج للوسطية الإسلامية الجامعة يمكن أن يتحقق فى دنيا الناس.. لقد صنعه الله على عينه، ليكون نموذج هذه الوسطية الإسلامية وقدوتها وأسوتها.. فهو بشر يوحى إليه.. بشر تجوز عليه كل عوارض البشرية، يولد.. ويمرض.. ويألم.. ويموت.. وهو يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق.. ولا يأتى من الخوارق إلا ما شاء الله.. وفى ذات الوقت، ولأنه يوحى إليه، فلقد مثَّل رباط وارتباط الأرض بالسماء، وحلقة الوصل بين عالم الشهادة وعالم الغيب.. وبعبارة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٥ ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م]: «فإن روحه ﷺ ممدودة من الجلال الإلهى بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليها سطوة

روحانيــة.. فهو يشرف عـلى الغيب بإذن الله، ويعلم ما سـيكون من شأن الناس فيه، وهو في مرتبته العلوية على نسـبة من العالمين، نهاية الشاهد وبداية الغائب، فـهو فـي الدنيا كـأنه ليس من أهلـها، وهو وفـد الآخـرة في لبـاس من لبس من سكانها.. يتلقى مـن أمر الله ويحدث عن جلاله بما خـفي عن العقول من شـئون حضرته الرفيعة بما يشـاء أن يعتقده العباد فيه.. معبرًا عنه بمـا تحتمله طاقة عقولهم ولا يبعد عن متناول أفـهامهم.. ثم هو بعد ذلك بشر يعتريه ما يعـتري سائر أفراد البشر، مما لا يقدح في مقتضيات رسالته[٨]..

لقد أدبه ربه فأحسن تأديبه، فكان على خلق عظيم، وجـمـعت حياته وسياساته بين الاجتهـاد الإنساني وبين الوحي المسدِّد للاجتـهاد، والحاكم فيمـا لا يستقل به الاجـتهـاد.. وهو ﷺ العـابد المتـبتل، الذي يـقف بين يدي مـولاه حتى تتـورم قدماه.. وهو الذي جـعل رهبانيته ورهبانيـة أمته الجهاد في سبـيل الله، حتى لقد كان الفـارس المقاتل الذي يحـتمي به الفـرسان إذا اشتـد القتـال، وازداد البأس، وحمي الوطيس، واحمـرت الحدق، فلا يكون أحد أقـرب إلى الأعداء منه، عليه الصلاة والسلام.. ومع ذلك، كان أشد حيـاء من العذراء في خدرها، ولقد جعل الحيـاء في شـريعتـه شـعبـة من شـعب الإيمان.. كـان أشـجع النـاس.. وأحلم الناس.. كانت عبادته مجاهدة وجهادًا.. وكان جهاده عبادة وتقربًا إلى الله..

وفي قـدوته وأسوته جـمـعـت الوسطية بين قـوة الصبر والمصـابرة وبين ذروة الخـشوع والخـضوع في الصـلاة ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[٩].

وكذلك جـمعت قدوته وأسـوته بين الرفق الرفيق بالإنـسـان ـ مطلق الإنسان ـ والحيوان والنبـات والبيئة ـ بما في ذلك الجـماد ـ لأنها جميـعها حية تسـبح بحمد خالقها ـ حتى وإن لم نفقه تسبيحها ـ وبين الغضب الشديد لدين الله وحرمات الله وحدود الله.

كما جـمعت قدوته وأسوته بين زهد الغَـنِيّ في متاع الدنيا وبين عـشق الجمال الذي خلقه الله وبثه زينة في هذا الكون الجمـيل.. فكانت وصـاياه باختيار الاسم الحسن، والاستـمتاع باللهو الحلال، والاسـتعاذة بالله ـ في دعاء السـفر ـ من كآبة

المنظر، ودعائه ربه ـ فى صلاة الاستسقاء ـ: «اللهم أنزل علينا فى أرضنا زينتها». كما جمعت وسطيته بين تفضيل الحياة مع المساكين ـ لا الملوك الجبارين والمترفين ـ وبين الرقة والزينة، حتى لقد جاء فى صفاته وشمائله أنه «لم تكن يد ألين من يده، ولا ريح أطيب من ريحه.. أطيب رائحة من المسك.. فكأن وجهه يبرق من السرور.. وكأن عرقه اللؤلؤ»(١٠).

كما جمعت وسطيته بين تبتل العابد عندما يعتكف بالمسجد وبين الزينة حتى أثناء الاعتكاف، فكان يناول رأسه لعائشة ـ رضى الله عنها ـ وهى فى حجرتها، لترجّل له شعره(١١)، عليه الصلاة والسلام..

هكذا جسدت القدوة والأسوة النبوية، بهذه الوسطية الإسلامية الجامعة، نموذج الإنسان الكامل، الذى امتاز وتميز عن غلو الإفراط والتفريط..

* * *

(٢)

وهذا النبى الأمىّ، الذى نهض لتغيير العالم فى شئون الدين والدنيا.. وتقدم لتحويل مجرى التاريخ.. ومفهوم الثقافة والحضارة.. ومعنى إنسانية الإنسان.. والذى كابد ما كابد ـ ثلاثة عشر عامًا فى المرحلة المكية ـ وبنى الدولة، وبلور الأمة، وقاد من الغزوات والسرايا والبعوث ما زاد على الستين ـ فى تسع سنوات من المرحلة المدنية ـ هو الذى جمعت وسطيته بين هذه المجالدة والمكابدة وبين الترويح عن النفس لتجديد ملكات وطاقات هذه النفس؛ كى تستطيع النهوض بتبعات المجالدة والمكابدة والمجاهدة، وكى تستمتع بما خلق الله فى هذه الحياة من ألوان الجمال وعوامل المتاع والاستمتاع.

وإذا كنا قد أفردنا للسيرة الجمالية والفنية لرسول الله ﷺ دراسات سبق نشرها(١٢)، فإن سنة هذا النبى الأمى فى الترويح عن النفس الإنسانية بالملح والطرائف والنكات والمزاح هى مهمة هذه الصفحات..

* * *

وبين يدى هذه الإشارات واللمحات عن هذا الجانب من سيرة المصطفى ﷺ

لابد من تحديد المعانى والمفاهيم لمصطلحات: «المُلْحَة».. و«الطُّرْفَة».. و«النُّكْتَة».. و«المَزْح»، فى اصطلاح العربية وثقافة الإسلام..

● فالمُلْحَةُ - بضم الميم وسكون اللام وفتح الحاء -: هى القول والفعل الذى فيه ظُرف.. وفى [أساس البلاغة] للزمخشرى [٤٦٧ - ٥٣٨هـ ١٠٧٥ - ١١٤٤م]: «.. ومن المجاز: وجه مليح، ووجوه ملاح، وما أملح وجهه وفعله!، وما أُمَيْلِحَهَ!، وله حركات مُستملَحة. وحدثنه بالمُلَح. وفلان يتظرف ويتملَّح.

وقال الطرماح [١٢٥هـ ٧٤٣م] يخاطب زوجته سليمة:

«تَمَلَّحُ ما استطاعتْ ويغلبُ دونها هوىً لك يُنْسى مُلْحَةَ المتملِّح»[١٣]

وفى [لسان العرب] - لابن منظور [٦٣٠ - ٧١١هـ ١٢٣٢ - ١٣١١م] -: «عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال رسول الله ﷺ: «الصادق يعطى ثلاث خصال: المُلحة، والمهابة، والمحبة»[١٤]..

فالمُلحة: هى القول أو الفعل أو الحركات الظريفة، التى تُكْسب الحديث أو الموقف مُلحة وظُرفًا.. وهو قصد زائد على الضرورى من الأقوال والأفعال.. والوسط فيها هو المحمود؛ لأنه بمثابة الملح للطعام، وسطه مفيد، والإسراف فيه ومنه مفسد لأصل الطعام..

● والطُّرْفة - بضم الطاء مشددة وسكون الراء وفتح الفاء - وجمعها: الطُّرَف - هى المُستحدَث المُعْجِب المُتحِف[١٥].. وكل شىء استحدثته فاعجبك[١٦]..

فهى القول أو الحركة أو الفعل الظريف، الذى يضيف إلى المعنى ما يُعجب ويسر نفوس السامعين والمشاهدين...

● والنُّكْتَة - بضم النون مشددة وسكون الكاف وفتح التاء - وجمعها نُكت ونِكات - فى معناها اللغوى -: هى النقطة البيضاء فى السواد، أو النقطة السوداء فى البياض.. ومن معانيها: المسألة الدقيقة التى أُخرجت بدقة نظر وإمعان فكر.. وهى - فى المجاز -: المعنى غير المألوف، والجملة اللطيفة، تؤثر فى النفس انبساطًا.. ونُكتُ الكلام أسراره ولطائفه[١٧]..

● والمَزْح ـ بفتح الميم وسكون الزاى ـ: هو الدعابة.. ونقيض الجد.. والمُزَّاح من الناس: هم الخارجون من طبع الثُقلاء، والمتميزون من طبع البُغَضاء[18]..

فالمزاح هو تلوين الكلام أو الحركات بالدعابة التى تُكسبه ظُرفًا يُخرجه عن صرامة الثقلاء وجفاف البُغَضاء.

هذا عن التعريف بمضامين ومفاهيم هذه المصطلحات..

* * *

(٤)

ولأن رسول الله ﷺ كان النموذج الأعظم للإنسان الكامل، الذى تكاملت فى صفاته وشمائله وأفعاله الوسطية الجامعة، والتوازن العدل، فإن حياته وأسوته وقدوته لم تخل من المُلح والطرائف والنكات، التى نهضت بمهام الترويح عن النفس، وتجديد ملكات وطاقات القلوب، والإعانة على جد الحياة وصعابها، مع التزام الحق والصدق والعدل، أى الوسط والوسطية المتميزة عن الغلو، إفراطًا كان أو تفريطًا..

إننا نطالع فى السنة النبوية: أن رسول الله ﷺ كان يمزح، أى يداعب أصحابه ـ رجالاً ونساء ـ ولكنه لا يقول إلا حقًا.. حتى لقد قال له صحابته، رضوان الله عليهم:

ـ يا رسول الله، إنك تداعبنا!.

ـ فقال: إى إنى وإن داعبتكم لا أقول إلا حقًا»[19].

● وفى صفاته وشمائله ـ من حديث على بن أبى طالب ـ: «كان رسول الله ﷺ دائم البشر، سهل الخُلق، ليّن الجانب»..

● ومن حديث عبد الله بن الحارث بن جزء: «ما رأيت أحدًا أكثر تبسمًا من رسول الله ﷺ[20].. كان أكثر الناس تبسمًا وضحكًا فى وجوه أصحابه، وتعجبًا مما تحدثوا به، وخلطا لنفسه بهم».

● وكان ﷺ يرى اللعب المباح ولا يكرهه.. ولقد أفسح لفرقة من الأحباش

تلعب وترقص - تزفن - وتغنى بمسجد المدينة، وسأل زوجه عائشة، رضى الله عنها، إن كانت تشتهى أن تشاهدهم، وتستمتع بألعابهم ورقصاتهم وأغنياتهم، فوقفت خلفه وخدها على خده - [فى منظر إنسانى رقيق] - حتى اكتفت وانصرفت عنهم.. وعندما دخل عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، المسجد، وهمّ بنهر الأحباش، أوقفه رسول الله ﷺ وشجّع الأحباش على مواصلة اللعب.. قائلاً:

- «دونكم بنى أرفدة.. لتعلم يهود أن فى ديننا فسحة، وأنى أُرسلت بحنيفية سمحة»[٢١].

● ومن حديث جابر بن سمرة: أن صحابة رسول الله ﷺ «كانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحيانًا، ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم، ولا يزجرهم إلا عن حرام»[٢٢].

● ومن حديث عبد الله بن مسعود: «ولربما ضحك ﷺ حتى تبدو نواجزه»[٢٣].

● ومن حديث كعب بن مالك: كان ﷺ «إذا سُرّ استنار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر»[٢٤]..

● ومن حديث أنس بن مالك «أن النبى ﷺ كان من أفكه الناس مع نسائه»..

● ولقد روت عائشة، رضى الله عنها، فقالت: كان عندى رسول الله ﷺ وسودة بنت زمعة، فصنعتُ حريرة[٢٥]، وجئت به، فقلت لسودة:

- كلى..

- فقالت: لا أحبه..

- فقلتُ: والله لتأكلن أو لألطخن به وجهك..

- فقالت: ما أنا بذائقته..

فأخذتُ بيدى من الصحفة شيئًا منه، فلطّختُ به وجهها، ورسول الله ﷺ جالس بينى وبينها، فخفض رسول الله ركبتيه لتستقيد منى، فتناولتْ من الصحفة شيئًا، فمسحت به وجهى، وجعل رسول الله يضحك»[٢٦].

● وعن عائشة، رضى الله عنها: «سابقنى رسول الله ﷺ فسبقته، فلما حملتُ

اللحم سابقنى فسبقنى، وقال: «هذه بتلك»[٢٧].

● وعن أبى هريرة، رضى الله عنه، أن الضحاك بن سفيان الكلابى، كان رجلاً دميمًا قبيحًا، فلما بايعه النبى ﷺ قال:

ـ إن عندى امرأتين أحسن من هذه الحميراء ـ [وكانت عائشة حاضرة، قبل أن تنزل آية الحجاب] ـ أفلا أنزل لك ـ يا رسول الله ـ عن إحداهما فتتزوجها؟..

فقالت عائشة:

ـ أهى أحسن أم أنت؟!.

ـ فقال: بل أنا أحسن منها وأكرم..

فضحك رسول الله ﷺ من سؤالها إياه ـ لأنه كان دميمًا ـ[٢٨]..

● وعن الحسن: أتت عجوز إلى النبى ﷺ فسألته أن يدعو الله لها بالجنة، فقال:

ـ «لا يدخل الجنة عجوز».

فبكت، فقال:

ـ «إنك لست بعجوز يومئذ قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾[٢٩]»[٣٠].

● وعن زيد بن أسلم قال: إن امرأة يقال لها أم أيمن، جاءت إلى النبى ﷺ فقالت:

ـ إن زوجى يدعوك.

ـ فقال لها: «من هو؟ أهو الذى فى عينه بياض؟».

ـ قالت: والله ما بعينه بياض..

ـ فقال: «بلى، إن بعينه بياضًا»..

ـ قالت: لا، والله..

ـ فقال: «ما من أحد إلا وبعينه بياض».

● وجاءت امرأة أخرى إلى رسول الله ﷺ فقالت:

ـ يا رسول الله، احملني على بعير..

ـ فقال: «بل تحملك على ابن البعير»..

ـ فقالت: ما أصنع به؟!.. إنه لا يحملني..

ـ فقال: «ما من بعير إلا وهو ابن بعير»..

● ومن حديث أنس بن مالك: كان لأبي طلحة ابن يقال له أبو عمير. وكان رسول الله ﷺ يأتيهم ويقول:

ـ «يا أبا عمير، ما فعل النُّغَيْر؟»..

ـ والنُّغَيْر: فرخ العصفور، كان يلعب به الغلام[٣١] ـ.

● ومن رواية زيد بن أسلم، عن خوات بن جبير الأنصاري، أن خوات كان جالسًا إلى نسوة من بني كعب، بطريق مكة، فطلع عليه رسول الله ﷺ، فقال:

ـ «يا أبا عبد الله، ما لك مع النسوة؟»!..

ـ فقال: يفتلن ضفيرًا لجمل لي شرود..

قال: فمضى رسول الله ﷺ لحاجته، ثم عاد، فقال:

ـ «يا أبا عبد الله، أما ترك ذلك الجملُ الشِّرَاد بعد؟»!.

قال: فسكتُّ واستحييتُ. وكنتُ بعد ذلك أتَفَرَّرُ منه كلما رأيته حياءً منه، حتى قدمتُ المدينة، فرآني في المسجد يومًا أصلي، فجلس إليَّ، فطوَّلتُ، فقال:

ـ «لا تُطَوِّل، فإني أنتظرك»..

فلما سلَّمتُ قال:

ـ «يا أبا عبد الله، أما ترك ذلك الجمل الشِّرَاد بعد؟»!.

فقلت:

ـ والذي بعثك بالحق ما شرد منذ أسلمت.. فقال:

ـ «الله أكبر، الله أكبر، اللهم اهد أبا عبد الله»..

قال ـ الراوى ـ فحسن إسلامه وهداه الله»[٣٢]..

● وروى أن نعيمان الأنصارى كان رجلاً مزاحا.. وكان لا يدخل المدينة رسل ولا طُرفة إلا اشترى منها، ثم أتى بها إلى النبى ﷺ فيقول:

ـ يا رسول الله، هذا قد اشتريته لك، وأهديته لك. فإذا جاء صاحبها يتقاضاه الثمن، جاء به إلى النبى، وقال:

ـ يا رسول الله، أعطه ثمن متاعه. فيقول له الرسول ﷺ:

ـ «ألم تهده لنا»؟!.

فيقول:

ـ يا رسول الله، إنه لم يكن عندى ثمنه، وأحببت أن تأكل منه.. فيضحك النبى ﷺ ويأمر لصاحبه بثمنه»[٣٣]..

● وعن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقًا، فأرسلنى يومًا لحاجة. فقلتُ: والله! لا أذهب. وفى نفسى أن أذهب لما أمرنى به نبى الله. فخرجتُ حتى أمرَّ على الصبيان وهم يلعبون فى السوق. فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاى من ورائى، فنظرتُ إليه وهو يضحك، فقال:

ـ «يا أُنيس! أذهبتَ حيث أمرتك»؟!

قال: قلتُ: نعم، وأنا أذهب، يا رسول الله»[٣٤]...[٣٥]

* * *

تلك نماذج وإشارات من سيرة المصطفى ﷺ وصفاته وشمائله، ومن سنته القولية والفعلية، مع أهله.. ومع صحابته ـ من الرجال والنساء ـ شاهدة على هذا البعد الأصيل فى المنهاج النبوى، والذى يجهله أو يتجاهله الكثيرون، وذلك عندما يحسبون الإسلام خشونة وتجهما، وعندما يريدون من النموذج الإسلامى ومن رجالات العلم الدينى أن يكونوا نماذج للصرامة والتخويف، وكأنهم المرادون

يقول الله، سبحانه وتعالى: ﴿ذلك يخوف الله به عباده﴾(٣٦).. غافلين، أو متغافلين عن الصورة القرآنية لنموذج القدوة والأسوة: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾(٣٧).. بل وحتى مع الأعداء، أمر الله، سبحانه وتعالى، صاحب الخلق العظيم برفق التدافع مع هؤلاء الأعداء - ناهيًا عن عنف الصراع - لأن هذا المنهاج هو السبيل لتأليف القلوب وإحداث التحولات في هذه القلوب ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون﴾(٣٨)، ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال إنني من المسلمين (٣٣) ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم﴾(٣٩)..

لقد كان ﷺ نموذجًا للإنسان الكامل.. العابد المتبتل.. والفارس المقاتل.. والرحيم الرفيق.. والغاضب لحرمات الله وحدود الله.. والباش الهاش المداعب والمفاكه لأهله وأصحابه بالملح والطرائف والنكات.. وصولاً إلى مفاتيح القلوب، وفقه النفوس والعقول، لتحقيق سعادة الإنسان في هذه الحياة وفيما وراء هذه الحياة..

وعن أبي هريرة، رضى الله عنه، أن الأقرع بن حابس أبصر رسول الله ﷺ يلاعب ويداعب الحسن بن علي، رضى الله عنهما، فيريه لسانه، ويقبله، فكأنما استغرب الأقرع بن حابس ذلك من رسول الله، فقال:

- إن لى عشرة من الولد ما قبلت واحدًا منهم.

فقال ﷺ:

- «من لا يرحم لا يُرحم»(٤٠)..

ففي البشاشة.. والدعابة.. والمزاح.. والملح.. والطرائف - إذا استقامت، وأعانت على تهذيب القلوب وتجديد الملكات وتأليف النفوس - رحمة، يكتبها الرحمن في حسنات الرُّحماء.

* * *

● **الهوامش:**

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) رواه الإمام أحمد.

(٣) انظر كتابنا [إسلامية المعرفة.. ماذا تعني؟] ص٩٤ ـ ٩٧ طبعة دار المعارف. القاهرة سنة ١٩٩٩م.

(٤) انظر: أبو البقاء الكفوى [الكليات] ـ مادة «الدين» ـ تحقيق: د. عدنان درويش، محمد المصري. طبعة دمشق سنة ١٩٨٢م.

(٥) ابن القيم [إعلام الموقعين] جـ٤ ص٣٧٢ طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.

(٦) انظر في الرسالة الحضارية للمصطلحات كتابنا [المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية] ص٥ ـ ١٥ طبعة دار الشروق القاهرة سنة ١٩٩٣م.

(٧) انظر في مفهوم الوسطية وأبعادها كتابنا [معالم المنهج الإسلامي] ص٧٧ ـ ١٩٣. طبعة دار الرشاد. القاهرة سنة ١٩٩٨م.

(٨) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص٤١٦، ٤٢٠، ٤٢١. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة دار الشروق القاهرة سنة ١٩٩٣م.

(٩) البقرة: ٤٥.

(١٠) رواه الإمام أحمد.

(١١) رواه الإمام أحمد.

(١٢) انظر كتابنا [الإسلام والفنون الجميلة] طبعة دار الشروق. القاهرة سنة ١٩٩١م. وكتابنا [الغناء والموسيقى حلال أم حرام؟] طبعة دار نهضة مصر. القاهرة سنة ١٩٩٩م.

(١٣) [أساس البلاغة] ـ مادة «ملح» ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠م.

(١٤) [لسان العرب] ـ مادة «ملح» ـ طبعة دار المعارف. القاهرة سنة ١٩٨١م.

(١٥) [أساس البلاغة] ـ مادة «طرف».

(١٦) [لسان العرب] ـ مادة «طرف».

(١٧) [أساس البلاغة] ـ مادة «نكت» ـ و[الكليات] ـ مادة «النكتة» ـ و[قاموس المنجد] ـ مادة «نكت» ـ طبعة بيروت سنة ١٩٨٦م.

(١٨) [لسان العرب] ـ مادة «مزح».

(١٩) رواه الترمذي والإمام أحمد.

(٢٠) رواه الترمذي والإمام أحمد.

(٢١) رواه مسلم والترمذي والإمام أحمد.

(٢٢) رواه مسلم.

(٢٣) متفق عليه.

(٢٤) رواه البخاري ومسلم والترمذي والإمام أحمد.
(٢٥) عصيدة، تصنع من الدقيق واللبن والدسم.
(٢٦) رواه أبو يعلى، بإسناد جيد.
(٢٧) رواه أبو داود والإمام أحمد.
(٢٨) رواه الدارقطني.
(٢٩) الواقعة: ٣٥ ـ ٣٧.
(٣٠) رواه الترمذي.
(٣١) متفق عليه.
(٣٢) رواه الطبراني في الكبير.
(٣٣) ذكره الزبير بن بكار ـ في الفكاهة ـ وابن عبد البر.
(٣٤) رواه مسلم.
(٣٥) انظر في ذلك كله: أبو حامد الغزالي [إحياء علوم الدين] جـ٧ ص١٢٨٢ ـ ١٣٠٣، ١٣٢٥ ـ ١٣٢٨، جـ٩ ص١٥٧٣ ـ ١٥٧٧، طبعة مصورة ـ دار الشعب القاهرة. ولقد خرّج العراقي ما أورده الغزالي من أحاديث في هذا الجانب ـ جانب الدعابة والملح والطرائف والنكات ـ من سنة وسيرة رسول الله ﷺ ـ وكتابه [المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار] مطبوع بهامش هذه الطبعة من [الإحياء]. وانظر ـ كذلك ـ [الرحيق المختوم] لصفي الرحمن المباركفوري. ص٤٨٦، ٤٨٧ طبعة دار الوفاء. مصر سنة ١٩٩٩م.
(٣٦) الزمر: ١٦.
(٣٧) آل عمران: ١٥٩.
(٣٨) المؤمنون: ٩٦.
(٣٩) فصلت: ٣٣، ٣٤.
(٤٠) رواه مسلم.

* * *

المنهاج الوسطى فى التعامل مع السنة النبوية

لقد أنعم الله، سبحانه وتعالى، على هذه الأمة عندما جعل وسطيتها إرادة إلهية وجَعْلاً ربانيًا، وليست مجرد خيار إنسانى لما هو مباح من الأمور ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وتميزت هذه الوسطية، فى النسق الفكرى الإسلامى، بأنها العدل المتوازن، والتوازن العادل، التى تبرأ من غلوى الإفراط والتفريط، فهى تجمع من طرفى الغلو عناصر الحق ومكونات العدل، لتكون هذه الوسطية الإسلامية الجامعة، موقفًا ثالثًا، هو اعتدال بين تطرفين، وتوازن بين خَلَلَيْن، وعدل بين ظلمين، . . وحق بين باطلين وهو المعنى الذى أصاب لبه حديث رسول الله ﷺ الذى عرّف فيه هذه الوسطية عندما قال: «الوسط: العدل، جعلناكم أمة وسطًا» ـ رواه الإمام أحمد ـ . .

فالوسطية، فى الفكر والسلوك، هى منظار الرؤية الإسلامية لكل شئون الدين والدنيا. . والغلو ـ بطرفيه ـ هو سبيل المتنكبين سبيل المؤمنين بالإسلام!. .

ولقد كان ـ ولا يزال ـ هذا الحال هو حال الناظرين والمتعاملين مع سنة رسول الله ﷺ. . ضل منهم أولئك الذين غالوا فى تعاملهم مع مأثورات السنة ومروياتها، إفراطًا أو تفريطًا. . واهتدى الذين اتخذوا منها الموقف الوسطى، المتسم بالتوازن والعدل والاعتدال. .

● لقد تميزت النظرة الأصولية الوسطى للسنة النبوية بالتمييز، فى مرويات هذه السنة ومأثوراتها، بين الأحاديث المتواترة وبين أحاديث الآحاد. . والتمييز فى كتب السنة بين الصحاح التى وضع جامعوها شروطًا للصحة رفعت من درجات الاطمئنان للمرويات، وبين تلك الكتب التى جمع أصحابها كل المرويات، تاركين

التدقيق والفرز للعقل الناقد، وفق قواعد علم الجرح والتعديل للرواة وللمتون ومضامين المرويات.

والتمييز في مضامين المرويات بين «العقائد» ـ التى لابد من أخذها عن النصوص قطعية الثبوت ـ وبين «الأمور العملية» ـ التى تحولت إلى «واقع» مارسه الناس ـ والتى يمكن ـ لذلك ـ أخذها عن أحاديث الآحاد، ظنية الثبوت..

● كذلك، ميز هذا المنهاج الوسطى ـ فى التعامل مع السنة النبوية ـ بين:

ـ السنة النبوية، التى جاءت بيانا نبويًا للبلاغ القرآنى، والتى هى لذلك، دين ثابت، اكتسبت وضع الدين الإلهى من مجيئها بيانًا للوضع الإلهى ـ أى الدين ـ..

ـ وسنة العبادة، التى جاءت تفصيلاً لمجمل القرآن الكريم، وتجسيداً للمناسك والشعائر التى تمثل طاعة العباد للمعبود، وآيات إسلام المسلمين الوجه لله.. والتى هى، لذلك، دين خالد، ومطلق دينى، لا زيادة فيها ولا نقصان منها، ولا تغيير لها ولا تبديل، مهما تغاير الزمان أو اختلف المكان، أو تبدلت العادات والأعراف..

ـ والسنة التشريعية، التى مثلت أحكامًا جاءت بها الأحاديث النبوية فى المعاملات الدنيوية الثوابت، المرتبطة بمنظومة القيم الثابتة، وبالفطرة الإنسانية السوية، التى لا تختلف باختلاف الزمان والمكان..

ميز المنهاج الإسلامى الوسطى بين أنواع السنة هذه ـ التى هى دين مطلق وخالد ـ لأنها البيان النبوى للبلاغ القرآنى ـ الذى هو جماع الدين.. وديوان الوضع الإلهى ـ وبين ألوان من السنة النبوية، مثلتها أحاديث تعلقت بـ:

ـ سنة العادة، التى فعلها أو تركها رسول الله ﷺ لعادات وأعراف اجتماعية بيئية.. أو لجبلّة إنسانية.. أو لحب أو كره فى مقومات حياته كإنسان..

ـ والسنة غير التشريعية، التى مارسها رسول الله ﷺ فى نطاق الاجتهاد ـ غير المعصوم ـ فى المتغيرات الدنيوية، المعللة بحكم ومقاصد تتغير بتغير الوسائل المحققة لهذه الحكم وهذه المقاصد.. والتى تتعلق أساسًا بالسياسات والمعاملات فى التفاصيل والفروع ـ أى فى الفقهيات ـ..

- والسنة التى مثلت خصوصيات لرسول الله ﷺ والتى نص القرآن الكريم، أو نبه الرسول، فى الأحاديث، على أنها من خصوصياته التى لم يلزم بها أمة الإسلام..

● كذلك ميز المنهاج الإسلامى الوسطى - فى التعامل مع السنة النبوية - فى فعل رسول الله ﷺ وتركه، بين العبادات الثوابت.. وبين المعاملات المتغيرة.. فالأولى الاقتداء فيها والتأسى هو تعبُّد وعبادة.. والثانية لا ثبات فيها للوسائل ولا قداسة فيها للآليات، وإنما الدين فيها هو تحقيق المقاصد التى تعنيا المصالح الشرعية المعتبرة للعباد..

● وميز هذا المنهاج الوسطى كذلك، فيما تركه رسول الله ﷺ بين ما تركه لأنه منهى عنه دينًا.. وبين ما تركه لعدم ظهور ما يقتضيه فى عصره.. فباب الفعل لهذا المتروك مفتوح عندما تطرأ - مع العصور المتلاحقة - مقتضيات الفعل لهذه المتروكات..

***

تلك معالم ونماذج - مجرد معالم ونماذج - للمنهاج الوسطى فى التعامل مع السنة النبوية.. وهو المنهاج الذى ساد طوال عصور الاجتهاد الإسلامى، والتى دونت فيها السنة، وقامت فيها علومها، قسمة بارزة فى علوم الحضارة الإسلامية.

وكذلك صنع المنهاج الإسلامى الوسطى فى التعامل مع «البدعة»..

فالبدعة، التى هى ضلالة، والتى هى فى النار، هى ما خالفت كتابًا أو سنة صحيحة أو أثرًا تلقته الأمة بالقبول، أو إجماعًا مثل ويمثل سلطة الأمة فى التشريع..

أما المحدثات من الأمور، والإبداعات التى يبدعها الناس عبر الزمان والمكان، خارج نطاق ثوابت الدين وعقائده وعباداته وكليات معاملاته ومنظومة قيمه، فإن معيار القبول فيها أو الرفض لها هو موقع المقاصد التى تحققها من الحلال والحرام فى الدين، وعلاقة هذه المقاصد بالمصالح الشرعية المعتبرة للعباد.. ولذلك، فإن هذه البدع والإبداعات المحدثة تأخذ الأحكام الشرعية الخمسة.. فقد تكون

واجبة.. وقد تكون مندوبة.. وقد تكون مكروهة.. وقد تكون محرمة.. وقد تكون مباحة.. وذلك وفق موقعها من تحقيق المقاصد الشرعية والمشروعة، وليس وفق حدوثها قديمًا أو عدم حدوثها.. بل لقد استقر هذا المنهاج الوسطى الإسلامى - فى التعامل مع البدعة - على أن الإفتاء الفردى بما يخالف رأى جمهور العلماء ليس من البدعة المذمومة دينيًا.. ذلك أن الموازنة هنا ليست بين بدعة وسنة، وإنما هى بين رأى مرجوح - هو الإفتاء الفردى الجديد - وبين رأى راجح - هو إفتاء جمهور العلماء -.. فكل اجتهاد فى الإفتاء - فرديًا كان أو للجمهور - هو استنباط حكم «ظنى»، أما البدعة الضلالة فهى الإحداث فى الثابت الدينى؛ لأنها تُحلُّ «الظنى الإنسانى والنسبى البشرى» محل «المطلق الدينى»، الذى هو من وضع العليم الخبير..

* * *

لكن الفكر الإسلامى - فى عصر التراجع الحضارى.. وفى عصر التغريب - أى فى حقب «التقليد الموروث» و«التقليد الحداثى» - قد ابتلى بالانحراف عن هذا المنهاج الوسطى فى التعامل مع السنة النبوية..

فوجدنا من أهل «التقليد الموروث» من لا يميزون بين ألوان المأثورات والمرويات، فيلزمون أنفسهم ويلزمون الأمة بما لا يلزم - وهذا هو غلو الإفراط -.. ووجدنا من أهل «التقليد الحداثى» من يهدرون كل المرويات، بدعوى «التاريخية» أو «التاريخانية»، التى تربط كل النصوص بالزمن الذى ظهرت فيه، والملابسات التى صاحبت نشأتها الأولى، وذلك دون تمييز فى هذه النصوص بين أقسامها التى تحدث عنها علماء الأصول، حتى لقد جعلوها «علمًا» أفردوا له المؤلفات..

إنهم لم يميزوا بين السنة التى هى دين ثابت، لتعلقها بالبلاغ القرآنى والثوابت الدينية - فى العقائد والعبادات والقيم وثوابت المعاملات وفلسفات التشريع ومبادئه وقواعده - وبين السنة التى هى فقه الواقع النبوى المتغير، ومثلها سنن العادات والخصوصيات النبوية.. فمثلوا غلو التفريط، كما مثل أهل «التقليد الموروث» غلو الإفراط..

وإذا كان الله، سبحانه وتعالى، قد أراد لهذه الأمة أن تكون وسطًا.. عدلاً.. متوازنًا.. وذلك حتى تحقق الشهود الحضارى على حضارات الغلو - غلو الإفراط والتفريط -..

وإذا كانت حياتنا الفكرية الحديثة والمعاصرة، تعانى من الاستقطاب الحاد بين الغلاة، فى الموقف من السنة النبوية الشريفة، فإن الحاجة تتزايد إلى تقديم الفكر «الأصولى - الوسطى»، الذى يقدم للباحثين والقرّاء معالم المنهاج الوسطى فى التعامل مع سنة رسول الله ﷺ وذلك تعميقًا لمعالم هذا المنهاج الوسطى، الذى هو وحده منظار الرؤية الإسلامية الخالصة.. وأيضًا لدعوة الغلاة - من أهل «التقليد الموروث».. و«التقليد الحداثى» إلى كلمة سواء.

* * *

قل إنما علمها عند ربى

الإيمان بالغيب عقيدة من عقائد الإسلام.. وفى القرآن الكريم نجد الإيمان بالغيب صفة من صفات المتقين لربهم ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢، ٣].

وإذا كان كل ما غاب عن الإنسان فهو غيب، حتى ولو كان غيابه آنيًا، وإدراكه له وكشفه إياه ممكنا. فإن من الغيب ما استأثر الله، سبحانه وتعالى، بعلمه، دون كل المخلوقات.. ومن هذا القسم من أقسام الغيب يوم القيامة، وقيام الساعة، والقارعة، أى النازلة التى ستنهى عالم الشهادة، يوم يبعث الله الخلق، فيدخلون إلى عالم الحساب والجزاء..

ولذلك، كانت الساعة والقيامة والحاقة والقارعة عقيدة من عقائد الإيمان الإسلامى، فالإيمان أن يؤمن الإنسان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وقضاء الله وقدره..

ومن نعم الله على أمة الإسلام أن أوحى إلى رسولها ﷺ بالقرآن، الذى تكفل الله بجمعه - بعد نزوله منجما ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٧].. وبحفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].. فكان النص القرآنى «قطعى الثبوت» - فى سوره وآياته وكلماته وحروفه، وطريقة تلاوته -.. ولأن عقائد الإسلام - ومنها الإيمان بالغيب وقيام الساعة - هى أسس الإيمان الإسلامى، التى تفصح عنها وتعبر الشعائر والمناسك والعبادات وطرائق السلوك، فلقد كان من نعم الله على أمة الإسلام أن جعل الوحى القرآنى - القطعى الثبوت - هو المصدر لهذه العقائد المؤسسة للتدين بالإسلام..

ونحن عندما نلتمس نبأ الساعة والقيامة فى القرآن الكريم، فسنجدها من الغيب

الذى استأثر الله، سبحانه وتعالى، بعلمه.. يحدثنا القرآن عن ذلك فى الحديث عن المشركين الذين حسبوا أن ساعة القيامة وميقاتها هو مما أعلمه الله لرسوله، أو مما يبحث عنه ويتحراه الرسول، فسألوا النبى ﷺ عن هذا الميقات.. فنزل الوحى قاطعًا - فى الآيات المحكمة - بأن علم الساعة هو من الغيب الذى استأثر الله بعلمه، وأنه وحده، سبحانه، الذى يظهرها ويجليها فى ميقاتها، ولذلك، فهى تأتى الناس بغتة وفجأة، وأن علم ميقاتها ليس مما يبحث عنه ويتحراه الرسول، عليه الصلاة والسلام.. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (١٨٧) قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧، ١٨٨].

ولقد تعددت فى القرآن الكريم الآيات التى تتحدث عن أن الساعة ستأتى بغتة ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١]، ﴿وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٥].

ولأن قيام الساعة هو ميقات طى عالم الشهادة - كطى السجل للكتب - وبداية يوم البعث فى اليوم الآخر، للحساب والجزاء.. فلقد تحدث القرآن الكريم عن أشراط وعلامات هذا الانقلاب العظيم، وخاصة فى السور القرآنية التى حملت أسماء هذا اليوم العظيم - فى سور القيامة.. والواقعة.. والتغابن.. والحاقة.. والزلزلة.. والقارعة.. والغاشية.. والانفطار - ففى هذه السور، وفى آيات أخرى من القرآن، صور ومشاهد لأحداث ووقائع ذلك اليوم العظيم.

وإذا كنا نقرأ - بين الحين والحين - أخبارًا تأتينا فى أغلبها من المجتمعات الغربية - عن أناس وجماعات قد حددت ميقاتا معينا لقيام الساعة وانتهاء العالم، وأخذت تستعد له، إما بالتعبد - على طريقتها - أو بتوزيع ثرواتها وممتلكاتها.. أو بالإغراق والاستغراق فى المتع واللذات.. أو بالانتحار الفردى والجماعى.. إلخ.. إلخ..

فإن يقين القرآن الكريم قاطع بكذب هذه الأفكار والادعاءات؛ لأن علم الساعة وميقاتها هو من الغيب الذى استأثر بعلمه الله، سبحانه وتعالى، دون سواه. . وأيضًا، لأن المسلم يعلم من القرآن، أن عمر الدنيا وعالم الشهادة لا يزال ممدودا؛ لأن هناك أشراطا وعلامات وإنجازات وتطورات فى هذه الحياة الدنيا قد أنبأنا القرآن بحدوثها، وبلوغ العمران الدنيوى إليها، وهى مازالت فى نطاق المستقبل البعيد، الذى لم يصل إليه الإنسان، بل لم يستشرفه بعد فى هذا العصر الذى نعيش فيه. .

فهذه الحياة الدنيا لن تطوى صفحتها، بقيام الساعة، إلا بعد أن تأخذ الأرض زخرفها وزينتها ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:٢٤]. . وتلك أطوار فى العمران الإنسانى للأرض لا تزال فى طى المستقبل البعيد.

كذلك، قطع القرآن الكريم ببلوغ الدين الإسلامى مرحلة الظهور على الدين كله ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٣]، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح:٢٨]. . وتلك مرحلة لم يبلغها الإسلام بعد، ولا يزال أمام بلوغها الآماد الطوال. . ذلك أن وضع الإسلام اليوم بعيد بعدًا كبيرًا عن مرحلة الظهور على الدين كله، التى قطع القرآن الكريم ببلوغه إياها. . فتعداد المسلمين فى عالم اليوم أقل من ربع البشرية. . وأكثر من ربع البشرية ـ فى الصين والهند واليابان وفيتنام ولاوس وكمبوديا وكوريا ـ يتدينون بديانات وضعية، غير سماوية. . والربع الأخير من تعداد البشرية المعاصرة هم من النصارى ـ بمذاهبهم المختلفة ـ وهم قد غلبت على أكثريتهم ـ بسبب العلمانية ـ مذاهب «اللا أدرية» و«المادية» و«الإلحاد». . فرؤية الإسلام على «خارطة الدين» ـ مطلق الدين ـ فى عالم اليوم، تقطع بأن هناك آمادا بعيدة بين عالم اليوم وبين العالم الذى سيتحقق فيه ظهور الإسلام على الدين كله ـ تحقيقًا لنبأ القرآن العظيم ـ. بل إن ذلك هو الواقع حتى لو قرنا

ظهـور الإسلام على الدين كله بظهـور «الحلول الإسلامية» على كـل ما تقـدمه الديانات الأخـرى للحيـاة والإنسان مـن «حلول» . . فلا تزال النمـاذج الحضـارية والمنظومات القـيمة والنظم الاجتـماعية والاقـتصادية والسـياسية العامـة والسائدة والغالبة، فى عالمنا، غير إسلامية . .

بل إن واقعنـا الحالى يقول لنـا إن بيننا وبين ظهور الإسـلام ـ كنموذج حياتى شامل، وكنموذج حضارى ربانى ـ وبين الظهور والسـيادة والحاكمية حتى فى بلاد المسلمين . . إن بيننا وبين بلوغ هذا الهدف آماداً ـ نرجو الله ألا تطول! ـ . .

ولذلك كله، كان الحـديث عن آنية السـاعة، واقـتراب القيامـة؛ هو ضرب من حديـث الخرافة، وضـلالات الشعـوذة، وغـيبوبة الدجل، الذى يـرفضه الـقرآن الكريم، الذى هو نبأ السمـاء العظيم، والذى يجب أن يكون الحكم والحاكم على كل القصص والمأثورات التى تروى فى هذا الموضـوع . . خصوصاً وأن الكثير من هذه المأثورات إمـا أنهـا قصـص قُصّاص، اختـرعـوها للتـرهيب . . أو مـرويات موضوعـة . . أو روايات آحاد لا يجوز أن تكون مصـدراً للعقائد، التى قطع فـيها وكفى محكم القرآن الكريم . . والذين يتتبـعون تاريخ الإنسانية مع دعاوى اقتراب أو دنو يوم القـيامة وسـاعتـها، يجـدون هذه الدعاوى قـد تكررت كثيـراً فى هذا التاريخ الإنسانى ـ وكان أغلبها خارج عالم الإسلام ـ وثبت كذب جميعها . . وبقى منطق القرآن هو المتفرد بالصدق فى هذا الموضوع . .

ولقد شاءت حكمة الله، سـبحانه وتعالى، أن يستأثر علمه بتوقـيت يوم القيامة، وذلك حـتى يظل باب الأمل، ومن ثم باب العـمل، مفتـوحـين أمام الإنسـان، للنهـوض برسالة إعـمار هذه الأرض . . وحتى لا يـقع الإنسان فى حـالات اليأس والقنوط والعـبث، التى نشـاهدها ونقـرأ عنها ـ بين الحين والحـين ـ عند الذين يزعمون تحـديد المواقيت ليوم الدين . . فـتلك حكمة إلهية عظمى مـن وراء إخفاء يوم القيامة عن علم الإنسان . . بل إن هذه الحكمة الإلهية ـ حكمة مد حبال الأمل أمـام الحيـاة الإنسانيـة ـ نجدهـا فى مـيدان البحث العـلمى، وخاصـة فى العلوم الكونية، التى تتسارع فى ميادينها نجـاحات العقل الإنسانى. فكلما زادت مسـاحات المعلوم من آيات الكون وعوالمه أمام العقل الإنسـانى، كلما زادت، أمام هذا العقل العالم، مـساحات ما هو مـجهول من هذه العـوالم والآيات! . . وذلك حتى يظل

التدافع والتسابق الإنسانى فى هذه الميادين قائمًا دائمًا أبدًا.. إلى أن تأخذ الأرض زخرفها وزينتها، ويظن الناس - أى يوقنون - أنهم قد حققوا السيادة والسيطرة عليها.. حينئذ يأذن الله بطى صفحة هذه الدنيا، بعد أن تكون رسالة الإنسان فى عمرانها قد اكتملت، فتظهر أشراط الساعة، ويبعث الخلق، وتنتقل المخلوقات إلى يوم الدين والحساب والجزاء.

بل إن الإنسان ليزداد إيمانًا بحكمة استئثار علم الله بميقات الساعة، عندما يقف أمام حديث رسول الله ﷺ: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليفعل» - رواه الإمام أحمد -.

فليس من منهاج الإسلام، ولا من تقاليد الفكر الإسلامى الاشتغال ولا الانشغال بتحديد يوم القيامة.. لأن فريضة المسلم - حتى فى ذلك اليوم العظيم.. لمن أدركه - هى أن يظل قائمًا على رسالة العمران، فيغرس الفسيلة التى فى يده، حتى وهو يشهد أشراط ذلك اليوم العظيم..

ولعل فى مقارنة عالم الفكر الإسلامى وواقع المسلمين - عبر تاريخهم الحضارى - بعالم الفكر غير الإسلامى وواقع المجتمعات غير الإسلامية، إزاء هذه القضية، أن تشير إلى الفارق الجوهرى بين الفكرين والعالمين.. ففى المجتمعات غير الإسلامية - حتى تلك التى بلغت الذروة فى العلم الكونى والمادى - نجد انتشار دعاوى وخرافات قيام الساعة وحلول يوم القيامة.. لأن الفكر الدينى لتلك المجتمعات قد تأسس على مجافاة العقل ورفض العقلانية.. والإيمان لديهم - كما يقول قديسهم «أنسلم» [١٠٣٣ - ١١٠٩م] - لا يحتاج إلى إعمال عقل!.. أما الإيمان الإسلامى فإنه يصل إلى إدراك الصانع، سبحانه وتعالى، عن طريق عقل عالم المصنوعات.. وهو يدرك صفات الكمال الإلهية - من القدرة والإبداع والخلق والاختراع - عندما يعقل بديع المخلوقات.. ولذلك، تأسس الإيمان الإسلامى على «العقل» و«النقل» و«القلب»، وتميز المسلم بأنه يقرأ «النقل» بـ «العقل»، ويحكم «العقل» بـ«النقل».. فبرئ الفكر الإسلامى من الخرافات والشعوذات.. اللهم إلا القلة التى تبعت وتتبع الآخرين - فى خرافاتهم - شبرا بشبر وذراعا بذراع.. ومن هؤلاء يبرأ منهاج الإسلام فى الإيمان، ومنهاج المسلمين فى التفكير.

لماذا كان صومنا فى رمضان؟؟

هذه الأمة الإسلامية خرجت من بين دفتى كتاب.. فمن «رحم» القرآن الكريم وُلدت هذه الأمة، عندما صنعت سوره وآياته وصاغت وصبغت «الجوامع الخمسة» التى بلورتها ووحّدتها وجعلتها أمة متميزة من دون الناس.

فمن القرآن الكريم كان «جامع العقيدة» الواحدة والموحِّدة للأمة ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[1].

وفى القرآن الكريم جاء «جامع الشريعة» الواحدة، الجامعة للأمة فى الأصول والمبادئ والقواعد والقيم وفلسفة التشريع وروح القانون، والحاكمة لاختلاف وتنوع مذاهبها فى الفروع والجزئيات والمتغيرات ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[2].

وفى آيات القرآن الكريم جاء الحديث عن «وحدة الأمة»، فريضة جامعة لتنوعها فى الشعوب والقبائل والألوان واللغات ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[3].

وفى القرآن الكريم شاعت القيم الثوابت، التى صبغت «حضارة الأمة» ـ المدنية ـ بصبغة دين الإسلام، فاصطبغ «النسبى» بـ «المطلق»، لأول مرة فى تاريخ الحضارات ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾[4].. ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[5]..

ولهذه الجوامع الأربعة ـ فى العقيدة.. والشريعة.. والأمة.. والحضارة ـ توحدت «دار الإسلام»، فعرف الوطن الإسلامى «الأممية» الجامعة للأقاليم

والولايات والأقطار، التي تتمايز في إطار وحدة «دار الإسلام».. فهي «المحيط» الجامع الذي يحتضن «جزر» الشعوب والقبائل والأجناس واللغات والقوميات.. جَعْلاً إلهيا، وإرادة ربانية، عبرت عنها آيات القرآن الكريم..

• عيد الميلاد:

ولأن هذا القرآن الكريم قد بدأ نزوله في شهر رمضان.. الشهر الذي كان يتحنث - يتعبد - فيه محمد بن عبد الله ﷺ قبل البعثة، في غار حراء، مستخلصا نفسه استخلاصًا كاملاً من وثنية الجاهلية وجاهلية وثنيتها، وباحثا عن الدين الحق، ومتخذا لذلك بقايا الحنيفية من ملة إبراهيم الخليل - عليه السلام - سبيلا..

ولأن لحظة انبثاق النور القرآني قد كانت في ليلة القدر - إحدى الليالي الوتر في العشر الأواخر من شهر رمضان سنة ١٣ق.هـ سنة ٦١٠م - فلقد غدت هذه الليلة - ليلة ميلاد النور القرآني - خيرًا من ألف شهر ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ② لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ④ سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾[٦].. فلقد غدا هذا الشهر، الذي شرف بهذه الليلة، وبلحظة انبثاق النور القرآني فيها، غدا ميقات واحدة من الفرائض الإسلامية - فريضة الصوم - رابع الأركان الخمسة للإسلام.. فإقامة هذا الركن وأداء هذه الفريضة الإسلامية في هذا الشهر العظيم، هو الاحتفال الإسلامي بنزول القرآن الكريم، عيد ميلاد أمة الإسلام، ولحظة التأسيس للدين القيِّم..

ومع أن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا، منها أربعة حُرم - هي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾[٧].. ومع أن شهر رمضان ليس من هذه الأشهر الحُرم، فلقد فاق في الفضل هذه الأشهر الفضيلة، وذلك بسبب نزول القرآن فيه.. فالأشهر الحُرم: هدنة سلام، لا يجوز فيها القتال.. وموسم تجارات لتنمية زينة الحياة الدنيا.. بينما رمضان قد غدا عيد ميلاد الوحي الخالد، والظرف الزماني لانبثاق نبأ السماء العظيم - القرآن الكريم - الذي ولدت من بين دفتيه الرسالة الخاتمة الخالدة لخير أمة أُخرجت للناس - رسالة الدين والدنيا.. والدنيا

والآخرة.. للأمة الوارثة لجميع مواريث النبوات والرسالات، والمؤتمنة على دين الله الواحد فى مرحلة اكتماله بشريعة محمد ﷺ..

ولهذه الحكمة.. وإعرابًا عن هذا التكريم لهذا الشهر المعظم - شهر رمضان - كان انفراده واختصاصه بالذكر - دون الشهور الأخرى - فى القرآن الكريم.. فلم يُذكر من أسماء الشهور في القرآن اسم شهر سواه. ولم يكن اختصاص رمضان بالذكر فى القرآن الكريم لأنه ميقات فريضة الصيام.. فللحج - وهو كالصوم واحد من أركان الإسلام - أشهر معلومات - هى شوال وذو القعدة وذو الحجة - ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾[8].. ومع ذلك لم يُذكر اسم أى منها فى القرآن الكريم - رغم أن فيها شهرين من الأشهر الحُرُم -..

وكذلك كان الحال مع شهر ربيع الأول، الذى حدثت فيه الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة، فتم فيه إنقاذ الدعوة من الحصار، والتأسيس للدولة، والفتح فى الدين.. ومع ذلك لم يُذكر هذا الشهر فى القرآن.. كما لم يجعله الإسلام ميقات الصيام، كما كان الحال فى الشريعة الموسوية، عندما كان الصوم احتفاء بنجاة موسى - عليه السلام - من فرعون..

* * *

هكذا.. لا يترك القرآن الكريم الإجابة عن سؤال الباحث عن «حكمة» هذا التوقيت وذلك الاختصاص لمجرد الاجتهاد والاستنتاج.. فآياته البينات قد تحدثت عن «لحظة الميلاد» للأمة الإسلامية الخاتمة، تلك التى تجسدت فى لحظة «الظهور للدين» الذى ميز هذه الأمة، وجعل من شريعتها الطور الرسالى الخاتم لرسالات الدين الإلهى الواحد، والكمال والاستكمال لمكارم الأخلاق.. ولقد كانت بداية هذه اللحظة هى نزول «الروح الأمين» على «الصادق الأمين» بأولى آيات القرآن الكريم، لحظة «مطلع الفجر»، فى ليلة من الليالى الوتر، فى العشر الأواخر من رمضان، «فى غار حراء»..

فى هذه «اللحظة»، التى أضاءت فيها الأرض بنداء السماء ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ

الإنسان ما لم يعلم﴾[٩] بدأ نزول القرآن فى ليلة القدر.. وهى لحظة [مطلع الفجر] الذى هو مولد النهار ـ وفيها نزل الكتاب ـ الذى ولدت منه الأمة ـ عندما خرجت عقيدتها وشريعتها وحضارتها، ووحدتها فى «الأمة.. والدار» من بين دفتى هذا الكتاب الكريم.

ولأن هذا «الميلاد كان في شهر رمضان، فلقد كان تكريمه وصومه ـ دون غيره من الشهور ـ الاحتفال الإسلامى بهذا العيد لهذا الميلاد.

ولأن هذا الميلاد كان ميلاد الوحى المؤسس للأمة، فلقد شاء الله أن تكون فريضة الاحتفال به ـ فريضة الصوم ـ هى مدرسة بناء الإرادة الإسلامية، المجددة أبدًا لفتوة الأمة؛ كي تستعيد دائمًا عافية الميلاد الجديد، وصحة الاجتهاد والتجديد، الكاشف عن فعالية كتاب التأسيس.. فقال سبحانه وتعالى، وهو يشرح لهذه الفريضة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١٠].

وهكذا نجد أنفسنا أمام «الحكمة» التى جعلت صيامنا فى رمضان، وليس فى شهر من الأشهر الحُرُم.. وليس، أيضًا، فى ذكرى نجاة الإسلام ورسوله وأمته ـ بالهجرة ـ من الحصار والاقتلاع.. أمام «الحكمة» التى جعلت صيامنا إحياء لذكرى نزول القرآن، الذى مثّل «الرحم» الذى ولدت منه هذه الأمة، عندما خرجت مقوماتها وثوابتها والروح السارية فى حضارتها والصبغة المميزة لعمرانها.. عندما خرج كل ذلك من بين دفتى القرآن الكريم، ومن سور وآيات هذا النبأ العظيم..

• فكيف يكون الاحتفال؟:

وإذا كان احتفال الناس، أفرادًا وأسرًا وشعوبًا وأممًا، بالأعياد والمناسبات، لابد وأن تصطبغ مظاهره وتعكس وقائعه معانى ودلالات الحدث الذى به يحتفلون، ولذكراه يحيون.. إن كان انتصارا عسكريًا، فإن مظاهر القوة ومعالمها تطبع وقائع الاحتفال.. وإن كان استقلالاً عن الاستعمار، أو تحريرًا للثروات، أو استرجاعًا

للأرض.. إلخ.. إلخ.. صبغت معاني الذكرى احتفالات الذين يتذكرون ويحتفلون.. فإن احتفال المسلمين، عندما يصومون شهر رمضان، بذكرى «اللحظة» التي بدأ فيها نزول القرآن، على قلب رسول الإسلام ﷺ مطلوب منه ـ من هذا الاحتفال ـ أن يصطبغ بصبغة ذلك الحدث العظيم.. نزول القرآن، الذي كان «الرحم» الذي ولدت منه المقومات التي صنعت أمة الإسلام، ومثلت الروح السارية والضامنة لتواصلها الحضاري على مر الدهور.

إن تأمل هذه المعاني، وتدبر هذه الحقائق، سيضع يدنا على حجم «الخلل.. والقصور» اللذين أصابا ويصيبا «معاني.. ومعالم» احتفالنا في رمضان بذكرى نعمة نزول «النبأ العظيم»!..

ليس فقط، في تحوّل شهر الصوم إلى شهر للكسل وتدنّي الإنتاج.. بينما هو في حقيقته، «مدرسة تربية الإرادة» على الفتوة التي تجعل منه التجديد للطاقات والملكات والقدرات التي تعين الأمة على قهر المخاطر والتحديات، وتنمية معالم الابتكار والإبداع..

وليس فقط، لوقوف الأكثرين عند «الطرب» لسماع القرآن.. واكتفاء الكثيرين بمجرّد «تلاوته» ـ بينما لا «يتدبره» إلا الأقلون!.. فلا طرب السماع، ولا مجرد التلاوة.. بل ولا حتى الوقوف عند «التدبر للمعاني»، بكاف في الاحتفال الذي يحيي المعنى الحقيقي لهذا العيد الذي ولدت فيه أمة الإسلام..

لقد غدت أمانينا ـ في التعامل مع القرآن الكريم ـ أن نكثّر من حافظيه.. ننفق في ذلك الأموال، ونعقد له الاحتفالات، ونوزع الجوائز على الحفاظ.. ورغم ما في ذلك من خير كثير، يربطنا بلغة القرآن، ويقوّم ألسنتنا بأسلوبه المعجز وبيانه الأخاذ.. إلا أن الوقوف عند الحفظ لم يكن هو المقصد من وراء الوحي بهذا النبأ العظيم.. حتى أن المرء ليدهش ـ من فرط ما وصلنا إليه ـ عندما يعلم أن جيل الصحابة الفريد، الذي شهد الوحي، وغيّر به وجه الدنيا ومجرى التاريخ، لم يكن فيه من حفاظ القرآن إلا عدد قليل!.. لقد كانوا فقهاء للقرآن، لا مجرد حفاظ له، وكانوا عاملين به ومجسدين لمقاصده، لا مجرد مرتلين لآياته!.. فعبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يقول: «كان الرجل منا إذا تعلّم عشر آيات لم يجاوزهن

حتى يعرف معانيهن والعمل بهن».. أما عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ فهو القائل ـ تعبيراً عن نوع علاقة الصحابة بالقرآن.. ونبوءة بالحال الذى صرنا إليه نحن ـ: «كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ فى صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها، ورزقوا العمل بالقرآن. وإن آخر هذه الأمة يقرأون القرآن، منهم الصبى والأعمى ولا يرزقون العمل به»[11]!.

ففى عصر الازدهار، الذى غيّر فيه الجيل الفريد من الصحابة وجه الدنيا ومجرى التاريخ ـ بالقرآن ـ كانت الغلبة لفهم القرآن وفقه مقاصده والعمل به.. وليس للحفظ والتكرار.. بينما ارتبط عصر تراجعنا الحضارى بغلبة منهاج الحفظ وكثرة أعداد الحفاظ، والمفاخرة بكثرة المحفوظات.. ومازلنا ـ مع شديد الأسف ـ نقف من القرآن عند الحفظ والتكرار، والاحتفال بالحفظ والحافظين، رغم أن المعاجم والتقنيات الحديثة قد فاقت فى الحفظ ملكات الحفاظ!.

* * *

إن نزول القرآن الكريم إنما مثّل لحظة الميلاد لأمة الإسلام؛ لأنه مثّل «النور» الذى خرجت إليه الأمة من ظلمات الجاهلية.. ومثّل «الهدى» الذى نجت به بعد حيرة الضلالات.. وفى كلمة واحدة جامعة، فلقد مثّل القرآن الكريم ينبوع «الإحياء» الإسلامى، الصالح دائمًا وأبداً لطى صفحات الجمود والتقليد والموات، بما يقدم من سبل للاجتهاد والتجديد والإبداع..

فـ «الإحياء» فى كل ميادين العمران ـ عمران النفس الإنسانية بما يهذبها ويرتقى بملكاتها.. وعمران الواقع المادى بما يحسنه ويجمله من ألوان المدنية ـ هذا «الإحياء» الإسلامى هو أخص المصطلحات، المعبرة عن رسالة هذا «الينبوع»، الذى نصوم رمضان احتفالا بذكرى لحظة نزوله على قلب رسولنا محمد بن عبد الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ.. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[12].

فنحن إذ نصوم رمضان، إنما نحتفل بذكرى اللحظة القدسية التى بدأ فيها نزول «النبأ العظيم»، ذلك «الينبوع» الإلهى الذى مثل «الرحم» الذى ولدت منه الأمة

الخاتمة، ومن بين دفتيه خرجت المقومات الثوابت للرسالة العالمية الخاتمة ـ فى «العقيدة». . و«الشريعة». . و«القيم» التى ميزت «الحضارة» بالروح الخالدة، رغم تطورها عبر الزمان والمكان. . كما وحدت «الأمة»، مع التنوع فى القبائل والشعوب والأقوام. . وكذلك وحدت «دار الإسلام»، مع التمايز فى خصوصيات الأقاليم والأوطان. .

وإذا كانت مصداقية «رسالة» أي احتفال بذكرى لحظة الميلاد، هي في مدى النجاح الذي يحققه الاحتفال في حضور «المعنى والمغزى» إلى واقع الذين يحتفلون.. فهل ننجح ـ في رمضان ـ في استعادة روح «الإحياء» الإسلامي، الذي مثله القرآن العظيم، عندما أخرج هذه الأمة من الظلمات إلى النور؟

لنحاول.. ولنجتهد.. فلكل مجتهد نصيب..

لقد منَّ الله سبحانه وتعالى، علينا «بحفظ» هذا الذكر الحكيم ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[13] لكنه افترض علينا «إقامة» هذا الدين، لنجدد بإقامته «الأمانة» التى حملناها عندما سعدنا بنعمة التدين بهذا الدين العظيم.

* * *

● الهوامش

(١) البقرة: ٢٨٥.

(٢) الجاثية: ١٨.

(٣) الأنبياء: ٩٢.

(٤) البقرة: ١٣٨.

(٥) المائدة: ٤٨.

(٦) القدر: ١ ـ ٥.

(٧) التوبة: ٣٦.

(٨) البقرة: ١٩٧.

(٩) العلق: ١ ـ ٥.

(١٠) البقرة: ١٨٥.

(١١) القرطبى [الجامع لأحكام القرآن] جـ١ ص٤٠. طبعة دار الكتب المصرية.

(١٢) الأنفال: ٢٤.

(١٣) الحجر: ٩.

الصوم: تعظيم للإرادة والضمير

هناك فارق بين «الدين» وبين «التدين» بالدين..

فالدين: «وضع إلهى ثابت، يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما جاء به الرسول ﷺ».. فهو وحى إلهى، وبلاغ قرآنى، وبيان نبوى لهذا البلاغ القرآنى، يدعو العقلاء إلى ما فيه سعادة الدارين، الدنيا والآخرة..

وثبات هذا الدين، إرادة إلهية، ونبأ قرآنى، صدق عليه التاريخ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩].. وتمر السنوات والقرون وهذا الثبات الحافظ للدين آية من آيات الله، جعلته عصيًا على التغير، فضلاً عن الزوال، رغم أعاصير الشك والمادية الدهرية والانحلال والإلحاد..

أما «التدين بالدين»، فهذا هو الفعل الإنسانى، الذى يصيبه التغيير.. فالله، سبحانه وتعالى، قد «وضع الدين»، لكننا نحن الذين «نقيم الدين» عندما نتدين به ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].. ولأن إقامة الدين، والتدين به عمل إنسانى، تنهض به الطاقات والملكات الإنسانية ـ وهى «نسبية» الإدراك و«نسبية» القدرات ـ كانت «النسبية» أيضًا فى التدين، وكان التغيير فى إقامة الإنسان للدين وفى تدينه بهذا الدين.. وسواء أكان الأمر فى ميدان «الإيمان» أو «الفكر» أو«الشعائر والعبادات»، فإن التغير، بالزيادة أو النقص.. بالصحة أو الفساد.. بالعافية أو المرض، هى أعراض تلحق تدين الإنسان بالدين.

وأخطر «المتغيرات ـ المرضية» التى تهدد التدين المعاصر بالدين الإلهى هى «الشكلية»، التى تفرغ الدين من جوهره، وتبتعد به عن وظيفته، عندما تحوله إلى مجرد «طقوس ورسوم ورموز»، وعندما تقف به عند «المعلومات والمعارف والأفكار».. فحقائق الدين ومعارفه وشعائره ومناسكه هى آليات وسُبل ورواقع

لطاعة المخلوق للخالق، على النحو الذى يحقق «الحضور» الإنسانى فى «الحضرة الإلهية»، فإذا غاب هذا المقصد، لم يبق من الدين سوى «الطقوس والمعلومات»، وتحولت الشعائر والمناسك إلى رياضات بدنية وممارسات دنيوية صرفة، وغدت علوم الدين «بنوك معلومات» لا حياة فيها، هنا يفقد الدين خاصيته العظمى وهى «الإحياء» الإلهى للإنسان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

***

وإذا كان العصر الذى نعيش فيه يتميز بتعاظم «تحكم الآلة» و«طغيان المادة»، على النحو الذى «يهمش ويقزم» الإرادة الإنسانية والضمير الإنسانى، فإن الحاجة تتزايد «للإحياء الدينى» الذى ينمي الضمير الإنسانى فى مواجهة تحديات المادة والآلة والدولة التى تهمّش هذا الضمير!..

وبقدر ما تكون العبادات الدينية بعيدة عن «العلنية.. والإعلان»، وقريبة من «السر» بين المخلوق والخالق، بقدر ما تكون فعاليتها فى تنمية الضمير؛ لأن رياء الإعلان، وسمعة العلانية، يحولان العبادات إلى ممارسات دنيوية وطقوس نفعية وأشكال ورموز حياتية تساهم فى تقزيم وتهميش الضمير الدينى، بدلاً من إحياء وتعظيم هذا الضمير..

ولهذه الحقيقة من حقائق «التدين الإسلامي» كان ارتقاء الشعائر وتميزها بمقدار ما تكون سرا بين العابد والمعبود..

● فالصلاة: «إقامة» خالصة لله من دون الناس، وليست مجرد «أداء» ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣] وبذلك تُعظّم الضمير الدينى.. وإلا: فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بُعدا.. لأنها روح الدين، الذى هو الطاعة الخالصة لله وحده، على النحو الذى يحرر العابد من أغلال العبودية لمن ولما عدا الله ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: ١٠٥].

● وعلى هذا الدرب، درب العبادات الخالصة والمستخلصة لله سبحانه وتعالى، تأتى فريضة الصيام.. ففى كل العبادات، قد ترد شبهة «الإعلان.. والعلانية»

وشائبة «المظهرية.. والرياء.. والسمعة»، إلا فى الصيام، الذى هو «سر» خالص السرية بين الصائم وبين الله.. ولهذه الحقيقة من حقائق هذه الفريضة كانت آفاق الجزاء الإلهى عليها مفتوحة دونما تحديد أو حدود؛ لأنه خالص لله دون سواه، فكان الجزاء الإلهى عليه بلا حدود.. وعن هذه الحقيقة يتحدث رسول الله ﷺ فيقول: «كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. قال الله، عز وجل: إلا الصوم، فإنه لى وأنا أجزى به، يدع شهوته وطعامه من أجلى» ـ رواه البخارى، ومالك، والترمذى، وابن ماجه، والإمام أحمد ـ فكل العبادات يراها الآخرون، إلا الصوم، لا يطلع على حقيقته إلا الله.. وكثيرون يُعدّون، أمام الناس، فى عداد الصائمين، وقد لا يكونون كذلك.. وقد يكونون ممن لا حظ لهم من صيامهم إلا الجوع والعطش!..

* * *

وإذا كان عصرنا يشهد طغيان «شكل التدين» على روح الدين.. فمؤسسات الرهبنة قد غدت وحدات إنتاج رأسمالى، يقاس نجاحها بالجدوى الاقتصادية للمشروع الرأسمالى!.. وأعياد الميلاد للأنبياء والأولياء والقديسين قد غدت أسواقًا تجارية ولهوا ولعبًا!.. وحضور القداس قد تشابه مع الذهاب إلى البنك أو إلى مباراة رياضية! والحج قد كادت «منافعه» أن تقف عند «تسوّق المشتروات»!. الأمر الذى عطل وظيفة الدين عن إحياء الإرادة وتعظيم الضمير، فإن عصرنا تتزايد حاجته إلى التركيز على المهمة «الإحيائية» للدين، وهو يتطلع إلى إنجاز «غزالى» جديد فى [إحياء علوم الدين]!..

إن مهمة الدين ـ فكرا وعبادة ـ هى تغيير النفس، ببناء الإرادة وتعظيم الضمير، وتغيير «النفس» هو السبيل إلى تغيير «الواقع» المادى على النحو الذى يحقق التوازن للنفس الإنسانية فى هذه الحياة.

لقد بلغ ضمير «يوسف» ذروة التعظيم عندما قال [معاذ الله] أمام الإغراء الذى غُلقت من حوله الأبواب ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف:٢٣].

ومن الذين سينعمون بظل الله يوم لا ظل إلا ظله «رجل ذكر الله تعالى خاليًا

ففاضت عيناه من الدمع.. ورجل تصدق بصدقة فـأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه.. ورجل دعته امـرأة ذات منصب وجمال فقال: إنى أخاف الله».. رواه البخارى ـ فليس كالعبادات «السرية»، الخـالصة لذات المعبود، روافع لـتنمية الإرادة وتعظيم الضـمير فى مـواجهـة أعاصيـر المادية والدنيوية والآليـة التى تريد الإنسـان المعاصر قهراً وتهميشاً..

إننا نريد إنساناً متوازناً، تحقق له العبادات التوازن بين الدين والدنيا، فلا يكون كالذين قال فيهم الشاعر:

نُرقّع دنيـانا بتمزيق ديننا ... فلا ديننا يبقى ولا ما نُرقّع

* * *

لماذا كان حجنا إلى البيت العتيق؟؟

عندما كتب حجة الإسلام أبو حامد الغزالى [٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م] كتابه الفذ [إحياء علوم الدين] كان إعلانًا عن ضرورة «الثورة الثقافية التصحيحية» لما أصاب الجوانب الكثيرة من ثقافتنا الفقهية يومئذ من «جفاف.. وشكلية» يهددانها بالموات.. فهذا الكتاب ـ بعنوانه ومضمونه ـ دعوة «لإحياء» علوم الدين، الإحياء الذى يعيد تزامل «القلب» مع «العقل» فى اكتشاف أبعادها ومقاصدها، وذلك بعد أن وقفت الكثير من تآليفها عند «أشكال.. وحركات.. ومظاهر» كثير من الشعائر والمناسك والعبادات.. وإذا شئنا أن نضرب أمثالا على ضرورة هذا «الإحياء» لفقه المناسك الإسلامية ـ الذى لا نزال فى أمس الحاجة إليه ـ فإنا واجدون الكثير والكثير:

١ ـ ففى القرآن الكريم ذُكر وصف للعلاقة الزوجية «بالميثاق الغليظ» الذى أقامته وعقدته الفطرة الإلهية بين الرجل وزوجه ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾[1].. وهذا الميثاق الفطرى هو الذى يجعل الزوجة تفضى إلى الزوج ـ وهى حديثة عهد بمعرفته ـ بما لا تفضى به إلى أهلها الذين نشأت وتربت فى كنفهم وأحضانهم، بل وتكشف له وتسر إليه بما تضن به على أقرب الأقربين من أولى الأرحام!.

بل إن التعبير القرآنى ليصل، فى وصف رباط الزوجية وميثاقها، إلى الوصف الذى لو أفاض فيه كل شعراء الدنيا وبلغائها لما استطاعوا الاقتراب من عمقه وسموه وجمال دلالاته.. وصف «السكن» و«السكينة» التى تمثلها الزوجة بالنسبة لزوجها، الذى يسكن إليها!.. فهى له سكن يسكن فى مودته ورحمته.. يعبر القرآن الكريم عن هذا المستوى السامق للعلاقة الزوجية، تلك التى جعلها الله

سبحانه وتعالى، آية من آياته فى بناء أولى لبنات الاجتماع البشرى - الأسرة - فيقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢).

فماذا صنعت كتب الفقه بهذه المعانى الجميلة والعظيمة والعميقة التى تتحدى لغة البشر أن تبلغ سماء دلالاتها؟ لقد عرّف الفقهاء عقد الزواج - هذا الميثاق الإلهى الغليظ.. وهذه الفطرة المنشئة للمودة والرحمة والسكن والسكينة - بأنه: «عقد تمليك منفعة بضع الزوجة»!!.. فقتلوا روح هذه العلاقة السامية، عندما اختزلوها فى البعد «الغرائزى» للزواج!..

ولذلك كانت دعوة الغزالى إلى «إحياء» علوم الدين، بعد أن أصابها الموات!..

٢ - والصلاة، التى هى عماد الدين.. نجد القرآن الكريم لا يستخدم فى التعبير عنها مصطلح «الأداء»؛ لأنه يقف بالدلالة عند «الشكل.. والحركات.. والسكنات».. ويستخدم - بدلاً من ذلك - فى التعبير عنها مصطلح «الإقامة» لما يعنيه ويتطلبه من «الحضور» عندما يكون العبد فى لقاء مع مولاه، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾(٣)، ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾(٤).. ففى «الإقامة» استقامة وحضور.. بينما «الأداء» أشكال وحركات ورياضات للأبدان!.

وإذا كانت الصلاة عماد الدين، فإن السجود فيها هو القمة التى يكون العبد فيه أقرب ما يكون إلى الله.. إنه قمة الحضور للمصلى بين يدى الله.. لذلك، نعجب من الفقه عندما وقف فى تعريفه للسجود، عند شكل الحركات، فغاب عنه - وغيّب - المقصد واللب والمضمون.. فجاء تعريف السجود فى كثير من كتب الفقه بأنه «اطمئنان الأعضاء»!.. حتى لكأنه تمرين رياضى، وليست الدرجة العليا فى سلم الحضور بين يدى الله!..

لذلك - أيضًا - كانت ضرورة دعوة أبى حامد الغزالى إلى «إحياء علوم الدين».

* * *

وإذا نحن طالعنا جميع أبواب الحج، فى أغلب كـتب الفقه ـ فى سـائر المذاهب الإسلامـية ـ أو قرأنا آلاف الكتـيبات التى يتـداولها الحجـاج إلى بيت الله الحرام، والتى تتتبـع تفاصيل التفاصـيل فى مناسك الحج والعمرة ـ والمطبـوعة بكل لغات الدنيا ـ فـسنفاجـأ بأننا أمام سـرد لكيفـية «أداء» المناسك، هو أقرب مـا يكون إلى «خرائط وأدلة» السـياح، منه إلى روح العبادة، ومقاصد المناسك، والمعانى العظمى التى وقـفت فـوق ووراء أمـاكن وأشكال ومـواقـيت مناسك الحج إلى بيت الله الحرام.. الأمـر الذى يدعو إلى فقـه جديد يعيـد «الروح» إلى المناسك التى وقف الناس ويقفـون عند «أشكالها»، ويذكّر «بالمعـانى» التى نسيهـا الناس للأماكن التى يترددون عليها، ويستدعى «المقاصد» التى ما شرعت الشعائر إلا للاقتراب منها..

إننا فى حاجة إلى «إحـياء» لفقه الحج إلى بيت الله الحـرام، حتى يصبح الحج قصدا إلى المعـانى والمقاصد والدلالات العظمى لهذا المنسك العـظيم، وليس مجرد سياحة نزور فـيها الأماكن و«نؤدى» فيها الواجـبات والفرائض والأركان.. وعلى سبيل المثال:

١ ـ فنحن فى حاجـة إلى «الوعى» بحكمة جـعل الله، سبحـانه وتعالى، حج أمتنا الإسلامية إلى بيت الله الحرام، وليس إلى مكان آخر سواه؟

وفى فقه هذه الحكمة ووعيها يمكن أن يقال الكثير..

لقد شاء الله أن يكون حج الأمـة الخاتمة لرسالات السمـاء ـ أمة الإسلام ـ إلى البيت الحرام، لأن هذا البيت هو أول بيت عُبـد الله فيه على هذه الأرض.. ففيه بدأ الدين، وإليه يكون حج الأمة الخاتمة، رمـزًا وتجسيدًا لوحدة دين الله ـ من آدم إلى محـمـد ـ صلى الله وسلم عليهم ـ ورمزًا وتجسيدًا ـ كذلك ـ لاكتمـال لبنات هذا الدين الواحد بشـريعة الإسلام، ورسـالة محمـد بن عبد الله ـ عليـه الصلاة والسـلام ـ.. وهو أيضًا تكريم لهذه الأمـة، عندمـا جمـع الله لها طرفى المجد الدينى، فكانت قبلتها، وكـان حجهـا إلى أول بيت وضع للناس فى الأرض التى هى دار الأمانة والتكليف والاستخلاف.

ولما كان أبو الأنبياء إبراهيم الخليل، وابنه إسماعيل ـ عـليهما السلام ـ قد أقاما قواعد هذا البيت العتيق، فلقد شاء الله أن يكون إليه حج أمة خاتم الأنبياء، الذى

أحيت شريعته ملة إبراهيم.. والذى تعيد أمته - فى مناسك حجها - مناسك إبراهيم وإسماعيل وهاجر، مجسدة بهذا الإحياء وحدة دين الله ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[5].. فإلى أول بيت تحج الأمة الخاتمة، فتحيى أمة خاتم الأنبياء مناسك ملة أبى الأنبياء.

٢ - ونحن فى حاجة إلى فقه الإعجاز الخالد الذى يشعر به ويعيشه كل من حج إلى بيت الله الحرام.. فلقد دعا إبراهيم الخليل ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوى إلى بيته الحرام، فتجسدت الإجابة فى هذا الحج، الذى ربط القلوب - وليس الأجساد - بهذا البيت العتيق.. بل وليس مطلق القلوب؛ لأن «الأفئدة» هى«القلوب المتوقدة» بالأشواق.. وهى «تهوى» إلى هذا المكان اشتياق النفس إلى ما تشتهيه[6]!.. لقد تجسدت معجزة الإجابة الإلهية لدعوة أبى الأنبياء فى حجيج أمة محمد - خاتم الأنبياء -.. تجسدت آية من آيات الله المبثوثة فى النفوس والأفئدة المتوقدة شوقًا إلى بيت الله الحرام، توقدًا دائمًا، وشوقًا خالدًا، عند كل مؤمن، وعلى مر سنوات عمره، وعبر القرون، والقارات، وفى كل القبائل والشعوب ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[7].

٣ - ونحن فى حاجة إلى فقه الحكمة التى جعلت من حجة رسول الله ﷺ سنة ١٠ هـ لحظة اكتمال الدين، فعندما أتم الرسول والمؤمنون مناسك الحج، ووقفوا بعرفة، وأعلن خاتم الأنبياء فى العالمين ميثاق حقوق الله وحقوق الإنسان المستخلف عن الله، نزل الروح الأمين بوحى الله الذى يقول: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[8].

فعندما أقام النبى الخاتم والأمة الخاتمة مناسك حج ملة إبراهيم - أبى الأنبياء - مثّل ذلك اكتمال أركان الإسلام، واكتمال هذا الإسلام، الذى هو دين الله الواحد

عبر كل رسالات السماء ﴿إنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[٩].. وليس المراد باكتمال الدين هنا اكتمال الوحى القرآنى، أو الشريعة المحمدية، فبعد هذه الآية نزلت آيات وتشريعات - من مثل آيات الربا والكلالة.. وغيرها -..

٤ - ونحن فى حاجة إلى فقه سر معجزة الأمن والأمان، الذى يغمر المؤمن فى بيت الله الحرام، حتى ليزيد هذا الأمن على ما يشعر به الإنسان فى مسكنه الخاص. فبصرف النظر عن جغرافية الأوطان، واختلاف الألوان، وتعدد اللغات وتنوع الشعوب والأمم، يجد الحاج من الأمن والأمان فى بيت الله الحرام ما يجسد ويفسر الإرادة الإلهية والجعل الربانى الذى عبر عنه القرآن الكريم عندما قال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[١٠].

وحتى يكون هذا البيت آمنا، ومحققا قمة الأمن والأمان للطائفين والعاكفين والركع السجود، منذ أن وُضع للناس فى الأرض، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فلقد شاء له الله أن يتفرد بالحرية والتحرر من استعباد الجبارين والمستعمرين عبر قرون التاريخ، فلم يخضع لجبار ولا لمستعمر، وكان الناس من حوله تتخطفهم مخاطر الاستبداد والاستعباد، وهو آمن أبدًا ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾[١١].. ولأنه كان الحرم الآمن، الذى حفظه الله من الاستعباد والاستبداد، سماه الله - فى كتابه - «البيت العتيق»، أى الحر الذى انعتق وتحرر من كل ألوان الاسترقاق.. ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾[١٢]، ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾[١٣].

فهو الحر - دائمًا وأبدًا - حتى يكون حرمًا آمنا - دائمًا وأبدًا -.. وعندما هددت غزوة الفيل حرية هذا الحرم الآمن، لم يخالج الشك أهل مكة يومئذ فى انتصار البيت العتيق على هذا التهديد، فكانت ثقة عبد المطلب بأن «للبيت ربا يحميه»!.. وجاء الإعجاز الإلهى «طيراً أبابيل» تحيل مصادر التهديد وقوى الاستعباد إلى

«عصف مأكول» ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[14] . . فهناك حاجة إلى فقه معجزة «الأمن» . . فى هذا البيت «العتيق» . .

٥ - ونحن فى حاجة إلى أن يفقه الحاج إلى بيت الله الحرام ما يمكن أن نسميه بـ «أبعاد فلسفة المكان ورسالته الخالدة» . . فحول هذه الكعبة نزلت كلمات الله على خاتم الرسل والأنبياء . . وبهذه الكلمات تمت فى مدرسة النبوة إعادة صياغة الجاهليين - أسرى الحمية الجاهلية وعبدة الأوثان - حتى غدوا الجيل الفريد الذى غيّر مجرى الدنيا والحضارة وأمسك بدفة سفينة التاريخ . . فدخل دار الأرقم بن أبى الأرقم أعراب حفاة غلاظ جفاة ليخرجوا منها وقلوبهم تفيض بالتقوى، يزيحون عن كاهل الإنسانية جبروت الكسروية واستبداد القياصرة، ليخرجوا من شاء من عباد الله من ضيق الدنيا إلى سعتها،ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن العبودية للطواغيت إلى قمة حرية إخلاص العبودية لله! . . وليكونوا - وهم أسد الله الذين أزالوا جبروت الاستكبار - أهل الرفق والرحمة، لا بالإنسان فقط، وإنما بالحيوان أيضًا . . بل وبالنبات وسائر الطبيعة؛ لأن هذه المدرسة، التى بدأت دروسها فى حرم الله الآمن، قد علّمتهم أن كل ما فى هذا الكون حىّ يلهج - على طريقته - بتسبيح الحى القيوم ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[15] .

فنحن نحج إلى المكان الذى بدأت فيه «النعمة» التى هى أعظم نعم الله على المؤمنين . . «نعمة الإسلام» . . وأعظِم بها من نعمة تعطى هذا المكان خصوصية فى فلسفة المكان . . وفى رسالة المكان . .

٦ - ونحن بحاجة إلى أن يتذكر الحاج - وهو ذاهب ليرمى جمرة العقبة - ما هو أكثر من رمى الجمرات! . ففى هذا المكان - العقبة - عقدت «الجمعية التأسيسية» التى تعاقدت وتعاهدت على إقامة الدولة الأولى فى تاريخ الإسلام والمسلمين، الدولة التى غيرت الواقع، وجيشت الجيوش، وحولت مسار التاريخ وجعلت المستضعفين فى الأرض الأئمة والوارثين لمواريث النبوات والحضارات، وذلك عندما بايع الأنصار رسول الله ﷺ على إقامة الدولة، بعد أن سبق لهم بيعته على

إقامة الدين.. فولدت في العقبة الدولة التي حرست الدين، والتي ساست الاجتماع والعمران بشريعة هذا الدين..

٧ ـ ونحن بحاجة إلى أن يتذكر الحاج ـ وهو بالعقبة أيضًا ـ أن رسول الله ﷺ قد أراد تأسيس الدولة الإسلامية الأولى على البيعة والشورى والاختيار، فعندما همَّ الأنصار بمبايعته على إقامة الدولة، وحماية قائدها مما يحمون منه أنفسهم ونساءهم وذراريهم، رغب إليهم أن تتم البيعة بواسطة «مؤسسة دستورية» تنشأ بالاختيار والانتخاب، فقال لهم: «اختاروا منكم اثنى عشر نقيبًا».. فولدت ـ بالشورى والاختيار والانتخاب ـ أولى المؤسسات الدستورية في الدولة الإسلامية.. وهي التي نهضت بمسئوليات «الوزارة.. والمؤازرة»، مع مؤسسة «المهاجرين الأولين» ـ التي نهضت في دولة الخلافة بمسئوليات الإمارة ـ وتوزعت بينهما الاختصاصات يوم «السقيفة»، عندما قال أبو بكر الصديق ـ باسم المهاجرين الأولين ـ لممثلي النقباء الاثنى عشر: «منا الأمراء ومنكم الوزراء»..

فمن العقبة ـ يا من ترمي الجمرات ـ بدأ تراث أمتنا في المؤسسات الدستورية، القائمة على الشورى والاختيار والانتخاب ـ بمشاركة الرجال والنساء ـ قبل أن تعرف الأمم والحضارات لها تراثًا في هذه المؤسسات!..

٨ ـ ونحن في حاجة إلى أن يتأمل الحاج ـ وهو في «منى» هذه «الغابة» من الجبال السوداء الكالحة التي تحيط بمنزل الوحي وبيت الله الحرام.. ففي هذا المنظر الموحش لهذه الجبال السوداء معجزة من معجزات إلهية وصدق القرآن الكريم، ونبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ..

لقد اتفق البشر ـ من كل الفلسفات والثقافات والحضارات ـ على العلاقة الجدلية بين «المكان» وبين «الفكر» ـ الذي يولد وينمو في «المكان».. وإذا كان واقع «المكان المكي» هو هذه الجبال الكالحة السواد، فأنى لهذا «الواقع» أن يثمر «فكرًا» يستحق مضمون هذا الاصطلاح؟! وذلك فضلاً عن أن تكون «الثمرة» هي هذا القرآن المعجز الذي تحدى ـ ولا يزال ـ أساطين البلاغة والفكر عبر الزمان والمكان والفلسفات والثقافات والحضارات.. إنها شهادة على صدق النبوة والرسالة، شاء الله أن ينطق بها هذا المكان الموحش.. فعجزه عن إبداع «الفكر» شاهد على أن

هذا الذى جاء به محمد بن عبد الله إنما هو نبأ السماء العظيم!.

* * *

إنها نماذج لخواطر ـ مجرد نماذج لخواطر ـ تدعو إلى أن نفكر ونجتهد لفقه جديد ـ هو فقه المقاصد والمعانى والدلالات ـ لتعود به «الحياة الحقة» و«الإحياء الحقيقى» لمناسك الحج إلى بيت الله الحرام.. إحياء لعلوم الدين.. وإنقاذا لكتب الحج من جفاف وشكلية «الخرائط» التى يستخدمها السائحون.

إن مناسك الحج إنما تبتغى «تقوى القلوب» ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[16].. وحرام أن نختزلها فى الحركات والسكنات أو نغرق مقاصدها الروحية السامية فى التفريعات والجزئيات..

* * *

● **الهوامش**

(١) النساء: ٢١.

(٢) الروم: ٢١.

(٣) البقرة: ٤٣.

(٤) الأعراف: ٢٩.

(٥) آل عمران: ٩٥ ـ ٩٧.

(٦) الراغب الأصفهانى [مفردات غريب القرآن] ـ مادة «أذه» ـ طبعة دار التحرير القاهرة

(٧) إبراهيم: ١٤.

(٨) المائدة: ٣.

(٩) آل عمران: ١٩.

(١٠) البقرة: ١٢٥، ١٢٦.

(١١) العنكبوت: ٦٧.

(١٢) الحج: ٢٩.

(١٣) الحج: ٣٣.

(١٤) الفيل: ١ ـ ٥.

(١٥) الإسراء: ٤٤.

(١٦) الحج: ٣٢.

* * *

مؤتمر الحج الأكبر

[هناك «أفكار» تظل دائمة الإلحاح على العقل المسلم..

طالما هي لم توضع في الممارسة والتطبيق!..

وهناك «مقالات» تتجدد الحاجة إلى مطالعتها، طالما أن مهمة السعي إلى تنفيذ «أفكارها» لم تجد بعد فرسانها المرتقبين!..

ونموذج لذلك.. «الأفكار» التي يقدمها هذا «المقال»؟!..]

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة:٤٨].

صدق الله العظيم

نعم... ومرة أخرى: صدق الله العظيم!..

فعلى الرغم من «وحدة الدين».. الدين الإلهي الواحد، منذ بدء الرسالات السماوية بآدم، عليه السلام، وحتى ختامها على يد محمد بن عبد الله ﷺ.. وهي الوحدة التي تتجلى في «التوحيد» و«الطاعة» لله الواحد، والتي لأجلها كان جماع الدين وجوهره: «الحنيفية ـ المسلمة»، كما علمنا رسول الله ﷺ..

على الرغم من وحدة هذا الدين الإلهي منذ الأزل.. إلا أن سنة التطور في سير الاجتماع الإنساني قد اقتضت تعدد «الشرائع» لدى كل رسول من الرسل ونبي من الأنبياء.. فالوحدة في «الدين» قد زاملها وواكبها التعدد في «الشرائع»، ومن ثم اختلفت وتنوعت فيها «المناسك.. والشعائر.. والعبادات»..

فـ «الصلاة» ـ مثلاً ـ وهى دعاء العبد إلى ربه ـ و«الصوم» ـ وهو القُربة الذاتية والخاصة بين المخلوق والخالق ـ عرفتها كثير من الشرائع الدينية، فى أمم الرسالات المتعاقبة، ثم اختلفت صورها وأركانها من شريعة إلى أخرى.

و«الحج».. الذى يربط أمة الرسالة بمركز واحد، يديم لها ويجدد فيها رباط الدين ويوثق خيوطه، ويشدها بواسطته إلى ذكريات النور الذى انبثق فى فجر رسالتها فهداها، وأخرجها من ظلمات جاهليتها إلى نور الحق وضوء العرفان.. هذا «الحج» تتعدد فيه المناسك والشعائر بتعدد أمم الرسالات ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج: ٦٧].

• الحج الإسلامى:

لكن المتأمل فى «المركز» الذى يتم إليه حج المسلمين فى الإسلام: ـ «بيت الله الحرام» ـ فى مكة المكرمة ـ يلحظ خصوصية إسلامية جديرة بالتأمل والتنويه.. فالإسلام هو الشريعة الخاتمة لسلسلة رسالات الله السماوية إلى الإنسان، الذى هو خليفته فى الأرض.. ومحمد بن عبد الله ﷺ هو خاتم النبيين والمرسلين، عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه.. وبيت الله الحرام، بمكة، هو أول بيت لله قام على هذه الأرض التى عليها نعيش. ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦] فكأنما شاءت حكمة الله، سبحانه وتعالى، أن يكون حج أمة الرسالة الخاتمة إلى أول بيت وضع للناس فى الأرض، وذلك حتى يرتبط الختام بالبدء، والقمة بالجذور، والمنتهى بالمنطلق، فيتجسد الرمز، رمز استيعاب الإسلام الذى جاء به محمد للدين الإلهى، على إطلاقه، وللتدين فى عمومه.. وترتفع الأعلام المؤذنة بأن تصديق الأمة المحمدية بنبيها، عليه الصلاة والسلام، إنما هو جزء من تصديقها بجميع الرسل والأنبياء، واحتضانها لهدى النبوة جميعه على امتداد موكب الأنبياء والمرسلين، منذ آدم إلى محمد، عليهم السلام؟!.

والناظر المتأمل فى شعائر الإسلام وعباداته يرى ذلك الخيط المتين والعروة الوثقى التى تربط بين كل «عبادة فردية»، قد فرضت على ذات الفرد وعينه، وبين «مجموع الأمة».. أمة الرسالة والدين..

● ففى «الصوم»: استشعار لحاجة المحتاج.. فتكافل وتضامن يربط الفرد بالمجموع..

● وفى «الزكاة»: تطهير للثروة الفردية، تنمو به هذه الثروة.. وتكافل مالى للأمة جمعاء..

● وفى «الصلاة»: جماعة وجماعية تجعل الفرد لبنة فى بناء أكبر، وقطرة فى البحر البشرى العظيم..

● وفى «الشهادة بالوحدانية»: نزع لكل القيود والأغلال التى تقطع ـ بالعبودية ـ روابط الإنسان وأخيه الإنسان، وربط لهذا الإنسان الفرد بالمجموع من خلال إفراده العبودية لله وحده؟!..

وهكذا، فى كل شعائر الإسلام.. نلمح خيط الجماعة والجماعية يجمع الأفراد، ويجدد رباط الأمة المتكافلة تكافل أعضاء الجسد الواحد والبنيان المرصوص، الذى تسرى فيه الحياة، حتى ليشد بعضه بعضًا!..

وفى اعتقادى أن هذه المعانى فى العبادات الإسلامية، وهذه الروابط الجماعية والاجتماعية فى شعائر الإسلام هى لب هذه العبادات وجوهر هذه الشعائر.. وفيها تتمثل أهم «المنافع» التى تثمرها وتنميها وترعاها عبادات الناس لله، الذى هو غنى عن هذه العبادات؟!.

وفى ضوء هذه الحقيقة، وفى إطار هذا الفهم «لمنافع» العبادة للعابدين المسلمين، يجب أن ننظر إلى شعيرة الحج الإسلامى.. ذلك أن اجتماع المسلمين للحج، والمؤتمر الأكبر لهذا الركن من أركان الإسلام هو الهدية الربانية، التى تجسد قمة «المنافع» المبتغاة للمسلمين من ورائه.. وهى «المنافع» التى لازلنا متخلفين عن الاستفادة منها، حتى الآن؟!..

إن القرآن الكريم يحدثنا عن حكمة الله من وراء فريضة الحج، فيقول: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا

البائس الفقير ﴿٢٨﴾ ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ [الحج ٢٧ - ٢٩] فمع «ذكر الله» و«شعائر الحج» هناك «المنافع» المبتغاة، من وراء هذا الحج، لأمة الإسلام...

والأمر الذى لا شك فيه هو أن معنى «المنفعة» إذا اتحد - لأنها هى كل ما ينفع جمهور الأمة - فإن السبيل إلى تحقيقها، وتحديد أولوياتها هو مما يختلف باختلاف الأزمان والملابسات والتحديات التى تواجه أمة الإسلام؟!..

لقد كانت مكة، فى عصور قديمة، حاضرة تجارة شبه الجزيرة العربية، ويومها قال المفسرون للقرآن الكريم: إن «التجارة» هى [المنافع] التى يشهدها الحجيج إلى بيت الله الحرام!..

لكن.. أتظل التجارة فى موسم الحج - وهى فى جوهرها اليوم «استهلاك» لسلع يصنعها غير المسلمين، بل والوثنيون الذين يصنعون للمسلمين حتى «سجادة» الصلاة و«بوصلة القبلة»؟! - أتظل هذه «التجارة» هى [منافع] الحج، التى أرادها الله، فى ظروف عالم اليوم بما جد فيه من جديد، وطرأ على واقعه من تحديات؟!..

لقد تفجر البترول من حول مكة، فلم يعد أهلها هم البؤساء الذين يعيشون بواد غير ذى زرع.. ومن ثم فلا مجال لقائل أن يقول إن [منافع] الحج اليوم مقصورة على «سمسرة» تجار البقاع المقدسة من بيع السلع الاستهلاكية المستوردة من خارج عالم الإسلام إلى الحجاج المسلمين!!

وفى ظروف عالمنا الإسلامى، التى لا يحتاج بؤسها إلى تفصيل فى الحديث.. وأمام التحديات التى جعلت «أمة» الإسلام «أمما» بأسها بينها شديد، بينما الكثيرون منها أشداء على بعضهم الآخر، رحماء على الكفار؟!.. فى ظروف عالمنا الإسلامى هذه تبدو المهمة العظمى والأولى والعاجلة هى إعادة هذه «الأمم - الشراذم» إلى معنى «الأمة الإسلامية الواحدة»، بما لهذا المعنى من دلائل ومعطيات.. ومن ثم فإن [منافع] الحج إلى بيت الله الحرام هى اليوم - فى اعتقادنا - دعوة صفوة الأمة وراشديها - بواسطة مؤتمر الحج الأكبر - إلى كلمة سواء؟!..

• سوابق التاريخ الإسلامي:

ثم.. ألا يحق لنا - أمام أي شك أو تشكيك في هذه الحقيقة - أن نتساءل:

• ألم تكن تلك هي [المنافع] المبتغاة من الحج يوم أن انبثق نور الإسلام؟!.

• ألم يكن الخليفة الراشد - في عهد الخلافة الراشدة - يجعل من موسم الحج مؤتمرًا يلتقي فيه بالولاة والعمال والقضاة وجباة الزكاة والصدقات وقادة الجند والفقهاء وأهل الرأي من مختلف الأقاليم الإسلامية.. فتوضع صورة واقع الأمة أمام العقل القائد والمفكر؟!..

وألم يكن موسم الحج، على عهد الخلافة الراشدة، منتدى لقاء القراء والفقهاء يتبادلون فيه الفكر والرأي والخبرات، فتنمو في الأمة ملكة التعقل والاجتهاد؟!..

• ورسول الله ﷺ.. ألم تكن حَجَّته الوحيدة سنة ١٠هـ - حَجَّة الوداع والبلاغ - ألم تكن مؤتمرًا جامعًا قرر فيه «الحقوق المدنية» لأمة الإسلام؟!..

إنني لا أبالغ إذا قلت: إن خطبة الرسول الشهيرة، في حجة الوداع، تلك التي مثلت وثيقة «الحقوق المدنية» الإسلامية، فيها لعالمنا الإسلامي الراهن المنطلقات لجدول أعمال مؤتمر الحج الأكبر، الذي يجب أن ينعقد لدراسة الواقع البائس الذي تعيشه هذه الأمة، وتحديد السبل لتغييره، والوسائل اللازمة لمواجهة التحديات المحدقة بالإسلام والمسلمين!..

لقد تأسست دولة الإسلام الأولى في السنة الأولى للهجرة.. وفي جمادى الأولى من السنة الثانية بدأت المواجهة المسلحة بين دولة الإسلام ودولة الشرك - في غزوة «العشيرة»، التي كانت المقدمة لـ«بدر الكبرى».. وفي السابع عشر من شعبان، من نفس السنة، تحولت القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام، بما مثله ذلك الحدث العظيم من إيذان بانتقال القيادة من العبرانيين إلى الأمة العربية المسلمة، التي تأهلت بالعدل - الوسطية - لتكون لها الشهادة على غيرها من أمم الرسالات!.

وفي العام التالي - سنة ٣هـ - فرض الله الحج، مؤتمرًا يشهد فيه المسلمون [منافع لهم].. وفي العام العاشر للهجرة، حج الرسول ﷺ فعقد للمسلمين

مؤتمرهم الذى أبلغهم فيه «حقوقهم المدنية» كأمة واحدة متميزة بين الأمم، قال ﷺ بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«أيها الناس، اسمعوا قولى، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا، بهذا الموقف أبدًا..

أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، وحرمة شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم. وقد بلّغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. وإن كل ربا موضوع، ولكم رءوس أموالكم، لا تظلمون ولا تُظلمون. قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله، وإن كل دم فى الجاهلية موضوع، وإن أول دم أضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

أيها الناس، إن الشيطان قد يئس من أن يُعبد بأرضكم هذه أبدًا، ولكنه رضى أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم..

أيها الناس، اسمعوا قولى.. واعقلوه. تعلمن أن كل مسلم أخو المسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس، فلا تظلموا أنفسكم.. إنى قد بلّغت، وتركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا، كتاب الله وسنة نبيه»!.. إلخ.. إلخ..

تلك كانت كلمات النبى ﷺ فى خطبة «حجة الوداع» التى ألقاها فى مؤتمر الحج الأكبر، ليقرر فيها «الحقوق الإنسانية - المدنية» التى شرعها الإسلام للإنسان.

وتلك كانت «حكمة» الحج عندما فرضه الله ركنا من أركان الإسلام..

وتلك كانت تطبيقات الرسول والخلفاء الراشدين لهذه «الحكمة»، وفهمهم [للمنافع] التى ابتغاها الله لعباده من وراء حجهم إلى بيته الحرام..

• اقتراح:

واليوم.. وفى ظروف عصرنا الحديث، وعلى ضوء الواقع البائس الذى تحياه أمتنا، رغم ما لديها من إمكانات مادية وما تملك من عقول مبدعة ومفكرة... هل

نطمح ونطمع ونتطلع إلى إعادة شعيرة الحج «مؤتمرا أكبر» لأمة الإسلام؟!.. ولقاء جامعًا لعقل الأمة الراشد، يتأمل واقعها، ويرسم لجمهورها سبل الخلاص؟!..

إننا نقترح ـ تحديداً ـ وفي إيجاز:

١ ـ إقامة منظمة غير حكومية، تكون لها صفة الدوام، مهمتها تنظيم [مؤتمر الحج الأكبر]..

٢ ـ تدعو هذه المنظمة: كل المؤسسات الفكرية والتعليمية والبحثية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والنقابية.. إلخ.. إلخ.. في بلاد العالم الإسلامي، ولدى الجاليات الإسلامية خارج عالم الإسلام.. تدعوها إلى إخطارها بمن سيؤدي فريضة الحج من أعضائها قبل شهور من موسم الحج في كل عام.. لتتكون من هذه [الصفوة] الممثلة [لأهل الذكر] في كل الاختصاصات، عضوية [مؤتمر الحج الأكبر]..

٣ ـ تحدد [منظمة مؤتمر الحج الأكبر] الموضوعات والقضايا التي تقترحها هي، والتي ترد إليها من الأفراد والهيئات في مختلف بلاد الإسلام، كجدول أعمال لـ [مؤتمر الحج الأكبر] مع التركيز، في كل عام، على القضايا التي تمثل أكثر مشكلات المسلمين إلحاحًا، وأخطر التحديات التي تواجه أمة الإسلام.. وتتلقى الدراسات والتقارير حولها.. وتتخير من هذه الدراسات والتقارير ما يفي بإنضاج الرأي حول قضايا ومشكلات «جدول أعمال المؤتمر».. كما تكلف المنظمة ذوي الاختصاص بإعداد ما يلزم من الدراسات..

٤ ـ يعقد المؤتمر، سنويًا، عقب أداء مناسك الحج، لتتدارس لجانه مشكلات الإسلام والمسلمين، ويصدر فيها التوصيات والقرارات..

٥ ـ تصدر [منظمة مؤتمر الحج الأكبر] مجلة شهرية، تنشر فيها الدراسات التي ستناقش بالمؤتمر كل عام، لتأتي وفوده إليه وهي على بينة من القضايا موضوع البحث والنقاش.. كما تنشر فيها توصيات المؤتمر وقراراته.. والتي تخطر بها الحكومات والمنظمات والهيئات والمؤسسات والاتحادات والنقابات.. إلخ.. إلخ..

٦ ـ تقوم [منظمة مؤتمر الحج الأكبر] بمتابعة تنفيذ قرارات المؤتمر، وتقييم كفاءته وجدواه.. لاقتراح السبل الكافلة له التطور والفاعلية في تحقيق [المنافع] الإسلامية من وراء [الحج] كشعيرة ابتغى الإسلام من ورائها تحقيق [المنافع] لأمة الإسلام..

* * *

إن هذا الاقتراح المحدد، القابل للتطوير والتفصيل، يمكن ـ في اعتقادنا ـ أن يحقق للأمة الإسلامية جوهر [المنافع] التي دعا الله، سبحانه وتعالى، أمة محمد ﷺ كي تشهدها عندما يشد المستطيعون من أبنائها الرحال حاجين إلى بيت الله الحرام.

فهل من مجيب لهذا النداء؟!..

وهل من مستجيب لهذا الاقتراح؟!...

إننا نأمل.. ونطمح.. ونتطلع.. وما ذلك على الله بعزيز.. ولا على «رابطة العالم الإسلامي»، وعقلاء الأمة وراشديها ببعيد!.

* * *

سنة التدرّج فى الإصلاح

التدرّج: سُنّة من سنن الله، سبحانه وتعالى، وقانون من القوانين الكونية التى لا تبديل لها ولا تحويل..

● هو سنة من سنن الخلق الإلهى للكون والعالم بسماواته وأراضيه.. فلقد خلق الله، سبحانه وتعالى، السماوات والأراضين وما فيهما فى ستة أيام من أيام الله ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤، يونس: ٣].. ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [أى فى تتمة أربعة أيام لخلق الأرض وما فيها] ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٢].

فتدرج خلق الله لها فى ستة أيام ـ من أيامه سبحانه ـ وهو القادر على أن يقول لها ـ فى جزء من اللحظة ـ كن فتكون..

● والتدرج سنة من سنن الله فى خلقه للإنسان الأول ـ آدم، عليه السلام ـ.. فلقد مرت مراحل خلق الله له بسبعة أطوار، بدأت بمرحلة [التراب] الذى أضيف إليه [الماء] فصار [طينا] ثم تحول هذا الطين إلى [حمأ] ـ أى أسود منتن ـ لأنه تغيّر ـ والمتغيّر هو [المسنون] ـ فلما يبس هذا الطين ـ من غير أن تمسه نار ـ سمى [صلصالا] ـ لأنه يصلّ، أى يصوّت، من يبسه ـ..

وبعد هذه المراحل الخمسة ـ التراب.. فالماء.. فالطين.. فالحمأ المسنون..

فالصلصال ـ كانت مرحلة النفخ الإلهى فى «مادة» هذا الخلق من [روح الله].. فكان أن استوى هذا المخلوق [إنسانا]، هو آدم، عليه السلام ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]، ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧]، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩].

● وبسنة التدرج، عبر الأطوار والمراحل، كان خلق الله وتكوينه لكل مخلوق من ذرية آدم، عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤] فكان التدرج سنة كونية مطردة فى خلق الله للعالم.. وللإنسان الأول.. ولكل إنسان.

● كذلك، شاء الله، سبحانه وتعالى، أن يكون التدرج والتطور سنة مطردة فى مسيرة الشرائع السماوية، التى جعلها، سبحانه، «ألطافا» لهداية الإنسان.. فمع وحدة الدين عبر حقب وأمم النبوات والرسالات، كان تدرج وتطور الشرائع مع واقع هذه الأمم، ومع نمو المستوى العقلى لأمم هذه الرسالات..

● وفى عصر النبوة:

● وحتى فى الشريعة الإسلامية، شريعة الرسول الخاتم محمد بن عبد الله ﷺ كان التدرج سنة مطردة ومرعية.. فهذه الشريعة، الخاتمة والخالدة، قد بدأت ـ فى المرحلة المكية، التى استغرقت ثلاثة عشر عامًا ـ بإعادة صياغة الإنسان والجماعة المؤمنة والجيل الفريد وفق معالمها ومنظومة قيمها.. أى بدأت بالدرجة الأولى فى سُلّم التغيير الكبير والجذرى والشامل والعميق.. تغيير النفس الإنسانية كى تصبح قادرة على تغيير الواقع وفق المنظومة القيمية الإيمانية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣].

وكذلك كان الحال ـ التدرج ـ فى المرحلة المدنية ـ التى استغرقت عشر سنوات ـ فامتلاك الجماعة المؤمنة ـ الأمة ـ للدولة وأركانها، لم يجعل «الطفرة» تحل محل «التدرج»، ولا «الثورة» تحل محل «الإصلاح» فى استكمال التشريع واكتمال التطبيق لشريعة الإسلام.. فمع تدرج الوحى ـ المنجم ـ واكب التشريع والتطبيق للتشريع تطور التغيير المتدرج للإنسان، الذى سيقيم كامل الشريعة، وللواقع، الذى لابد من تهيئته لتقبل كامل الشريعة..

ـ فنظام المواريث طبق فى السنة الثالثة للهجرة.. أى بعد ستة عشر عامًا من بدء الوحى..

ـ والنظام الإسلامى للأسرة ـ من الزواج والطلاق والنفقة وسائر أحكامها ـ اكتمل تشريعه وتطبيقه فى السنة السابعة للهجرة.. أى عبر عشرين عامًا من بدء الوحى.

ـ والقوانين الجنائية، تدرج تشريعها وتطبيقها مادة مادة، حتى اكتملت فى السنة الثامنة للهجرة.. أى عبر واحد وعشرين عامًا من عمر الوحى الخاتم..

ـ وتدرجت أحكام الخمر من الذم لها والتحذير منها إلى التحريم القاطع والنهائى لها فى السنة الثامنة للهجرة.. أى فى العام الواحد والعشرين من بدء الوحى.

ـ وكان تحريم الربا فى السنة التاسعة للهجرة، وذلك بعد أن تخلّق فى الواقع الإسلامى للدولة الجديدة والأمة الوليدة اقتصاد إسلامى بديل حلّ محل الاقتصاد الجاهلى القديم.. وعند ذلك أصبح تطبيق الفلسفة الجديدة للنظام اللاربوى ومعاملاته أمرًا ممكنًا..[1]

بل إن هذا التدرج قد كان سنة مرعية ومطردة أيضًا فى الشعائر والعبادات ـ بما فيها الكثير من أركان الإسلام ـ وليس فقط فى أحكام الواقع والمعاملات.. فالصلاة ـ بصورتها التامة والحالية ـ اكتملت فريضتها ليلة الإسراء والمعراج ـ فى السنة الثانية قبل الهجرة.. الحادية عشرة من البعثة ـ.. والصوم فرض بالمدينة.. وكذلك الزكاة.. والحج إلى بيت الله الحرام.. فكان التدرج سنة إلهية وقانونًا

كونيًا في كل عوالم الخلق.. خلق الله العالم.. وللإنسان الأول.. وللذرية هذا الإنسان.. و«للطف» الله بهذا الإنسان عبر النبوات والرسالات والشرائع، التي واكبت سنة التغيير في النفس الإنسانية، والتطور في الواقع الذي يعيش فيه هذا الإنسان.

● سنة جدل العدل والجور:

وإذا كان الله، سبحانه وتعالى، قد خلق كل شيء بقدر وقدّره تقديرًا ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].. وجعل السنن والقوانين حاكمة لكل عوالم الخلق والوجود والاجتماع الديني والإنساني ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣].. ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].. ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٧].. فلقد شاء، سبحانه، أن تكون سنة التدرج حاكمة في كل ميادين التغيير، تقدمًا وإصلاحًا كان هذا التغيير، أو تخلفًا وتراجعًا وانحدارًا نحو الفساد.. فالحديث عن «الطفرات» و«الثورات» و«الانقلابات الفجائية» لا يعدو أن يكون حديثًا عن «هبات» مفارقة لسنن التدرج، تقف عند حدود الغضب والهياج، أو الأماني والأحلام.. فحتى الجراحات لا تتم إلا بعد تدرج المرض وتطوره، ولا تؤتي ثمارها - في الشفاء - إلا بعد تدرج في العلاج..

وإذا كنا قد أشرنا إلى سنن التدرج في الإصلاح الديني، الذي حكم التشريع الإسلامي، والتطبيق لهذا التشريع، على عهد رسول الله ﷺ.. فإن لرسول الله حديثًا أراه من جوامع الكلم التي عبرت عن فلسفة السنة الحاكمة لكل ألوان التغيير الذي يصيب الاجتماع الإنساني عبر التاريخ، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها.. أي كل ألوان التغيير، تراجعًا كان هذا التغيير عن معايير الصلاح الإسلامي، أو تقدمًا نحو معايير هذا الصلاح.. فالتغيير الذي يصيب الاجتماع الإنساني هو «دورات متواليات» - وليس خطًا مستقيمًا، صاعدًا نحو الصلاح، أو هابطًا نحو الفساد.. هو «دورات» يتعاقب فيها العدل والجور والصلاح والفساد، مع التدرج والتطور في هذا التغيير نحو الصلاح أو الفساد..

وفى هذا الحديث النبوى الشريف ـ الذى جاء نبوءة حاكمة لكل ألوان التغير وعوامله فى الاجتماع الإنسانى ـ يقول رسول الله ﷺ:

«لا يلبث الجور بعدى إلا قليلاً حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شىء ذهب من العدل مثله، حتى يولد فى الجور من لا يعرف غيره، ثم يأتى الله، تبارك وتعالى، بالعدل، فكلما جاء من العدل شىء ذهب من الجور مثله، حتى يولد فى العدل من لا يعرف غيره» ـ رواه الإمام أحمد..

فدورات العدل والجور، وحقب الصلاح والفساد هى السنة التى تحكم سير الاجتماع الإنسانى.. والتغير فى هذه الدورات محكوم بسنة التدرج، فبقدر الجور والفساد الذى يظهر وينمو يكون قدر العدل والصلاح الذى يتوارى، وكذلك الحال فى الدورات العكسية، حتى لكأننا أمام التدرج فى ظاهرتى الشروق والغروب للشمس مثلاً، دونما «طفرة» أو «انقلاب فجائى».. بل إن ما يحسبه البعض «طفرة» أو «فجأة» إنما هى لحظة فى سلك التدرج وتوالى التطور والتغير.

● فى تاريخنا القديم:

والذين يفقهون حقيقة التغيرات التى أصابت الاجتماع الإسلامى بعد عصر النبوة، سواء منها التغيرات السلبية أو الإيجابية، والفساد الطارئ منها أو الإصلاح الذى غالب الفساد وتدافع معه.. سيجدون المصداق والتصديق لهذه السنة ـ سنة التدرج فى التغير ـ التى تحدث عنها هذا الحديث الشريف لرسول الله ﷺ.

فالتغيرات التى أصابت نموذج العصر النبوى والعصر الراشدى ـ والتى جاءت من وافد مواريث البلاد المفتوحة وثقافات الشعوب التى دخلت فى إطار الرعية والأمة بأسرع مما غيرت نفوسها قيم الإسلام.. والتى جاءت ـ أيضاً ـ من النفوس التى تغيرت عندما ابتعدت عن وهج النور الرسالى للعهد النبوى ـ هذه التغيرات التى أصابت قيم ونظم الشورى والعدل الاجتماعى أكثر من سواها وقبل سواها، لم تحدث فجأة ولا طفرة، وإنما حكمتها سنة التدرج فى الاتجاه نحو الجور والظلم والفساد..

وكذلك الحال مع التغيرات التى جسدتها حقبة الراشد الخامس والمجدد الأول

عمر بن عبد العزيز [٦١ ـ ١٠١هـ ٦٨١ ـ ٧٢٠م] رضى الله عنه وأرضاه، والتى أحلّت العدل محل الجور، والصلاح محل الفساد، وردت المظالم إلى أصحابها، والتى مثلت ملحمة من ملاحم التجديد والتغيير العادل فى الاجتماع الإسلامى.. هذه التغييرات العادلة والصالحة لم تتم فجأة ولا طفرة، وإنما تدرجت عندما بدأها الخليفة بنفسه.. فزوجه.. فأمراء بنى أمية.. وصولاً إلى كل الذين اغتصبوا ما ليس لهم من مال الأمة وبيت مال المسلمين.. حتى لقد استغرقت هذه التغييرات كل عهد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز!.

ولقد عبر عمر بن عبد العزيز عن تلك التغييرات التى تدرجت بالاجتماع الإسلامى نحو الجور والمظالم، والتى ورثها الخليفة عن الذين سبقوه من خلفاء بنى أمية.. عبّر عنها الخليفة العادل عندما وصف الواقع الاجتماعى فى ميدان الثروات والأموال، والتغييرات المتدرجة التى نقلته من العدل إلى الجور، فقال:

«إن الله تبارك وتعالى بعث محمداً ﷺ رحمة ـ لم يبعثه عذابًا ـ إلى الناس كافة، ثم اختار له ما عنده، فقبضه إليه، وترك للناس نهرا شِرْبهم فيه سواء. ثم قام أبو بكر فترك النهر على حاله. ثم ولى عمر، فعمل على عمل صاحبه. فلما ولى عثمان اشتق من النهر نهرا. ثم ولى معاوية فشق منه الأنهار. ثم لم يزل ذلك النهر يشق منه يزيد، ومروان، وعبد الملك، والوليد، وسليمان، حتى أفضى الأمر إلىَّ وقد يبس النهر الأعظم. ولن يروى أصحاب النهر حتى يعود إليهم النهر الأعظم كما كان عليه..»[٢]!.

وكما تمت التغييرات السلبية، من العدل إلى الجور، بالتدريج، بدأ عمر بن عبد العزيز ملحمة التغيير من الجور والظلم إلى العدل والصلاح، بالتدريج أيضًا. فبدأ بنفسه، عندما جعلها القدوة الصالحة والعادلة.. وعندما رد جميع المظالم التى ورثها عن أسلافه إلى بيت مال المسلمين، وقال ـ وهو يرد «إقطاع فَدَك» ـ: «إن أهلى أقطعونى ما لم يكن لى أن آخذه، ولا لهم أن يعطونيه»[٣]!.

لقد جعل عمر بن عبد العزيز من عامى خلافته سلسلة متدرجة ومتصلة من «رد المظالم» انتقلت بالاجتماع الإسلامى من الجور إلى العدل ومن الفساد إلى الصلاح حتى لقد قالوا: «إنه مازال يرد المظالم منذ يوم استخلف إلى يوم مات»[٤]!.

كما عبر عن وعيه بضرورة التدرج فى هذا التغيير الإصلاحى، رغم شوقه للعدل وحماسه الشديد للإصلاح، واستعداده لأن يبذل روحه فى سبيل هذا الإصلاح.. فمع قوله: «لو كان كل بدعة يميتها الله على يدىّ، وكل سنّة ينعشها الله على يدىّ ببضعة من لحمى، حتى يأتى آخر ذلك على نفسى، كان فى الله يسيراً»(٥)!.

إلا أن حماسه للإصلاح، واستعداده للفداء والاستشهاد فى سبيله لم يدفعه إلى محاولة إتمامه فجأة وطفرة، وإنما سلك إليه سبيل التدرج، ودافع عن هذا المنهاج فى التغيير، فى حواره مع ابنه عبد الملك، الذى كان يستعجل التغيير والإصلاح، فقال لأبيه:

- يا أبت! مالك لا تنفذ فى الأمور؟!.. فوالله لا أبالى فى الحق لو غلت بى وبك القدور!

فرد عليه عمر بن عبد العزيز، بحكمة رجل الدولة، وخبير الإصلاح، والفقيه فى سنة التغيير التدريجى، قائلاً:

- «لا تعجل يا بنى! فإن الله تعالى ذم الخمر فى القرآن مرتين وحرّمها فى الثالثة، وأنا أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدعوه، وتكون فتنة»(٦)!.

فلقد كان هذا الراشد العادل واعيا بسنة الله فى التدرج بالإصلاح والتغيير العادل.. وعارفًا بضرورات التعايش - مؤقتًا - مع مقادير من الجور والظلم والفساد حتى يحين الحين فيحل التغيير التدريجى محلها بدائل العدل والإصلاح.. بل لقد تحدث صراحة عن هذه الحقيقة من حقائق سنة التغيير، فقال:

«إنى لأُجمع أن أُخرج للمسلمين أمراً من العدل، فأخاف ألا تحتمله قلوبهم، فأُخرج معه طمعًا من طمع الدنيا، فإن نفرت القلوب من هذا سكنت إلى هذا»(٧)!.

فهو - هنا - يتجاوز مستوى «التعايش» مع مقادير من الجور وألوان من الفساد، حتى يحين حين التغيير التدريجى لهما، وإحلال مقادير من العدل والصلاح محلها.. يتجاوز هذا المستوى، إلى الحديث عن مستوى آخر، وهو «تغليف» العدل

بشيء من «طمع الدنيا»؛ كي تتقبله النفوس التي «تغلغلت» بقيم الاجتماع الفاسد والجائر الذي طرأ على حياة الناس!.

وتلك ـ لعمري! ـ عبقرية في فقه التدرج بالتغيير، جسدتها تجربة الراشد الخامس والمجدد الأول عمر بن عبد العزيز.. وعبّرت عنها كلماته الراشدة الحكيمة في فلسفة هذا المنهاج.. وجسدتها تجربته العملية التي لازالت مضيئة في تاريخ الإصلاح الإسلامي، تستحث خطا المصلحين على هذا الطريق..

• وفى العصر الحديث:

فإذا انتقلنا من الفلسفة الإسلامية في التغيير.. والتطبيقات النبوية والراشدة لفلسفة هذا المنهاج التغييري، إلى الواقع الإسلامي في العصر الحديث.. فإننا ستجد سنة التدرج عاملة وحاكمة في ميدان الإفساد الذي جاءنا في ركاب الاستعمار الغربي الحديث، والذي استفاد غزوه الثقافي والقيمي والإعلامي للعقل المسلم والواقع الشرقي من الفراغ الذي صنعه الجمود والتقليد، ومن تخلفنا الحضاري الموروث.. ستجد سنة التدرج حاكمة لهذا الغزو الفكري والثقافي والإعلامي والقيمي الذي اخترق عقلنا المسلم وواقعنا الشرقي..

كما ستجد سنة التدرج، أيضًا، واضحة في نوايا ومقاصد ومخططات حركات الإصلاح الإسلامي التي تصدت لتغيير هذا الفساد الذي أحدثه الاستعمار الغربي في ثقافة المسلمين.

فالتسلل القانوني ـ للقانون الوضعي العلماني ـ قد دخل بالتدريج إلى عقلنا الفقهي ومؤسساتنا القانونية والقضائية والتشريعية والتغيرات التي أحدثها الاستعمار بواقعنا الاقتصادي والاجتماعي، والتي فتحت الأبواب إلى قيمه الحضارية والثقافية، قد تمت هي الأخرى بالتدريج.. بل وبالتدريج الناعم والبطيء في أغلب الأحايين.. والاختراق التغريبي لمناهج التعليم في بلادنا الإسلامية قد بدأ «بالضرورات البريئة» في علوم الصنعة ـ الدقيقة ـ والمحايدة ـ ثم تطرّق الاختراق ـ بالتدريج أيضًا ـ إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية.. ثم تصاعد حتى طال أطرافًا من علوم العقيدة والشريعة ـ التي درسها نفر من أبنائنا على أيدي المستشرقين،

وبمناهجهم! ـ كما استوعب هذا الاختراق واستولى على الكثير من ميادين الفنون والآداب، مستفيداً ـ أيضاً ـ من الفراغ الذى أحدثه الجمود والتقليد عندما عجز سدنته عن إبداع البدائل الإسلامية التى تغذى العقل والوجدان فى هذه الميادين . .

* * *

ولقد كانت دعوات الإصلاح الإسلامى، والحركات التى انتظمت حول هذه الدعوات، واعية بسنة التدرج هذه فى حلول الفساد التغريبى بواقعنا القانونى ـ الذى عبر عن التغيرات الثقافية والقيمية الجديدة ـ وكانت هذه الدعوات الإصلاحية واعية ـ أيضاً ـ بسنة التدرج فى مسيرة الإصلاح الإسلامى لهذا الفساد التغريبى . .

وإذا شئنا نماذج محددة وشاهدة ـ كى لا يطول بنا الحديث ـ على وعى حركات الإصلاح الإسلامى الحديثة والمعاصرة بهذه السنة ـ سنة التدرج فى الغزو الثقافى الغربى لنفوس المسلمين وعقولهم ـ وأيضاً الوعى بضرورة التدرج فى إصلاح هذا الفساد، وتنقية الحياة الثقافية من آثاره . . فإن فى رؤية كل من الإمام الشهيد الشيخ حسن البنا [١٣٢٤ ـ ١٣٦٨هـ ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩م] والعلامة الأستاذ أبى الأعلى المودودى [١٣٢١ ـ ١٣٩٩هـ ١٩٠٣ ـ ١٩٧٩م] نماذج للرؤية الإصلاحية فى هذا الميدان.

فالإمام البنا يتحدث عن تسلل القيم الغربية إلى نفوس المسلمين، بتدرج وسلاسة، أحلت هذه القيم محل القيم الإسلامية، حتى لقد غدت محبوبة ومعشوقة من نفوس المسلمين! . . فيقول:

«إن الحضارة الغربية، بمبادئها المادية، قد انتصرت فى هذا الصراع الاجتماعى على الحضارة الإسلامية، بمبادئها القويمة الجامعة للروح والمادة معا، فى أرض الإسلام نفسه، وفى حرب ضروس ميدانها نفوس المسلمين وأرواحهم وعقائدهم وعقولهم، كما انتصرت فى الميدان السياسى والعسكرى.. لقد عمل الأوربيون على أن تغمر موجة هذه الحياة المادية، بمظاهرها الفاسدة وجراثيمها القتالة، جميع البلاد الإسلامية التى امتدت إليها أيديهم وأوقعها سوء الطالع تحت سلطانهم، مع حرصهم الشديد على أن يحتجزوا دون هذه الأمم عناصر الصلاح والقوة من العلوم والمعارف والصناعات والنظم النافعة.. ونجح هذا الغزو الاجتماعى المنظم

بالمدارس العلمية والثقافية فى عقر ديار الإسلام ـ والتى ضمت أبناء الطبقة العليا ـ فعلمتهم كيف يتقصون أنفسهم ويحتقرون دينهم ووطنهم وينسلخون من تقاليدهم وعقائدهم، ويقدسون كل ما هو غربى، ويؤمنون بأن ما يصدر عن الأوروبيين وحده هو المثل الأعلى فى هذه الحياة.. نجح هذا الغزو الاجتماعى المنظم أعظم النجاح، فهو غزو محبب إلى النفوس، لاصق بالقلوب طويل العمر، قوى الأثر، وهو لهذا أخطر من الغزو السياسى والعسكرى بأضعاف الأضعاف»[8].

فهذا الغزو قد تم فى ميادين الثقافة والإعلام والاجتماع ـ أى فى عالم النفوس والوجدان ـ فى الوقت الذى حرم فيه الاستعمار بلادنا من العلوم النافعة والضرورية لعمران وترقية الواقع المادى فى بلادنا..

وإذا كان الغزو العسكرى قد تم فى معركة، ووقت وجيز.. فإن هزيمته يمكن أن تتم بنفس الوتيرة.. أما هذا الغزو الثقافى والإعلامى والقيمى والاجتماعى، فإن تمامه ببطء وتدريج، يجعله «طويل العمر» ـ كما يقول الشيخ حسن البنا..

وهذا الذى أشار إليه الأستاذ البنا قد فصّل فيه الأستاذ المودودى، عندما تحدث عن التدرج فى الغزو الغربى لثقافة المسلمين.. وعن التدرج الذى يجب أن تسلكه الجهود الإصلاحية لإحلال البدائل الإسلامية محل الإفساد الفكرى والثقافى والإعلامى والقيمى الغربى.. يتحدث المودودى عن تدرج الإفساد فيقول:

«إن الإنكليز قد صرفوا مدة قرن كامل تقريبًا فى تبديل نظام البلاد القانونى. بدلوا نظام حياتها أولا شيئًا فشيئًا، وأعدوا رجالاً لا يتفكرون ولا يعملون إلا حسب نظرياتهم وأفكارهم، وعملوا عملاً متواصلاً على تغيير أذهان الناس وأخلاقهم ونظامهم الاقتصادى بنشر الأفكار وبتأثير السلطة والاستيلاء، أى ظلوا يلغون القوانين القديمة وينفذون مكانها قوانينهم الجديدة، على قدر ما ظلت تأثيراتهم المختلفة تغير من نظام البلاد الاجتماعى».

فهو «تدرج ـ جدلى» فى تغيير الواقع الاجتماعى والفكرى والثقافى والقيمى، ينتج عنه غربة المجتمع عن القوانين الموروثة، فيأتى إحلال القانون الغربى ليحكم حركة الواقع المتغرب.. هكذا استمر الاستعمار يمارس هذا «التغيير ـ الجدلى ـ المتدرج» نحو قرن من الزمان فى شبه القارة الهندية.

ثم يتحدث المودودى ـ باستفاضة ـ عن ضرورة سلوك حركة الإصلاح الإسلامى سبيل التطور، والتزامها الواعى بسنة التدرج فى التغيير لهذا الواقع الاجتماعى والثقافى والقيمى الذى كرّسه الاستعمار الغربى.. فيقول:

«إننا إن كنا نريد حقًا أن يحالفنا التوفيق فى إلباس فكرة إقامة الدولة الإسلامية حلة العمل والتنفيذ، فلابد أن نتنبه للقاعدة الفطرية التى لا تقبل التغيير، وهى أنه لا يحدث الانقلاب فى الحياة الاجتماعية إلا بالتدريج. ولابد أن يكون كل انقلاب بَدَدًا غير محكم على قدر ما يكون فوريًا متطرفًا، ولابد لكل نظام راكز المبادئ والأصول أن يجرى فى كل جهة من جهات الحياة وناحية من نواحيها باتزان تام، حتى تساند كل ناحية نواحيه الأخرى.. أما الذين يظنون أن جميع القوانين الماضية ستلغى دفعة واحدة، وينفذ مكانها القانون الإسلامى فجأة بمجرد إعلان تغيير نظام الحكومة.. فإنهم لا بصر لهم فى المسائل العملية، وما إحداث الانقلاب عندهم فى النظام الاجتماعى إلا كلعبة الأطفال!. أو هم يتمنون أن يحصدوا زرعهم بعد غرسه على الفور!».

ثم يضرب المودودى المثل على سنة التدرج الحاكمة، وعلى الجدل بين التغيير التدريجى للواقع وبين التغيير التدريجى للقانون والفكر والثقافة ـ والتى تسهم هى الأخرى فى دفع التغييرات الواقعية إلى الأمام ـ يضرب المثل على ذلك المنهاج فى التغيير بالنموذج النبوى فى دولة الإسلام الأولى، بالمدينة المنورة، فيقول:

«وأحسن أسوة لنا فى هذا الصدد ذلك الانقلاب الذى تم على يد رسول الله ﷺ.. إنه لم يطبق القانون الإسلامى بجميع شعبه ونواحيه دفعة واحدة، بل كان ـ قبل هذا الانقلاب ـ قد مهد الأرض وأعد المجتمع لقبوله، ومازال شيئًا فشيئًا مع هذا الإعداد، يبدل طرق الجاهلية ويستعيض بها طرق الإسلام وقواعده الجديدة.. حتى إذا مرت على ذلك تسع سنوات، تم فى البلاد فى جانب بناء الحياة الإسلامية، وفى الجانب الآخر نفاذ القانون الإسلامى بأسره.. فمن المحتوم إذن ألا يتم الإصلاح والتغيير المنشود إلا على مبدأ التدرج..»[9]!

ثم فصّل المودودى تفصيلاً فى كيفية هذا التدرج، وفى ضرورة تزامل وتزامن «الجدل» بين تغيير الواقع الاجتماعى بالإبداع الفكرى، وبين إسهامات تغيير الواقع

وتجديد الفكر، ودور التجديد الفكرى وإبداع البدائل الإسلامية فى دفع الواقع باتجاه إسلامية النموذج الثقافى ومنظومة القيم الإسلامية..

* * *

تلك هى سنة التدرج، كما تجلت فى:

- السنن الإلهية الكونية فى خلق العالم.. وخلق الإنسان..
- والسنن الإلهية التاريخية فى الوحى بالشرائع السماوية الهادية للإنسان..
- والتطبيقات النبوية - لسنة التدرج هذه - فى الاجتماع الإسلامى، بالدولة الإسلامية الأولى..
- والإصلاح الإسلامى الراشد: كما تمثل فى تجربة الراشد الخامس والمجدد الأول عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه وأرضاه.
- وكما تجلت - أيضاً - فى فكر أبرز الدعوات والحركات الإصلاحية الإسلامية الحديثة والمعاصرة.. وخاصة فى منهاج كل من الإمام الشهيد الشيخ حسن البنا.. والعلامة الأستاذ أبى الأعلى المودودى. الأمر الذى يقول لنا:

إن إعمال هذه السنة الإلهية الكونية فى ميدان الإصلاح والتغيير للواقع الإسلامى الراهن، الذى أفسد التغريب الكثير من نواحى فكره وثقافته وإعلامه ومنظومة قيمه، لابد وأن يعنى سلوك طريق التدرج فى هذا التغيير المنشود.

فبقدر ما تتكون الكتيبة التى تبدع البدائل الإسلامية المحكومة بالقيم الإسلامية فى الثقافة والإعلام، وبقدر ما تطل هذه البدائل الإسلامية على الواقع المعيش، بقدر ما تكون بدايات التغيير للواقع الاجتماعى للثقافة والإعلام وتوجه هذا الواقع نحو الانضباط بمنظومة القيم الإسلامية.. وبقدر التغيرات الجزئية والتدريجية التى يحدثها الإبداع الثقافى والإعلامى الإسلامى فى الواقع الاجتماعى بقدر ما تتزايد المساحات المحكومة بالقيم الإسلامية فى الإبداع الفكرى والثقافى والمادة الإعلامية.

وعلينا أن ندرك - فى صراحة ووضوح - أن سنة التدرج هذه إنما تعنى مصاحبة الصلاح الإسلامى الجديد - حينا من الدهر - لكثير أو قليل من الفساد التغريبى - الوافد والموروث... وأن نتذكر، جيداً ودائماً، منهاج الراشد الخامس والمجدد الأول عمر بن عبد العزيز فى التدرج الإصلاحى، والإصلاح المتدرج، الذى لم

يقف، فقط، عند التعايش ـ مؤقتًا ـ مع مقادير من الجور الموروث، وإنما سلك سبيل «تغليف» العدل ببعض طمع الشهوات فى زينة الحياة الدنيا، وصولاً إلى إحلال العدل الخالص محل الجور والطمع والشهوات.. فقال، رضوان الله عليه، كلمته الحكيمة الجامعة:

«إنى لأجمع أن أُخرج للمسلمين أمرًا من العدل، فأخاف ألا تحتمله قلوبهم، فأخرج معه طمعًا من طمع الدنيا، فإن نفرت القلوب من هذا سكنت إلى هذا..»!

تلك هى سنة التدرج، وهذا هو قانونها الحاكم فى كل عوالم الخلق.. والإصلاح والتغيير.. وذلك هو منهاجها فى الخروج بأمتنا من واقعها الفكرى والثقافى والإعلامى الراهن إلى حيث الإصلاح الإسلامى المنشود..

مع ضرورة:

● صدق النية فى الإصلاح الكامل ـ قدر الطاقات والإمكانات ـ.. وليس مجرد «الترقيع».. والاكتفاء بسياسة مجاورة الصلاح للفساد، والتعايش بينهما، بدعوى وضع النماذج المختلفة أمام الأذواق المختلفة.. فإصلاح الأذواق التى أفسدها التغريب هو هدف من الأهداف الرئيسية للإصلاح.

وعلينا أن نميز بين صدق النوايا فى التدرج الإصلاحى وبين النوايا الكاذبة التى تتحدث عن «التدرج» بينما يضع أصحابها النموذج الإسلامى فى «الأدراج»!!.

فبالنية الصالحة.. وبالعزم الصادق.. وبالتخطيط الراشد.. والتنفيذ الواعى ـ وفق سنة التدرج ـ تتحقق آمال المصلحين فى الإصلاح..

● وعدم الاكتفاء بالنوايا الصادقة فى الإصلاح الكامل.. وإنما العمل المتواصل على تقديم النماذج الثقافية والإعلامية الصالحة ـ تقديم «المثال الإسلامى» ـ وتنمية مساحة هذا «المثال» باستمرار.. ليتوارى ـ مع نموه ـ النموذج الفاسد والسلبى فى الثقافة والإعلام..

● وتقدير الضرورات بقدرها، وذلك حتى لا تنفلت معايير الضرورات فى التعايش مع نماذج من الثقافة السلبية.. والحرص على أن تكون هناك موازنات بين السيئ والأسوأ والأقل سوءًا فى المادة التى يتم التعايش معها مؤقتًا..

● وكما يجب إعمال قاعدة «سد الذرائع» إلى الأسوأ.. فإن بالإمكان إعمال قاعدة «فتح الذرائع» إلى الأقل سوءاً، إذا أفضى التعايش المؤقت معه إلى الصلاح الأكثر والأعم.

● مع الحرص على أن تكون هناك منابر ثقافية وإعلامية خالصة الإسلامية، تمثل مراكز للتوجيه والتعريف بالنموذج الإسلامي.. ودائمة الإشعاع على سائر الساحة الثقافية والفضاء الإعلامي.. فضرب الأمثال.. وانعطاف قطاعات واسعة من الجماهير نحو هذه النماذج، هو من أفعل الوسائل في تنمية الإصلاح بميادين الثقافة والإعلام..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.. وصلى الله وسلم على الرسول الخاتم، إمام المصلحين إلى يوم الدين.

* * *

● الهوامش

(١) أبو الأعلى المودودي [القانون الإسلامي وطرق تنفيذه في باكستان] ص٥١، ٥٢. ترجمة محمد عاصم الحداد طبعة بيروت سنة ١٣٩٥هـ سنة١٩٧٥م.

(٢) الأصفهاني [كتاب الأغاني] جـ٩ ص٣٣٧٥، ٣٣٧٦. تحقيق: إبراهيم الإبياري. طبعة دار الشعب. القاهرة.

(٣) البلاذري [فتوح البلدان] ص٢٩ طبعة القاهرة سنة ١٣١٩هـ. وابن الأثير [الكامل في التاريخ] جـ٥ ص٢٤. طبعة القاهرة سنة ١٣٠٣هـ.

(٤) ابن سعد [كتاب الطبقات] جـ٥ ص٢٥١. طبعة دار التحرير. القاهرة.

(٥) د. محمد عمارة [عمر بن عبد العزيز: ضمير الأمة وخامس الراشدين] ص٢٢٦ طبعة دار الوحدة. بيروت سنة ١٩٨٥م.

(٦) ابن عبد ربه [العقد الفريد] جـ٤ ص٤٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م.

(٧) المصدر السابق. جـ٢ ص٢٣٢.

(٨) [مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا] ـ رسالة «بين الأمس واليوم» ـ ص١٤٠، ١٣٧، ١٣٩. طبعة دار الشهاب ـ القاهرة ـ بدون تاريخ.

(٩) [القانون الإسلامي وطرق تنفيذه في باكستان] ص١٨٩ ـ ١٩٧. ترجمة: محمد عاصم الحداد طبعة بيروت ـ ضمن مجموعة [نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون] سنة ١٣٨٩هـ سنة ١٩٦٩م. و: د. محمد عمارة [أبو الأعلى المودودي والصحوة الإسلامية] ص٢١٢ ـ ٢١٨، ٤١٤، ٤١٦، ٤١٩، ٤٢٠. طبعة دار الشروق ـ القاهرة سنة ١٤١٧هـ سنة ١٩٨٧م.

التمثيل الفنى لأدوار الصحابة رضى الله عنهم

هذه الصفحات، لا تطمح إلى أن تقدم اجتهاداً مكتملاً فى هذا الموضوع ـ تمثيل أدوار الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ فى الأعمال الفنية الدرامية ـ الذى تختلف فيه وحوله الاجتهادات فى دوائر الفقه والفكر الإسلامى المعاصر.. وإنما تريد هذه الصفحات أن تنهض بأمرين اثنين:

أولهما: هو ضبط وتحرير وتحديد مضامين ومفاهيم المصطلحات.. وذلك حتى يكون الحوار حول هذا الموضوع دائرا بين فرقاء يعون حقيقة المراد بمضامين المصطلحات، ومن ثم حقيقة الموضوع الذى يدور حوله الحوار.. وأيضًا مقادير الاتفاق أو الاختلاف فى هذا الموضوع.

وثانيهما: طرح مجموعة من «الأفكار الأولية»، التى يبدأ حولها الحوار.. ممثلة «نقاط الابتداء».. وليست ـ بحال من الأحوال ـ نهاية المطاف فى الاجتهاد..

• تحرير مضامين المصطلحات:

وفى موضوعنا هذا ـ تمثيل دور الصحابة ـ نجد أنفسنا أمام مصطلحين يحتاجان إلى ضبط وتحديد وتحرير للمراد بكل منهما.. **أولهما:** مصطلح «التمثيل».. **وثانيهما:** مصطلح «الصحابة»..

وإذا كان «التمثيل» هو تصوير الشىء، أو تصوير صفات الشىء، أى محاكاة شىء من الأشياء، بإبداع صورته ومثاله.. فإن «التمثيلية» ـ وهى مصطلح مُوَلَّد، لم تعرفه المعاجم اللغوية القديمة ـ هى كما فى [المعجم الوسيط] ـ: «عمل فنى، منثور أو منظوم، يُؤَلَّفُ على قواعد خاصة، ليمثل حادثًا حقيقيًا أو مُخْتَلَقًا، قصداً للعبرة».

وهذا التعريف للتمثيل والتمثيلية يؤكد على حقيقة من حقائق قواعد النقد الفنى الجاد، وهى أن العمل الفنى لابد أن يتوخى مقاصد العبرة والاعتبار، أى لابد وأن تكون له رسالة أخلاقية، لا أن يقف فقط عند مجرد المحاكاة، أية محاكاة، فضلاً عن أن يكون سبيلاً لما يضر بمنظومة القيم التى تعارف عليها المجتمع، وقواعد الأخلاق التى يزكيها الدين، الذى يمثل المكوّن الأول للثقافة التى يتم فيها التمثيل..

وعلى هذا المبدأ الفنى والحقيقة النقدية، ارتباط الجمال الفنى والفن الجميل بالمقاصد الأخلاقية، اتفق وتوافق الفلاسفة والنقاد مع الدين.

فالتمثيل من الناحية الفنية المجردة هو مجرد «مهارة».. وهذه المهارة لا تكون جميلة ـ أى لا يعد التمثيل من الفنون الجميلة، ذات البهاء والحسن والزينة ـ إلا إذا تغيت هذه الفنون تحقيق العبرة، أى المقصد الأخلاقى المحمود.. وهذا هو معنى قول فيلسوفنا «ابن سينا» [٣٧٠ ـ ٤٢٨هـ ٩٨٠ ـ ١٠٣٧م]: «**وجمال كل شيء وبهاؤه هو أن يكون على ما يجب له**»[1].

ومع ابن سينا فى هذا الربط بين الجمال وبين الأخلاق، يقف الناقد والأديب الروسى «بلنسكى» Belinsky [١٨١١ ـ ١٨٤٨م] عندما يقول: «**إن الجمال شقيق الأخلاق، فإذا كان عمل فنى ما فنيًا حقيقة فهو أخلاقى بنفس المعنى.. فإن الصور الإيجابية التى تعكس حياة الناس ونبلها وجمالها تفرض الاحترام والحب والإعجاب المخلص، وتعطى أنماط الأبطال الحقيقيين فى الحياة للقارئ والمتفرج متعة وبهجة جماليتين. أما الصور السلبية، فإنها تثير مشاعر الاستنكار الأخلاقى والاحتقار، التى ترتبط ارتباطًا وثيقًا فى طابعها بمشاعر الازدراء والاحتقار التى نحسها عندما ندرك ما هو قبيح ودنيء. ومن ثم فإن وحدة الجمالى والأخلاقى هى أساس الدور التربوى ودور التحويل الأيديولوجى اللذين تقوم بهما الفنون فى الحياة الاجتماعية**»[2].

فنحن، بهذا التحديد لمرادنا من هذا المصطلح ـ «التمثيل» ـ نريد أن يكون الحوار دائرًا حول هذا اللون من التمثيل.. التمثيل الذى يقدم محاكاة وتصويرًا فيه من البهاء والحسن والزينة ما ينمى الإيجابيات النبيلة والجميلة فى واقع الحياة،

وذلك حتى ينهض «الجمال الأخلاقى» بالدور الأساسى فى تربية المشاهدين لهذا التمثيل.. هذا عن مصطلح «التمثيل».

أما عن مصطلح الصحابة: فإن له معنى لغويًا يشمل كل من رأى وصحب رسول الله ﷺ ممن أعلن الإسلام.. فلا يعد فى الصحابة المشركون الذين رأوا رسول الله وصحبوه.. ولا أهل الكتاب ـ من يهود المدينة ونصارى نجران ـ الذين رأوا الرسول وصحبوه.. ولا المسلمون الذين أسلموا على عهد رسول الله ﷺ لكنهم لم يفدوا عليه ـ فى عام الوفود ـ وإنما وفد عليه ممثلوهم الذين أبلغوه عن إسلامهم، ثم عادوا إليهم حاملين عهود رسول الله ﷺ وتعاليمه.. فتعداد المسلمين يوم وفاة الرسول قد بلغ ١٢٤,٠٠٠.. وأكبر جمع صحب الرسول ﷺ بعد ذيوع الإسلام وانتشاره، قد بلغ ـ فى فتح مكة سنة ٨ هـ ـ عشرة آلاف.. وبلغ ـ فى حجة الوداع سنة ١٠هـ ـ أكثر من هذا العدد. لكنه لم يضم كل الذين دخلوا الإسلام حتى ذلك التاريخ.. هذا عن المعنى اللغوى لمصطلح «الصحابة».

أما معناه الاصطلاحى، فإنه خاص بالذين جمعوا إلى الإسلام الإيمان القلبى اليقينى، الذى عبر عنه وترجم له هذا الإسلام.. وكانت لهم الصحبة والمعية التى جعلتهم قريبين من حياة الرسول ﷺ ومن العلم النبوى الذى حملوه وبلغوه.. فالصحابة ليسوا كل من أعلن الإسلام ورأى الرسول ﷺ وصحبه مطلق الصحبة، وإنما هم الجيل الذى شارك ـ على نحو ما ـ فى تأسيس دين الإسلام.. ودولة الإسلام.. والنظام الإسلامى، الذى مثل نواة الحضارة الإسلامية، وبداية التاريخ الإسلامى..

وإذا كان هذا التعريف الاصطلاحى للصحابة، يخرج ويسقط الذين صحبوا الرسول ﷺ وأعلنوا الإسلام، بينما أبطنوا الكفر ـ أى المنافقين ـ وهم الذين شملهم المعنى اللغوى لمصطلح الصحابة.. فقال فيهم رسول الله ﷺ عندما استأذنه عمر بن الخطاب فى قتل من كشف لسانه عن خبيئة نفاقه، قائلاً:

ـ يا رسول الله، ألا أقوم فأقتل هذا المنافق؟

ـ فكان جواب الرسول ﷺ: «معاذ الله أن تتسامع الأمم أن محمداً يقتل أصحابه» ـ رواه الإمام أحمد ـ ويخرج ـ هذا التعريف الاصطلاحى ـ الذين أعلنوا

الإسلام ورأوا الرسول وصحبوه، من الذين قال فيهم القرآن الكريم ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤].

وكذلك الذين قالوا ـ مع إعلان الإسلام والرؤية والصحبة ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٢، ١٣]

فلئن شمل المعنى اللغوى لمصطلح «الصحابة» مثل هؤلاء المنافقين ـ لأنهم أعلنوا الإسلام، ورأوا الرسول ﷺ وصحبوه ـ فلقد تميزت وتقدمت، من بين الذين أعلنوا الإسلام واجتمعت لهم الرؤية والصحبة، كوكبة الجيل الفريد والمؤسس، الذين انطبق عليهم المعنى الاصطلاحي للمصطلح، وذلك لتميز رسوخهم فى الإيمان، وعطائهم المجسد لهذا الإيمان، فى مختلف ميادين الدين والدنيا.. وعن هؤلاء الذين تميزوا بحقيقة الصحبة حدثنا القرآن الكريم عن صفاتهم وأعمالهم فى العديد من الآيات: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

ومن هذا الجيل الفريد والمؤسس، من كان له فضل السبق إلى الإسلام، يوم أن كان الإسلام فى مرحلة الاستضعاف، فتكلف الذين اختاروه عنتا لا يطاق، فتميزوا بهذا السبق، وتواصوا بالحق، وبالصبر على تبعاته.. وتحدث عنهم القرآن الكريم فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فالتمايز، في صفوف الصحابة، حقيقة واقعة.. وكما تميز «المهاجرون الأولون» ـ العشرة[3] ـ بين الذين آمنوا بمكة وهاجروا منها إلى المدينة المنورة، فلقد تميز من بين الأنصار «النقباء الاثنى عشر»[4]، الذين اختارهم الخمسة والسبعون الذين حضروا بيعة العقبة، ليعقدوا، باسمهم ونيابة عنهم، مع رسول الله ﷺ عقد تأسيس الدولة الإسلامية الأولى.

ولهذه الحقيقة، تمايز واختلف تعداد الصحابة عند العلماء الذين صنفوا فى التراجم لصحابة رسول الله ﷺ ورضى عنهم.. فرأينا تعدادهم فى كتاب [الاستيعاب لأسماء الأصحاب] لابن عبد البر، أبى عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمرى القرطبى [٣٦٨ ـ ٤٦٣هـ ٩٧٩ ـ ١٠٧١م] ٤٢٢٥ صحابيًا وصحابية.. بينما بلغ تعدادهم فى كتاب [أسد الغابة فى معرفة الصحابة] لابن الأثير الجزرى، عز الدين أبى الحسن على بن أبى الكرم الشيبانى [٥٥٥ ـ ٦٣٠هـ ١١٦٠ ـ ١٢٣٣م] ٧٧٠٣ صحابيًا وصحابية، منهم ٦٦٨١ صحابيًا و١٠٢٢ صحابية[5]..

ومرد هذا الاختلاف فى التعداد ـ إلى جانب التقصى والتتبع ـ هو الاختلاف حول دور الصحابى، وخاصة فى رواية أحاديث رسول الله ﷺ.

وإذا كان رسول الله ﷺ قد حدثنا عن فضل أصحابه، رضى الله عنهم، فقال: «الله الله فى أصحابى، لا تتخذوهم غرضًا بعدى، فمن أحبهم فبحبى أحبهم، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه» ـ رواه الترمذى وابن حبان ـ.. فإن هذا الحديث ـ وما فى معناه ـ هو البيان النبوى للبلاغ القرآنى ـ القطعى الثبوت والدلالة ـ عندما يقول ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وإذا كان الرسول ﷺ قد تحدث عن خيرية هذا الجيل، الفريد المؤسس، على كل الأجيال التى تلته.. فقال: «خير الناس قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم..» ـ رواه البخارى، والترمذى، وابن ماجه، والإمام

أحمد ـ . فليس معنى ذلك نفى الخيرية عن من عدا هذا الجيل المؤسس، والظن بأن «الخط البيانى» للخيرية، فى التاريخ الإسلامى، هو دائمًا وأبدًا فى هبوط ـ كما يحسب البعض ـ وإنما معنى هذا الحديث تميز وامتياز جيل التأسيس؛ لأنه لا بناء بدون أساس وتأسيس، فكل الأجيال التالية ـ من التابعين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ـ عيال على هذا الجيل الفريد، جيل التأسيس.

لكن ذلك ـ كما أشرنا ـ لا يعنى تدنى الخيرية مع مرور وتوالى الأجيال، لأن التأسيس والأساس لا يغنى عن كامل البناء، وخصوصًا إذا كان هذا البناء هو الإسلام، الممتدة ظلاله، والمنتشرة فروعه، لعالميته وختامه للرسالات ـ عبر الزمان والمكان.

ولهذه الحقيقة، وجب أن نضع مع حديث الخيرية هذا أحاديث من مثل قول رسول الله ﷺ: «نضّر الله امرءًا سمع منا حديثًا فحفظه حتى يبلغه، فرب مُبلَّغ أحفظ له من سامع» ـ رواه أبو داود، والترمذى، وابن ماجه، والدارمى، والإمام أحمد ـ . «ولن تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، ومنصورين، لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة» ـ رواه البخارى، ومسلم، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه، والإمام أحمد ـ . .

ثم، إن المنهاج النبوى لا يرى التقدم خطًا صاعدًا باستمرار، ولا هابطًا دائمًا وأبدًا، وإنما يراه دورات، فيها التقدم والتراجع، والنهوض والهبوط . . وعن هذا المنهاج تحدث رسول الله ﷺ عندما قال: «لا يلبث الجور بعدى إلا قليلاً حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شىء ذهب من العدل مثله، حتى يولد فى الجور من لا يعرف غيره. ثم يأتى الله تبارك وتعالى بالعدل،فكلما جاء من العدل شىء ذهب من الجور مثله، حتى يولد فى العدل من لا يعرف غيره» ـ رواه الإمام أحمد ـ . .

وهكذا . . فصحابة رسول الله ﷺ هم صفوة الذين رأوه وصحبوه، من الذين آمنوا بدعوته وأسلموا الوجه لله، ونهضوا بمهمة التأسيس للدين والدولة والأمة والحضارة ودار الإسلام، فى عصر البعثة، تحت قيادة الرسول عليه الصلاة والسلام . .

• **التمثيل الدرامى لأدوار الصحابة:**

أما الموقف الإسلامى من قضية التمثيل الدرامى لأدوار الصحابة، رضى الله عنهم، فى تاريخ الإسلام ودولته، فإنها من قضايا «المعاملات».. وليست من قضايا «العبادات».. وهى من قضايا «الفقه المعاصر»، التى ليس لها أحكام فى «فقه الفقهاء القدماء»..

والعبادات - فى مناهج النظر الإسلامية - «توقيفية»، تؤخذ من النص الوارد.. من البلاغ القرآنى، ومن البيان النبوى لهذا البلاغ القرآنى، وفيها «الاتباع» لا «الابتداع»، ومنها ما هو «تعبدى» لا يدرك العقل الإنسانى علله ولا الحكمة الإلهية من ورائه، وقد تكون الطاعة فيها هى لذات الطاعة التى تجسد عبودية العباد لمعبودهم، سبحانه وتعالى.. قد تكون هذه الطاعة - المعبرة عن الحب وعن الشكر - هى الحكمة العظمى من وراء هذه العبادات التعبدية.. ولذلك، فكل ما زاد عليها أو نقص منها أو غيّر فيها وبدّل فهو - بنص حديث رسول الله ﷺ «ردّ» و«ضلالة» و«فى النار».. «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ» - رواه البخارى ومسلم وأبو داود وابن ماجه والإمام أحمد -.. «.. فإن كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار» - رواه مسلم وابن ماجه وأبو داود والدارمى والإمام أحمد -..

وليست هكذا «المعاملات» فجميعها - حتى الوارد منها فى الوحى والسنة - مفهومة ومعقولة عللها وحكمها، ومن ثم فأحكامها دائرة مع عللها وجوداً وعدمًا.. «والفتاوى والأحكام تتغير وتختلف بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد» - فى هذه المعاملات - كما يقول الإمام ابن القيم [٦٩١ - ٧٥١هـ ١٢٩٢ - ١٣٥٠م] -[٦]..

وليس شىء من ذلك بوارد فى «العبادات»..

وإذا كانت العبادات لابد وأن يكون قد ورد بها الشرع - الكتاب والسنة - أى نزل بها الوحى أو نطق بها الرسول أو عملها أو أقرها.. فإن المعاملات - ومنها التمثيل الدرامى لأدوار الصحابة - يكفى فى إباحتها ومشروعيتها ألا تخالف ما جاء

به البلاغ القرآنى والبيان النبوى لهذا البلاغ القرآنى.. فأبواب الإبداع والتجديد والاستحداث فيها مشرعة وواسعة بقدر تغير الواقع المعيش وتجدد المصالح المشروعة للناس..

ولقد أفاض الإمام ابن القيم فى تقعيد وتأكيد هذه القاعدة من قواعد «السياسة الشرعية»، أى السياسات والتدابير المستجدة، التى تصبح شرعية وجزءًا من الشريعة وقسمًا من أقسامها - رغم أنها لم يرد بها الوحى ولا نطق بها الرسول - طالما أنها تحقق مصلحة، ولا تخالف ما ورد به الشرع.. أكد ابن القيم هذه الحقيقة عندما أورد المناظرة التى دارت بين أبى الوفاء على بن عقيل محمد بن عقيل البغدادى [٤٣١ - ٥١٣هـ ١٠٤٠ - ١١١٩م] - عالم العراق وشيخ الحنابلة فى عصره - وبين أحد فقهاء الشافعية.. وفيها..

- قال ابن عقيل: العمل بالسياسة هو الحزم، ولا يخلو منه إمام.

- فقال الفقيه الشافعى: لا سياسة إلا ما وافق الشرع.

- فقال ابن عقيل: السياسة ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يشرعه الرسول ولا نزل به وحى. فإن أردت بقولك: «لا سياسة إلا ما وافق الشرع»، أى لم يخالف ما نطق به الشرع، فصحيح، وإن أردت: ما نطق به الشرع، فغلط وتغليط للصحابة، فقد جرى من الخلفاء الراشدين ما كان رأيا اعتمدوا فيه على المصلحة».

وعلى رأى ابن عقيل هذا - الذى مثل ويمثل «قاعدة منهجية» فى فقه المعاملات والسياسات والتدابير الشرعية - علق ابن القيم - مؤيدًا ومؤكدًا - فقال: «إن الله أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذى قامت به السموات والأرض، فإذا ظهرت أمارات الحق، وقامت أدلة العدل، وأسفر صبحه بأى طريق كان فثم شرع الله ودينه ورضاه وأمره، والله تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلته وأماراته فى نوع واحد وأبطل غيره من الطرق.. بل بين بما شرعه من الطرق أن مقصوده: إقامة الحق والعدل وقيام الناس بالقسط، فأى طريق استخرج بها الحق ومعرفة العدل وجب الحكم بموجبها ومقتضاها، والطرق أسباب ووسائل لا تُراد لذواتها، وإنما المراد غاياتها، التى هى المقاصد، ولكن نبّه بما شرعه من الطرق على

أسبابها وأمثالها، ولن تجد طريقًا من الطرق المثبتة للحق إلا وهى شِرْعَة وسبيل للدلالة عليها.. وهذا الأصل من أهم الأصول وأنفعها..»[٧].

وانطلاقا من هذا «الأصل» وهذه «القاعدة المنهجية» نسأل:

ـ ما المقصد الشرعى المطلوب تحقيقه فى التعامل مع صحابة رسول الله ﷺ؟

وجوابنا: إن هذا المقصد الشرعى فى التعامل مع الصحابة ـ سواء أكان هذا التعامل تمثيلاً فنيًا لحياتهم أو كتابة أدبية وفنية لسيرهم أو تدوينًا تاريخيًا لإنجازاتهم وأفعالهم ـ هو المحافظة على الحقيقة التى عبرت عنها الصورة القرآنية لهذا الجيل الفريد والمؤسس لهذه النعمة العظمى التى نعيش فى كنفها وعزها وظلالها، نعمة الإسلام ودولة الإسلام وحضارة الإسلام.. هذه الصورة القرآنية التى تحدثت عن هؤلاء الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه، والذين نصروا رسول الله ﷺ وعزروه ـ أى نصروه مع التعظيم له ـ ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٧].. صورة الحواريين العدول، الذين صنعهم الرسول على عينه، وصاغهم صياغة إسلامية فريدة، حتى غيّروا ـ مع قلتهم وقلة إمكاناتهم المادية ـ وجه الدنيا ومجرى التاريخ «والخط البيانى» للتطور فى هذه الحياة، وغرسوا الغراس الذى تتفيأ الدنيا ظلالها ـ وستظل ـ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها..

صورة الكوكبة الذين نترضى الله عنهم، ونصلى ونسلم عليهم كلما شرف قلم بخط أسمائهم أو نطق لسان بهذه الأسماء..

وهذه الصورة لا يؤثر فى «مثالها.. ومثاليتها»، ولا يجرح «عدالتها» ما حدث بين هؤلاء الصحابة من اختلاف فى السياسة ـ التى هى من الفروع، وليست من الأصول، ولا من أمهات الاعتقاد أو الشعائر والعبادات ـ فاختلافاتهم فى هذه الفروع هى جزء من القيام بفريضة إسلامية هى الاجتهاد.. لقد اجتهدوا فى

«التأويل» لا «التنزيل»، وهذا هو الطبيعى والمتسق مع تعدد الرؤى ومناهج النظر فى الفروع والجزئيات ومتغيرات الواقع المعيش.

ولعل تبيان هذه الحقيقة، وجلاءها، والتأكيد عليها أن يكون ضروريا لتحقيق الاتساق بين الصورة القرآنية والنبوية للصحابة وبين وقائع تاريخ الاختلافات التى حدثت بينهم فى أمر الخلافة وحول تدابير الدولة وسياساتها.. وهى القضية التى يخشى البعض الاقتراب منها، ويجمح البعض فى التفسيرات والتصورات الجائرة والمغلوطة لأحداثها ومقاصدها، حتى غدت هذه القضية خلفية للحذر والرفض لتناول سيرة الصحابة ووقائع تاريخهم، سواء بالكتابة أو التمثيل..

لقد أجاد الإمام على بن أبى طالب، كرم الله وجهه ـ وهو طرف أصيل وقائد فى أحداث واختلافات ما سماه البعض بـ«الفتنة الكبرى» ـ أجاد التعبير الدقيق عن طبيعة هذه الاختلافات والاجتهادات، حتى عندما أفضت إلى الاقتتال، وبلغت ذروة هذا الاقتتال فى موقعة «صفين» [٣٧هـ ٦٥٧م] فقال، عندما سئل عن رأيه فى معاوية بن أبى سفيان [٢٠ق هـ ٦٠٣ ـ ٦٨٠م] ومن معه من أهل الشام: «لقد التقينا، وربنا واحد، ونبينا واحد، ودعوتنا فى الإسلام واحدة، ولا نستزيدهم فى الإيمان بالله والتصديق برسوله ولا يستزيدوننا، والأمر واحد، إلا ما اختلفنا فيه من دم عثمان، ونحن منه براء.. إننا ـ والله ـ ما قاتلنا أهل الشام على ما توهم هؤلاء ـ [الخوارج] ـ من التكفير والافتراق فى الدين، وما قاتلناهم إلا لنردهم إلى الجماعة، وإنهم لإخواننا فى الدين، قبلتنا واحدة، ورأينا أننا على الحق دونهم، وإنى أرجو ألا يُقتل أحدٌ نقى قلبه، منا ومنهم، إلا أدخله الله الجنة»(٨).

ومعنى هذا أن اختلافات واجتهادات الصحابة، رضى الله عنهم أجمعين، لم تكن فى الدين، ولا حول التنزيل، ولا فى أصول الاعتقاد، ولا فى أركان الإسلام.. وإنما كانت اجتهادات فى الفروع السياسية، ولذلك فإنها لا تقدح فى عدالة جميع الصحابة، ولا فى مثالية الصورة التى حدثنا عنها القرآن الكريم وسنة رسول الله ﷺ.. ولذلك يجب أن تظل الصورة القرآنية والنبوية لصحابة رسول الله ﷺ هى المقصد الشرعى والمصلحة الشرعية المعتبرة عند تناول سير وتواريخ الصحابة، كتابة تاريخية كان هذا التناول أو تمثيلا فنيا.. فهم أسوة وقدوة

ولابد من المحافظة على صورة ونموذج الأسوة والقـدوة فيهم ولهم وبهم فى كل ما يتناولهم من تأريخ أو قصص أو تمثيل.

* * *

وانطلاقًا من هذا التصور لهذه القضية، التى هى من المعاملات وتدابير السياسة الشرعـية، وليست من العبـادات الوارد فيها نصـوص شرعية بالحل أو الحـرمة.. والتى هى من مسـتحدثات العصر، التى لم يسبق فيـها اجتهاد لفقهـائنا القدماء.. انطلاقًا من جميع ذلك، يصبح معيار الحكم الشرعى فى هذه القضية ـ قضية تمثيل أدوار الصحـابة فى الأعمـال الفنية والدراميـة ـ فى السينمـا والمسرح ـ هو المعـيار الحاكم لكل الأحكام المستجدة فى مـعاملات وتدابير السياسة الشرعـية.. معيار الموازنة بين المصالح والمفاسد فى هذه الأعمال ـ التمثيل لأدوار الصحابة ـ..

فتمثيل أدوار الصحابة فى الأعمال الدرامية الفنية يدخل فى دائرة الإباحة، وربما الندب والاستحباب إذا أمكن مـعه الحفـاظ على الصورة المثـالية التى رسمـها لهم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.. ويدخل فى دائرة الكراهة أو الحرمة إذا أضر التمـثيل بهذا المثـال الذى ظل ويجب أن يظل واحداً من الطاقـات الدافعة لأجـيال هذه الأمة على درب المكارم والمناقب وتحقيق المقاصد الإسلامية العظمى فى هذه الحياة.

إن الأمم الراشدة لا تستطيع أن تعـيش بدون تاريخ، وبدون نماذج هادية ودافعة إلى جـلائل الأعمـال ومعـالى الغايات ومكارم الأخـلاق.. والأمم التى لا تملك أرصدة فـى هذه الميادين، تختـرع وتزيف لأجـيالهـا التواريخ والنمـاذج والمثل من الأبطال والزعمـاء.. وإذا كان الله، سبحانه وتـعالى، قد حبى أمـة الإسلام بهذا الرصيـد الضخم والعظيم من هذا الجـيل الفريد والمؤسس ـ جيل الصـحابة ـ فإن الحفاظ ـ فى ثقـافتنا التاريخية والفنيـة ـ على صورته المثالية وقدوته الدافـعة وأسوته الحسنة هو المقصد الشـرعى الدائم، والمعيـار الذى يجب أن يحكم أحكام الحلّ أو الحرمة فى التناول الدرامى والفنى لسيرة وتاريخ هؤلاء الصحابة الكرام..

* * *

والآن نسأل:

- هل من الممكن أن تحافظ الأعمال الدرامية، التى تمثل أدوار الصحابة، على هذا المقصد الشرعى والحضارى فتظل لهم - فى هذه الأعمال الدرامية - الصورة المثالية التى جاءت فى مناقبهم وفى كتب الطبقات التى تحدثت عن سيرة حياتهم والإنجازات التى صنعوها فى مراحل التأسيس لدعوة الإسلام ودولة الإسلام وحضارته؟؟..

إن البعض يسلك للإجابة عن هذا السؤال طريق «سد الذرائع» ، فيغلق الباب كلية أمام تمثيل أدوار الصحابة فى الأعمال الفنية والدرامية.. وذلك خوفًا على الصورة المثالية ونموذج القدوة والأسوة من التشويه والامتهان والابتذال..

وإذا كان «سد الذرائع» قاعدة من قواعد الفقه الإسلامى، فإنها، ككل القواعد، لابد أن تطبق وفق المعايير الدقيقة، التى لا تؤدى بتطبيقاتها إلى غلو الإفراط أو غلو التفريط.. فالمباحات - ومنها تمثيل أدوار الصحابة فى الأعمال الدرامية - تبقى على حكم الإباحة إلا إذا تحققت المفسدة أو كثرت أو غلبت - بتشويه مثال الأسوة والقدوة فى سيرة الصحابة وحياتهم - ومن هنا فلا يصح إغلاق هذا الباب بإطلاق وتعميم، بحجة التطبيق لقاعدة «سد الذرائع»، إذ لابد - فقهيًا - من مراعاة شروط «سد الذريعة».. وهى:

١ - أن يكون إفضاء الوسيلة المباحة إلى المفسدة غالبًا، لا نادرًا.. وعند الإمام الشاطبى [٧٩٠ هـ ١٣٨٨م]. - وهو مؤسس علم المقاصد الشرعية - أن يكون كثيرًا، لا نادرًا ولا غالبًا.

٢ - أن تكون مفسدتها أرجح من مصلحتها، وليس مجرد مفسدة مرجوحة.. فحتى مع وجود مفسدة فى تمثيل أدوار الصحابة فى الأعمال الدرامية، لابد من رصد ما فى هذا التمثيل من المصلحة والموازنة بين المفسدة والمصلحة فيه. وبناء الحكم بعد معرفة أيهما أرجح: المفسدة أم المصلحة؟.

٣ - ألا يكون المنع - بعد توفر الشرطين السابقين - تحريمًا قاطعًا، بل هو دائر بين الكراهة والتحريم حسب درجة المفسدة..

٤ ـ إذا كانت الوسيلة تفضى إلى مفسدة، ولكن مصلحتها أرجح من مفسدتها، فالشريعة لا تبيحها فحسب بل قد تستحبها أو توجبها حسب درجة المصلحة..»[٩].

فالمنع والتحريم لا يصح بإطلاق وتعميم، كما أن الإباحة لا تصح بإطلاق وتعميم..

وإذا كان «مجمع البحوث الإسلامية» بالأزهر الشريف ـ قد رجح منع تمثيل أدوار كبار الصحابة ـ العشرة: أبى بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب، وأبى عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعيد بن زيد ابن عمرو بن نفيل ـ ومعهم الصحابة من آل البيت.. وأباح ـ المجمع ـ تمثيل أدوار من عداهم من الصحابة، بحجة الحفاظ على صورة ومثال كبار الصحابة، وإفساح المجال أمام التمثيل لتقديم حياة الصفوف الثانية والثالثة من الصحابة.. فإن لنا على هذا الرأى ملاحظات منها:

١ ـ أن العشرة ـ الذين لا خلاف على تقديمهم وتعظيمهم ـ هم «الهيئة الدستورية» التى سميت بـ «المهاجرين الأولين»، أى الذين جمعوا إلى الهجرة السبق إلى الإسلام، وأيضًا الوضع القيادى فى بطون قريش.. ومن هذه الزاوية فإن هناك اثنى عشر من الأنصار، كونوا منذ بيعة العقبة ـ هيئة «النقباء الاثنى عشر»، وكانت سلطة الدولة ـ منذ تأسيس الخلافة، عقب وفاة الرسول ﷺ موزعة بين هاتين المؤسستين الدستوريتين، وذلك وفقا للصيغة التى عرضها أبو بكر الصديق، فى سقيفة بنى ساعدة، والتى تراضى وتوافق عليها الصحابة.. صيغة: «منا ـ [المهاجرون الأولون] ـ الأمراء.. ومنكم ـ [النقباء الاثنا عشر] ـ الوزراء..».

فإذا منعنا تمثيل أدوار «الأمراء» ـ وهم السابقون من المهاجرين ـ فلابد وأن نمنع تمثيل أدوار «الوزراء» ـ وهم السابقون من الأنصار ـ. فلقد ربط القرآن الكريم بينهم جميعًا عندما قال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠] بل لقد ألحقت الآية بهؤلاء السابقين ـ من

المهاجرين والأنصار ـ الذين اتبعوهم بإحسان. .

٢ ـ أننا إذا اعتمدنا معيار المصلحة سببًا لإباحة التمثيل، ومعيار المفسدة سببًا لكراهته أو حرمته، فلربما كان فى تمثيل أدوار كبار الصحابة ـ إذا حافظ التمثيل على صورتهم المثالية ـ مصلحة أكبر وفائدة أكثر وقدوة أفعل من تمثيل أدوار الصحابة الذين هم أدنى مرتبة فى المناقب والبلاء والجهاد فى سبيل تأسيس الدعوة الإسلامية والدولة الإسلامية. .

٣ ـ ثم إن هذا «التمييز» بين الصحابة، المؤسَّس على غير معيار المصلحة المبتغاة والمتحققة من وراء تمثيل أدوارهم التاريخية، قد يحمل شبهة التمييز بين كبار وصغار، وأصحاب أدوار كبرى وأصحاب أدوار ثانوية، وربما بين أغنياء وفقراء، وحكام ومحكومين. . أو عرب وموالى. . وقرشيين وغير قرشيين. . إلخ. . إلخ. . وكلها معايير مرفوضة من كل الذين تحكم علمهم واجتهاداتهم معايير الإسلام ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] «أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربى على أعجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى. . » ـ رواه الإمام أحمد ـ.

لذلك، كان الرأى الذى نميل إليه، ونرشحه كى يدور حوله الحوار هو:

إبقاء التمثيل الفنى لأدوار الصحابة ـ كل الصحابة ـ على أصله فى الحلّ والإباحة.. وجعل المصلحة الشرعية المعتبرة ـ فى الحفاظ على صورتهم ومثالهم وقدوتهم وأسوتهم لدى أجيال الأمة المتعاقبة ـ هى المعيار فى الأحكام الفقهية لهذا التمثيل.. إباحة أو استحبابًا.. أو كراهة أو تحريمًا.. مع التطبيق المتوازن لقاعدة «سد الذرائع» فى الموازنة بين المصالح والمفاسد، إذا اجتمع قدر منهما فى هذا التمثيل..

* * *

وهنا. . يرد اقتراح نرى فى تنفيذه ضمانًا يرجح أن يكون التمثيل لدور الصحابة فى الأعمال الدرامية محققًا للمصلحة الخالصة والمؤكدة، أو الراجحة والغالبة، وسادًا للذرائع المفضية إلى المفاسد الواردة من وراء هذا التمثيل. . وهذا الاقتراح هو:

أن تتأسس «مؤسسة فنية» تتخصص لهذا الغرض، وتتكون في إطارها جماعة من المشتغلين بكتابة النصوص الدرامية، ومن الممثلين والممثلات لهذه الأدوار دون غيرها، من الذين تتوافر فيهم الشروط والصفات ـ الخلقية والفنية ـ التي تجعل أداءهم لهذه الأدوار محققًا لأقصى ما هو ممكن من القدوة والأسوة من وراء تمثيل هذه الأدوار.. وأن تظل هذه الشخصيات الفنية مصانة ـ في ذهن المشاهدين ـ عن تمثيل الشخصيات الأخرى، فضلاً عن الأدوار غير المناسبة ـ وأن يتم كل ذلك تحت إشراف ومراجعة وتحكيم أكبر هيئات العلم الإسلامي، التي تجمع بين المصداقية والتفتح الذي يهيؤها لبحث وقبول هذا الاقتراح ـ مثل «مجمع البحوث الإسلامية» ـ بالأزهر الشريف ـ وإذا أمكن أن يشترك معه في هذا الإشراف «المجمع الفقهي» ـ التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي، كان ذلك أفضل وأفعل ـ فتقوم على مهمة التمثيل الفني لأدوار الصحابة مؤسسة فنية متخصصة في هذا المجال وحده.. وتحت الإشراف الفكري والفقهي لأكثر مؤسسات العلم الإسلامي مكانة ومصداقية.. وبذلك نفتح الباب لعطاء فني كبير، وثمرات قيمية وأخلاقية كثيرة، مع الحفاظ على الصورة القرآنية والنبوية لصحابة رسول الله ﷺ ورضي عنهم أجمعين..

* * *

لقد أصبحت الصورة الفنية المرئية في عصرنا أخطر وأفعل وسائل التثقيف والإعلام، ونجحت ديانات أخرى في استخدام فنون الصورة لترويج الباطل والزيف.. فهل نفتح نحن الباب لاستخدام أمضى أسلحة العصر الثقافية سبيلاً لعرض مُثُل الحق والخير والعدل، التي تجسدها سيرة صحابة رسول الله ﷺ؟

إن الأمية الأبجدية في الأمة الإسلامية يصل متوسطها إلى ما فوق ٧٠٪.. والشريحة التي انعتقت من الأمية الأبجدية انصرف معظمها عن ثقافة القراءة للكتاب إلى ثقافة الصورة.. فأصبحت أمة [اقرأ] لا تقرأ!!.. فهل ننجح في الدخول إلى الناس ـ بجماهيرهم العريضة ـ من باب الفنون البصرية، وفي مقدمتها الأعمال الدرامية، فنحقق مقاصد الآية الكريمة: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف:٦٧]..؟؟..

إن سيرة صحابة رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم، إنما تمثل مدرسة عظمى

لتطبيقات السنن الإلهية، التي لا تبديل لها ولا تحويل.. سنن الابتلاء.. والجهاد.. والصبر.. والنصر.. والتقدم..والنهوض.. فهل ننجح في إعادة مدرسة السنن الإلهية لتفعل فعلها في حياة أمتنا من جديد، لنخاطب العقول والقلوب بلسان «الجهاد الفني» في عصر تواجه فيه أمتنا أشرس المخاطر والتحديات؟؟..

إنه أمل ورجاء.. وما ذلك على الله بعزيز..

* * *

بقيت مسألة، ربما وردت على ذهن قارئ هذه الصفحات.. وهي التساؤل:

- هل يمكن أن نفتح الباب - وفق هذه المعايير والشروط - لتمثيل شخصيات وأدوار الرسل والأنبياء، عليهم الصلاة والسلام؟

لقد أخرجت السينما الغربية أفلاما متميزة عن المسيح وعن موسى، عليهما السلام.. وفي بعض هذه الأفلام تخصص الفنان الذي مثل دور المسيح في هذا الدور وحده، ثم اعتزل التمثيل بعد ذلك حتى لا يرتبط في ذهن المشاهد بأي دور آخر غير دور المسيح.. فهل من الوارد إباحة تمثيل أدوار الأنبياء والرسل، من وجهة النظر الإسلامية، وبهذه الشروط التي تتغيا الحفاظ على نموذج الأسوة والقدوة في قصص الأنبياء والمرسلين؟..

وفي الإجابة على هذا التساؤل، نقطع بالنفي والرفض المطلق والأكيد..

ذلك أن فارقا جوهريا بين الصحابة وبين الرسل والأنبياء.. فبشرية الصحابة خالصة لم تتلبس بشيء مما هو معجز، ومفارق للواقع والعادات المعتادة.. والبشرية الخالصة - مهما بلغت في العظمة والسمو - ممكنة المحاكاة والتمثيل والتجسيد.. أما الأنبياء والرسل - مع أنهم بشر، يلح القرآن على تأكيد بشريتهم - فإن الوحي إليهم، وظهور المعجز على أيديهم، قد جعل لهم أدوارا وأحوالا ومقامات اجتمع فيها الإلهي مع البشري، وامتزج فيها الواقعي مع المعجز المفارق للواقع.. ولما كان الإلهي، وأيضا الإعجاز والمعجز المفارق للواقع وللمعتاد، مستحيلا وعصيا على المحاكاة البشرية والتمثيل الإنساني، فإن تمثيل أدوار الرسل والأنبياء مستحيل، ومن ثم ممنوع..

إن الله، سبحانه وتعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].. وهو، سبحانه،

يضرب الأمثال، لكن يستحيل علينا ـ نحن البشر ـ أن نضرب له الأمثال ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾ [النحل: ٧٤]. .

والقرآن الكريم ـ مع أنه كلام عربي ـ هو إعجاز ومعجز، ولذلك استحال ويستحيل أن يكون له مثيل وتمثيل ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴿٢٣﴾ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤]. .

وإذا كانت تجربة «مسيلمة الكذاب» [١٢هـ ٦٣٣م] مع محاولة تمثيل القرآن ومحاكاته قد ذهبت مثلاً على الهزل المضحك والضحك الهزلي. . . إن تمثيل الرسل والأنبياء ـ وهم الذين امتزج المعجز والإعجاز ببشريتهم في كثير من مواقفهم وأدوارهم وأحوالهم ـ قد يقودنا إلى ما هو أخطر وأكثر ضرراً. .

لقد كان الصحابة، رضوان الله عليهم، أمام تصرفات الرسول ﷺ وقراراته، يتحسسون طريقهم إلى معرفة طبيعة الموقف والتصرف والقرار. .

هل خالط فيه الإلهي والمعجز البشري والبشرية، فيكون السمع والطاعة، دون إعمال فكر أو قياس أو بحث عن الحكم والعلل والأسباب والمقاصد والغايات؟ . .

أم أن البشرية الخالصة هي التي تحكم هذا الاجتهاد في التصرف والقرار؟ . .

ولذلك، كانوا يسألون هذا السؤال، الذي شاع في كتب السنة والسيرة.

ـ يا رسول الله، أهو الوحي؟ أم الرأي والشورى والتدبير؟ . .

وبناء على إجابته ﷺ يكون موقفهم وتصرفهم. .

أما نحن، فلسنا في موقعهم ولا في موقفهم. . لذلك، كان «سد الذريعة» هنا موقفا واجب الالتزام بإطلاق وتعميم. .

* * *

تلك رؤية ـ لقضية تمثيل أدوار الصحابة في الأعمال الفنية ـ أحسب أن فيها من الأفكار ما تصلح مادة لحوار علمي، أرجو أن يقودنا إلى اجتهاد إسلامي معاصر، في هذه القضية المثارة ـ بجدية وإلحاح ـ على امتداد بقاع العالم الإسلامي. .

والله من وراء القصد.. نسأله العون والسداد والتوفيق.. إنه، سبحانه وتعالى، خير مسئول وأكرم مجيب.. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

● **الهوامش**

(١) مجمع اللغة العربية [المعجم الفلسفى] طبعة القاهرة سنة ١٣٩٩هـ سنة ١٩٧٩م.

(٢) [الموسوعة الفلسفية] ـ السوفيتية ـ بإشراف: م. روزنتال، ب. يودين. ترجمة: سمير كرم. طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م ـ مادة «الجمالى الأخلاقى» ـ.

(٣) وهم: أبو بكر الصديق [٥١ ق. هـ ـ ١٣هـ ٥٧٣ ـ ٦٣٤م] وعمر بن الخطاب [٤٠ق. هـ ٢٣ هـ ٥٨٤ ـ ٦٤٤م] وعثمان بن عفان [٤٧ق. هـ ـ ٣٥ هـ ٥٧٧ ـ ٦٥٦م] وعلى بن أبى طالب [٢٣ ق. هـ ـ ٤٠هـ ٦٠٠ ـ ٦٧٥م] وأبو عبيدة بن الجراح [٤٠ق. هـ ـ ١٨هـ ٥٨٤ ـ ٦٣٩م] وعبد الرحمن بن عوف [٤٤ق. هـ ـ ٣٢هـ ٥٨٠ ـ ٦٥٢م] وسعد بن أبى وقاص [٢٣ ق. هـ ـ ٥٥هـ ٦٠٠ ـ ٦٧٥م] والزبير بن العوام [٢٨ ق. هـ ـ ٣٦هـ ٥٩٦ ـ ٦٥٦م] وطلحة ابن عبيد الله [٢٨ ق. هـ ـ ٣٦هـ ٥٩٦ ـ ٦٥٦م] وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل [٢٢ ق. هـ ـ ٥١ هـ ٦٠٠ ـ ٦٦١م].

(٤) وهم: أبو امامة أسعد بن زرارة بن عدس [١هـ ٦٢٢م]، وسعد بن الربيع [٣هـ ٦٢٥م]، وعبد الله بن رواحة [٨هـ ٦٢٩م]، ورافع بن مالك بن العجلان. والبراء بن معرور [١هـ ٦٣٢م]، وعبد الله بن عمرو بن حرام [٣هـ ٦٢٥م]، وسعد بن عبادة [١٤هـ ٦٣٥م]، والمنذر بن عمرو بن خُنيس [٤هـ ٦٢٥م]، وعبادة بن الصامت [٣٨ق. هـ ـ ٣٤هـ ٥٨٦ ـ ٦٥٤م]، وأسيد ابن حضير [٢٠هـ ٦٤١م]، وسعد بن خيثمة بن الحارث [٢هـ ٦٢٤م]، ورفاعة بن عبد المنذر.

(٥) [أسد الغابة فى معرفة الصحابة] جـ١ ص٦ طبعة القاهرة ـ دار الشعب ـ سنة ١٩٧٠م.

(٦) [إعلام الموقعين] جـ٣ ص٣. طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.

(٧) المصدر السابق. جـ٤ ص٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٥. و[الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية] ص١٧ـ١٩، ٥. تحقيق: د. محمد جميل غازى. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧م.

(٨) ابن أبى الحديد [شرح نهج البلاغة] جـ١٧ ص١٤١. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩م. والباقلانى [التمهيد فى الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة] ص٢٣٧، ٢٣٨. تحقيق: محمود الخضيرى، د. محمد عبد الهادى أبو ريدة. طبعة القاهرة سنة ١٩٤٧م والإمام على بن أبى طالب [نهج البلاغة] ص١٤٧، ١٤٨ طبعة دار الشعب. القاهرة.

(٩) عبد الحليم أبو شقة [تحرير المرأة فى عصر الرسالة] جـ٣ ص ١٩٠ طبعة القاهرة سنة ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

روح الحضارة الإسلامية

لقد كانت الصناعة الثقيلة التى بدأت الدعوة الإسلامية فأقامتها، منذ المرحلة المكية، هى صناعة الصياغة الإسلامية للإنسان الذى تدين بدين الإسلام..

وكانت «دار الأرقم بن أبى الأرقم» ـ فى مرحلة سرية الدعوة الإسلامية ـ أى منذ فجر تلك الدعوة ـ هى أولى المؤسسات التربوية التى أقامها رسول الإسلام، عليه الصلاة والسلام..

وقبل فتح المسلمين للمدائن والأمصار والأقطار، وقبل إقامة الدولة.. وتغيير الواقع.. وتطبيق القانون.. وبلورة العلاقات الدولية.. كان الفتح الإسلامى للقلوب والعقول بهدى القرآن الكريم، ذلك الذى أصبح خلق سلوك وممارسات، وسجية للحياة التى يحياها المسلمون.. بل إن أولى المدن التى فتحها المسلمون ـ قبل الهجرة النبوية.. وقبل الدولة الإسلامية ـ وهى المدينة المنورة ـ قد فتحها المسلمون بالقرآن الكريم!..

وبعد إنجاز الصياغة الإسلامية ـ بالتربية ـ للإنسان.. جاءت كل الإنجازات والفتوحات، وفى ميادين الحضارة وعلومها والثقافة وآدابها وفنونها.. فكانت تجسيداً لهذا الذى سبق وتم إنجازه فى نفس الإنسان، جاءت جميعها مصاغة بمعايير الإسلام، التى سبق وصاغت نفوس وعقول وقلوب الذين اهتدوا بهدى الإسلام.

● إن الدعوة الدينية ـ فى الإسلام ـ لم تقف عند حدود تدين الإنسان، وتحقيق عبوديته لله بالشعائر المعبرة عن الإيمان القلبى، والمفصحة عن علاقته بالسماء.. وإنما امتدت هذه الدعوة لتحقق ائتلاف هذا الإنسان بالأمة، والمجتمع، والكون، فتوحدت فى نفس هذا الإنسان عوالم الغيب والشهادة، وائتلفت فيها وتوازنت علاقات الفرد بالمجموع، والخاص بالعام، فتدينت الدنيا، مع بقائها دنيا، عندما

صاغ الإسلام نفس الإنسان المسلم ووجدانه وعقله تلك الصياغة التى ائتلفت فيها وتوازنت آيات الله فى الوحى السماوى بآياته فى الأنفس والآفاق..

● إن دين الإسلام لا يقوم ولا يقام بالتبتل الفردى والخلاص الذاتى، وإنما لا بد لإقامته وتحقيق كامل فرائضه من أمة ووطن واجتماع ومجتمع، وفروض اجتماعية، يتوجه الخطاب فيها والتكليف بها للأمة، وهذه الفروض الاجتماعية أهم وآكد من الفروض الفردية، بدليل أن إثم التخلف عن الفريضة الفردية يقع على الفرد وحده، بينما إثم التخلف عن الفريضة الاجتماعية يقع على الأمة جمعاء.

● وفى دين الإسلام، اقترنت الهجرة فى سبيل الله بتأسيس الدولة، وإقامة المجتمع، وتطبيق القانون، وإقامة نسيج اجتماعى بين الرعية يحقق المؤاخاة، لا فى الحقوق الدينية المجردة فقط، وإنما فى أمور المعاش الدنيوية أيضًا.. بل لقد امتد هذا النسيج بمعايير المواطنة، وحق الاختلاف حتى فى الدين، إلى حيث ضم هذا النسيج غير المسلمين مع المسلمين.

فالهجرة إلى الله ليست رهبانية، تخلص فيها وبها الذات، بمعزل عن الحياة والناس.. بل إن رهبانية الأمة الإسلامية هى الجهاد، الذى هو فريضة اجتماعية تستلزم وجود الأمة والوطن والاجتماع.

● لقد أحدثت الدعوة الدينية الإسلامية أثرًا تكوينيًا تربويًا فى شخصية الفرد المسلم، أصبح عاملاً نفسانيًا، حقق ائتلاف العناصر الفردية فى المجتمع الإسلامى، الطبيعى منها والشرعى، المدنى منها والدينى، العقلى منها والنقلى، المادى منها والمجرد.. فكان ذلك الائتلاف حضارة إسلامية، أبدعها الإنسان الذى صاغته الدعوة الإسلامية.. وتلك خصيصة من خصائص الدين الإسلامى والحضارة الإسلامية.. فالرسالات الدينية التى سبقت رسالة الإسلام الخاتمة، إما أنها تزامنت مع حضارات غير متدينة، فتعايشت معها، دون أن تغيرها وتصبغها بصبغتها؛ بسبب وقوف تلك الرسالات عند حدود خالص الدين.. وإما أن تلك الحضارات السابقة على الحضارة الإسلامية قد عاشت فى أزمنة الفترة التى خلت من رسالات الدين..

بينما تميز الإسلام بكونه دينًا فجّر حضارة، وصاغ مدنية، وأثمر اجتماعًا إنسانيًا، وألّف فى نفس الإنسان ـ بالمنهاج التربوى الشامل ـ ذلك الائتلاف المتوازن، الذى جعل هذا الإنسان يبدع الحضارة المصطبغة بصبغة الدين.. لقد حقق الدين الإسلامى الائتلاف والتوازن والأمن فى نفس الإنسان المسلم، فجاء الإبداع المدنى لهذا الإنسان ـ أى الحضارة الإسلامية ـ ثمرة مجسدة لهذا الذى أحدثه الدين فى نفس هذا الإنسان.. فلما حدث وبعدت هذه الحضارة وثقافتها عن هذه الصبغة كان هذا الخلل الذى نشكوا منه، والذى حدث منذ قرون، والذى تطبّ لدائه كل دعوات وحركات الإصلاح فى أمة الإسلام..

● ومن دعوات الإصلاح، من سلك طريق الفردية المطلقة، الباحثة عن خلاص الذات الفردية، وتنكب طريق المجتمع والحضارة ـ كالصوفية المغالية فى التحلل من الضوابط والمعايير الاجتماعية للشريعة ـ.. ومن المصلحين من أرجع الداء إلى الفكر ـ كحجة الإسلام الغزالى [٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م] ـ ومنهم من ركز على تنقية العقيدة مما شابها وطرأ عليها ـ كشيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ ـ ٧٢٨هـ ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨م] ـ ومنهم من عالج جانب الشريعة، بإبراز مقاصدها ـ كالشاطبى [٧٩٠هـ ١٣٨٨م] ـ ومنهم من ركز على الجانب السياسى فى عوامل الخلل ـ كجمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٦٧م] ـ ومنهم من لفت الأنظار إلى إصلاح مناهج الفكر والتجديد ـ كالإمام محمد عبده [١٢٦٥ ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] ـ..

● ثم كان العصر الحاضر ـ عصر الأخذ عن الغرب ـ والذى شهد ثمرات واضحة لكل دعوات الإصلاح السابقة ـ.. ومع ذلك بقى الخلل.. وبقيت الأمة تبحث عن مفتاح الإصلاح، وطريق الخلاص والنهوض..

● وإذا كان الإسلام هو سبب تقدم المسلمين، ونهوضهم الحضارى، وازدهارهم الثقافى.. فما سبب التخلف الذى أصاب المسلمين، مع بقاء الإسلام كما هو، على حاله الذى كان عليه عندما فجر ينابيع التقدم فى الحياة الإسلامية؟..

إن السبب هو غيبة «الروح» ـ روح الدين الإسلامى ـ عن الحضارة ـ الحضارة

الإسلامية ـ . . هو انقطاع الاتصال بين الإسلام وحضارة المسلمين . . هذه الروح التى جعلت الحضارة إسلامية، بل والتى فجرتها وصبغتها بصبغة الإسلام . .

لقد جلس الحسن البصرى، [٢١ ـ ١١٠هـ ٦٤٢ ـ ٧٢٨م] إلى واعظ من الوعاظ، فلم يتأثر قلبه بموعظته، فسأل الحسنُ الواعظَ: «يا أخى، أبقلبك مرض أم بقلبى»؟!. . إن انقطاع الاتصال، لغيبة الروح، هو سبب المرض والمأزق الحضارى، الذى تطب له وتبحث عن علاجه مختلف مدارس الإصلاح . .

فما هذه الروح التى جعلت الإسلام، دون الديانات الأخرى، يصنع حضارة وثقافة، ولا يقف عند مجرد الدين؟. .

وأين موطن الخلل الذى عطل الفعل الإسلامى فى الحضارة والثقافة . . فتراجعت الحضارة الإسلامية، وضمرت الثقافة الإسلامية، مع بقاء الإسلام الدين كما هو، وبقاء الإيمان به والاستمساك بعراه؟. .

لقد عرض الشيخ محمد الفاضل بن عاشور لهذه القضية المحورية عندما تحدث عن:

١ ـ تميز الإسلام الدين بإفراز الحضارة، وبناء الثقافة.. «فإذا كان الإسلام، باعتباره دينًا، يشترك مع غيره من الأديان فى القضايا التى هى موضوع الديانات عامة، فإن للإسلام نواحى ينفرد بها عن تلك الديانات، التى اشترك معها فى القضايا الدينية بصفة عامة، إذ تكون له جهات اتصال بالثقافات والحضارات ليست لغيره من الأديان الأخرى . . فهذه التى نسميها الحضارة الإسلامية، أو تلك التى نسميها الثقافة الإسلامية، إنما هى سلاسل من الأحداث والأوضاع والكيفيات الاجتماعية والذهنية، كان الإسلام مبدأ نشأتها وسبب تكوينها . . فلم يقف الإسلام عند التعايش مع العلم . . وإنما أصبح كل موضوع علمى ذا صلة بالعقيدة الدينية . . وصار الارتباط بين الدين والمعرفة العقلية، أو بين علم الطبيعة وعلم ما وراءها ارتباط التفاعل والتمازج . . ونشأ من ذلك اتجاه نحو الحياة والسلوك فيها، يدفع به العامل الدينى الاعتقادى فى كل وجه من وجوهه، وسبيل من سبله . . فصار الداعى الدينى يتجلى فيما يصنع العالم، وما ينتج الأديب، وما يصوغ صاحب الفن . . وصارت المعرفة العلمية سندًا لكلام المتكلم، وفقه الفقيه،

وتصوف الصوفى، على الصورة التى ربطت عناصر المعرفة، وأخرجت كتب العقيدة الإسلامية جامعة للمعارف الطبيعية والرياضية والإنسانية، مع الحقائق الاعتقادية، يتجانس فيها العلم مع الدين، ويتساند العقلى والنقلى.. لقد تكوّن المجتمع الإسلامى بإثر دعوة دينية.. إنه مجتمع دينى بالمعنى الأخص، كان الدين فيه العامل الأول المباشر.. ومن دعوة الدين، والإيمان بها، اكتسب الشعب، الذى استجاب لتلك الدعوة وامتاز بذلك الإيمان، خلالاً نفسية جديدة.. لم يستفد علماً ولا صناعة ولا قوة مادية، ولكن الذى اكتسبه من الخلال طوّع العلم والصناعة والقوة المادية، فكانت المدارك الدينية وحدها هى التى فتحت أمام نظر المسلم آفاق الكون للتأمل والاعتبار، والمعرفة والإيمان..

فالحقيقة الاعتقادية الإلهية، هى الأساس لكل ما بنت الحضارة الإسلامية من هياكل حسية ومعنوية.. وإنسان هذه الحضارة: بالدين فكّر.. وبالدين تحضّر.. وبالدين أنتج آثار حضارته.. وبالدين أقام الدولة الصائنة للمجتمع وحضارته.. وكذلك استمرت مظاهر الحضارة متصلة فى نفسه بالدين، وعوامل الدين فعالة فى مظاهر الحضارة».

٢ ـ كذلك امتازت هذه الحضارة الإسلامية وثقافتها بالتوازن والانسجام؛ لأنها ثمرة لامتياز الإسلام بتحقيق التكامل والتوازن والانسجام فى مصادر المعرفة الإنسانية.. «فكل الحقائق، المتصلة بالمادة والمتصلة بما وراءها، هى فى متناول الإنسان، يستطيع أن يتوصل إليها بمداركه العديدة المدرّجة، المستند بعضها إلى بعض، فى غير تنافر ولا تدابر ولا تناشز.. فالمدركات الغريزية، وراءها المدركات الحسية.. ثم المدركات الحسية، وراءها المدركات العقلية.. ثم المدركات العقلية، تؤدى إلى المقدمات المفضية إلى تلقى المدركات الغيبية، الآتية من طريق الوحى، وإلى التسليم بها، والإذعان لها.. وتبقى هذه المدركات كذلك متعاونة متساندة، لا يمكن أن يحصل بطريق واحد منها ما يتناقض مع الحاصل من طريق مدرك آخر، إلا أن بعض ما يقصر عن الإحاطة به أحد هاتيك الطريق، يمكن أن يتصل به طريق آخر منها، حتى تنتهى إلى الإذعان للمدركات الحاصلة بالطريق الخارق للعادة، وهو طريق الوحى..

فعقل الإنسان وعقيدته، وحسه المادى، وعواطفه الغريزية، كلها متجانسة متعاونة، لا يخشى بعضها بعضا، ولا يقطع أحد سبيل الآخر..

لقد كانت الحضارة الإسلامية من أثر إنسان اكتسب وضعًا منسجمًا فى ذاته، آمنا إلى نفسه، فصنع على مثال نفسه حضارة أكسبها مما اكتسب، وأفاء عليها مما أفاء الله عليه، حتى فاقت بما فيها من انسجام غيرها من الحضارات..»..

٣ـ لكن.. ما الذى حدث، حتى تخلفت الحضارة الإسلامية وتهلهلت ثقافتها.. مع بقاء الإسلام ـ الذى صنعهما وحقق لهما الازدهار الذى دام لعدة قرون، كانا فيه منارة للعالمين:ـ على ما هو عليه؟..

«لم يكن المصاب العزيز هو الإسلام، وإنما كان الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية.. وكانتا تتطلعان إلى الإسلام بذاته، تحنان إليه، وترجوان شفاءهما عنده.. وكان القريب والبعيد يدركون أن ما نزل بالمجتمع الإسلامى، فى حضارته وثقافته، ليس إلا أمرًا آتيا من انحراف عن الأصل، وانقلاب فى الوضع، وانفلات عن العامل التربوى الأصلى الذى لزم الأصول، وأحكم الأوضاع.. فلقد أصاب الحضارة والثقافة ما عزلها عن صدق الاستمداد من الإسلام، ومتين الاعتماد عليه، حتى مال عمادها، واضطربت أوتادها..»..

فالخلل لم يحدث فى ذات الإسلام.. وإنما فى توقف عقيدة الإسلام عن أن تكون روح الحضارة.. وانكماش الإرادة الاعتقادية البناءة للحضارة.. وغربة الحضارى عن الدينى.. وتفكيك الدين عن الدنيا.. «وإن تبيّن الناحية من العقيدة، التى أصابتها العلة، هو الذى يكشف عن الأسباب التى نهضت بضعف الحضارة وتهلهلها..

إن الذى حدث فى العقيدة الدينية، وقضى بتضعضع الحضارة، إنما هو انكماش صدها عن أن تخلع من روحها على الحضارة؛ فأصبحت الحضارة خائرة جامدة، لا تتقدم.. وما كان ذلك الانكماش إلا أثرا من آثار الضعف، الذى أصاب العقيدة فى جوهرها.. إن الإرادة الاعتقادية البناءة هى التى خارت وضعفت، فأصبحت الأوضاع الاجتماعية، والآثار المدنية تصدر عن غير ما كانت تصدر عنه، فصارت هى فى واد والعقيدة الدينية فى واد. وبقى المسلم وفيًا لعقيدته الدينية،

غيورًا عليها، من جهة، متقبلاً لحياته العملية، مطمئنًا إلى واقعها من جهة أخرى، حتى أصبح المبدأ النظرى والواقع العملى عنده متباينين.. وتولدت من ذلك نظرية تفكيك الدين عن الدنيا، باعتبار أن الدين خيرٌ غير واقع، والدنيا شر واقع، وأن العبد المسلم يحمل بين جنبيه دينًا لا يؤثر فيه إلا لمامًا، ويعيش فى دنيا لا يعرف فيها إلا كل ما يبعد به عن الدين..

ثم هجمت عليه فى حياته العملية مدنيات أجنبية عنه، فيها العلم، وفيها الصناعة، وفيها القوة، وفيها الحكمة، فلم يجد من إرادته الدينية ما يتناول به هذه المدنية، كما تناول المدنيات التى احتك بها من قبل، يوم كانت إرادته الدينية قوية سليمة، فوقف أمامها جامدًا، واعتبرها من جملة صور الحياة التى كان من قبل آمن بانفكاكها عن الدين..».

ذلك هو موطن الخلل الذى كان ابن خلدون [٧٣٢ ـ ٨٠٨هـ ١٣٣٢ ـ ١٤٠٦م] من أفضل من أدركه، وحلله.. «لقد حلل ابن خلدون المشكلة تحليلاً دقيقًا، عندما جعل شئون السياسة، والعمران، والصناعة، والعلم، فى الدولة الإسلامية، تبعًا لشأن الدين.. وجعل الحقيقة الأولى للدين، التى هى العقيدة الفردية، أصلاً وأساسًا لذلك كله، فأخذ يدرس مشكلة فساد الدولة، وركود العمران ـ فى عصور الإسلام اللاحقة عن عصوره السابقة ـ وانتقاص الصنائع، وتلاشى ملكات العلوم، واختلال طرائق التعليم فى الأمصار الإسلامية لعهده، جاعلاً ذلك كله راجعًا إلى اختلال الحقيقة الأولى للدين، التى هى أساس العمران الناشئ به، والدولة القائمة عليه، أعنى العقيدة الدينية، فردّ ذلك كله إلى صورة تكوّن الفرد تكونًا إيمانيًا، يرتبط من جهة بالدين الإسلامى فى عقيدته، ويسرى منه إلى كل ما انبثق عن تلك العقيدة من مظاهر عمرانية ـ وصناعية وفكرية..

وإذا كان الناس يكتفون بأن يمثلوا ما بدا فى حياة المجتمع الإسلامى وحضارته من إخلال، بما يرجع إلى نظم الحكم، وصور الدول، وما شاع من فساد الخلق، وتفكك الروابط الاجتماعية، فإن ابن خلدون يطلب لهذه العلل عللاً، ويرد هذه الأسباب إلى أسباب وراءها، فانقلاب الخلافة إلى ملك ليس العلة، وإنما هو عَرَض لعلة تغيّر الوازع الدينى إلى مقاصد التغلّب والقهر، والتقلّب فى الشهوات

والملاذ، وحلول عصبية الدولة محل عصبية الدين..

لقد أرجع ابن خلدون الحضارة الإسلامية إلى أصلها وأساسها، أو بالأوضح روحها، وهو العقيدة الدينية».

٤ ـ وإذا كانت هذه هي المشكلة.. فما هو حجمها؟.. وما هو عمرها؟..

إن حجم هذه المشكلة ليس بالهين.. وعمرها ليس بالقصير.. «وإذا كنا لا ننكر أن الحضارة الإسلامية قد تقاصرت وتراجعت وتخلخت، وأن الثقافة قد ذوت وانكمشت واصفرت، وأوشكت أن تصير حطامًا، فإن ذلك ليس وليد الأمس، ولا أمسه، ولكنه الأدواء التي استفحلت في القرون الأخيرة، حتى أعضلت، وعز دواؤها، ثم لم تزل تنمو وتشتد وتتفاقم آلامها وأخطارها حتى انتهت إلى الوضع المفزع، الذي ضج قرننا الحاضر منه بالشكوى..»..

٥ ـ وأخيرًا.. وبعد تحديد روح الحضارة الإسلامية، وتشخيص موطن الخلل الذي أصاب حضارتنا وثقافتنا.. فما هو الحل الحقيقي لهذه المشكلة.. والمخرج من هذا المأزق الذي يأخذ بخناق الأمة؟؟..

إن الحل هو في العودة إلى الروح التي صنعت الحضارة المزدهرة والثقافة المتألقة.. إنه عودة الروح الدينية لتصوغ النهضة الحضارية المتميزة والمستقلة.. وهذا هو المعنى الحقيقي لمقولة: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.. «فلولا التكوّن الفردي المكّي، والتكوّن الاجتماعي المدني، لما كانت آثار الحضارة التي تبدت في عواصم الإسلام.. فإذا كان الناس اليوم يحنّون إلى عهود ذهبية، ازدهرت بها تلك العواصم، ويتحرقون إلى إحيائها وتجديدها، فأجدر بهم أن يعودوا إلى العامل الأصلي الذي ولّد تلك العصور الذهبية، والذي بدونه لن تعود زهرة تلك العصور وينعتها، ألا وهو العامل التربوي الإسلامي، الذي كوّن الفرد قبل أن يكوّن المجتمع، ومهد للثقافة طريقها قبل أن يتناول عناصر المعرفة التي ألّفت كيانها..».

أما إذا وقفنا عند «استقلال العَلَم والنشيد»، دون حقيقة «الاستقلال الحضاري»، الذي هو ثمرة للصبغة الإسلامية المتميزة، فلن نخرج من هذا المأزق الذي نعيش فيه.. «لقد خرج العالم الإسلامي من تحت حكم الغير، واسترجع

سيادته الذاتية، لكن هل هو مستطيع أن يعاود حضارته، ليضطلع بأعبائها من جديد، وليمثل للناس صورة جديدة من الثقافة والحضارة، منطبعة بطابع شخصيته الإسلامية، ومنبثقة عن المبادئ الاعتقادية الإسلامية، التى انبثقت عنها الصورة الماضية التى عرفها التاريخ من ثقافة الإسلام وحضارته؟؟..

إن نهضة اليابان ليست بوذية، ولا نهضة الصين نهضة كونفوشية، ولا نهضة اليونان نهضة بيزنطية، ولا أفلاطونية، ولا أرسطوطاليسية، بل ولا هى يونانية على الحقيقة بأى حال من الأحوال.

فهل سيكون شأن الإسلام مقصوراً على هذا الوضع؟ أو أن حضارة إسلامية الروح، وثقافة إسلامية الطابع، ستبدوان من بين ذلك القدر المشترك المؤلف بين شعوب الأمة الإسلامية، الناهضة المستقلة؟.. إن روح تلك الحضارة هى الموقع الرئيسى للمشكلة»..

* * *

تلك بعض من قضايا وأفكار ومحاور المعضلة التى حار ويحار فيها المصلحون.. روح الحضارة الإسلامية، التى صنعت وميزت الحضارة والثقافة فى عصور النشأة والازدهار.. وموطن الخلل الذى جعل الحضارة تتراجع، والثقافة تتهلهل..

والحل والمخرج من هذا المأزق الحضارى الذى تعيشه أمة الإسلام..

* * *

الإسلام.. والوطنية

الإسلام، هو دين الله الواحد، الذى أوحاه إلى رسله وأنبيائه، منذ أن بدأت الرسالات السماوية وحتى ختامها بمحمد ﷺ.. وفيه اتحدت العقيدة مع تمايز الشرائع، عبادات ومعاملات.

أما الوطنية، فهى المشاعر والروابط الفطرية ـ والتى تنمو بالاكتساب ـ لتشد الإنسان إلى الوطن الذى استوطنه وتوطن فيه..

والوطن ـ فى اصطلاح العربية ـ كما جاء فى [اللسان] لابن منظور ـ هو «المنزل الذى يمثل موطن الإنسان ومحله.. و: وَطَنَ بالمكان وأَوْطَنَ: أقام، متخذًا إياه محلاً وسكنًا يقيم فيه..» ولا يغير من علاقة الوطنية، التى تربط الإنسان بوطنه، إقامته ـ الاختيارية أو القسرية ـ فى مواطن أخرى غير وطنه الأصلى.. وقديمًا قال الشاعر ابن برّى:

كيما ترى أهل العراق أننى   أوطنت أرضا لم تكن من وطنى!

وإذا كانت العربية، وتراثها النثرى والشعرى، قد عرفت مصطلح «الوطن» منذ فجر هذا التراث، فإن القرآن الكريم يلفت أنظارنا إلى أن العربية تعبر عن الوطن، أيضًا، بمصطلح «الديار» ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(1).. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾(2).. ولذلك شاع فى التراث الإسلامى التعبير عن الوطن الإسلامى بدار الإسلام وديار الإسلام.. وتعددت التآليف التى كتبت فى الوطنية تحت عناوين «المنازل والديار» و«الديارات»!..

أما السنة النبوية، فلقد جمعت بعض أحاديثها بين مصطلحى «الوطن»

و«الدار»: «هى وطنى ودارى»[٣].. وجمع بعضها الآخر بين مصطلحى «الوطن» و«البلاد»: «ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم..»[٤]..

وإذا كانت معاجم العربية لم تقف فقط عند التعريف اللغوى للوطن، وإنما أشارت أيضًا إلى فطرة الوطنية التى تجمع، بالحب، بين الإنسان ووطنه.. وذلك على النحو الذى رأيناه فى [أساس البلاغة] - للزمخشرى - حيث يقول عن فطرة الوطنية وحب الوطن: «وكلٌ يحب وطنه وأوطانه ومواطنه»؟!.. فإن التعريف الشرعى للوطن يشير هو الآخر إلى هذا المعنى «فالوطن الأصلى، عند أهل الشرع، يسمى بالأهلى، ووطن الفطرة والقرار، وفيه يكون مولد الإنسان ومأهله ومنشأه»[٥]..

* * *

وإذا كان الانتماء الأول والأكبر والأساسى، بالنسبة للمسلم، هو إلى الإسلام وأمته، وإلى دار الإسلام وحضارته ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[٦].. ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾[٧].. فإن تخيير المسلم بين الانتماء للإسلام وبين هذه الدوائر الأخرى للانتماء لا يكون إلا فى حالات قيام التعارض أو التناقض والتضاد بين الانتماء إلى الإسلام - كانتماء جامع وأول - وبين الانتماءات الأخرى - كدوائر فرعية - أما إذا اتسقت دوائر الانتماء فى فكرية الإنسان، وتكاملت فى ممارساته الحياتية فلن يكون هناك تناقض فى الفكر والعمل الإسلاميين بين كل دوائر الانتماء الفطرى للإنسان..

بل إن الأمر فى علاقة الانتماء الإسلامى بالانتماء الوطنى ليتعدى حدود «نفى التناقض» إلى دائرة «الامتزاج والارتباط»..

فلأن الإسلام منهاج شامل لمملكة السماء وعالم الغيب وللعمران البشرى وسياسة وتدبير عالم الشهادة، فإن إقامته كدين لا تتأتى إلا فى واقع ووطن ومكان وجغرافيا.. وهذا الواقع والوطن والمكان والجغرافيا لن يكون إسلاميًا إلا إذا أصبح

الانتمـاء الوطنى فيه بعـداً من أبعاد الانتـماء الإسلامى العـام.. فعبـقرية المكان، فى المحيـط الإسلامى، هى واحـدة من تجليات الإسـلام، الذى لا تكتمل إقـامتـه بغـير الوطن والمكان والجـغرافيـا!.. ومن هنا تأتى ضرورة الوطن لإقـامة «دنيـا الإسلام» وعمـرانه، وضرورة الدين، ليكون الوطن إسـلاميًا وتتـحقق إسـلامية عـمرانه، أى ضرورة أن يكون الانتمـاء الوطنى ـ الوطنية ـ درجة من درجات سلم انـتماء المسلم إلى الإسـلام، كـجامع أكـبر وأول لأبعـاد ودوائر الانتـمـاء.. فـالإسـلام هو الذى يستدعـى ويتطلب وجود الوطن والوطنية؛ لأنه لا تكتـمل إقامته دون وطن يتـجسد فيه.. فليس هو بالدين الذى تكتمل إقامتـه «بالخلاص الفردى».. كما أن «خلاص» المسلم و«تقدمه» لا يمكن إلا أن يكون إسلاميًا!..

وهذه الحقيـقة الإسلاميـة هى التى ميزت مذهب الإسـلام فى «حدود» الوطن و«نطاقـه».. فعلى حـين وقفت مـذاهب وفلسـفات عند «حـدود العرق»، فـإن الإسـلام قد رفض هذا المعـيار الجـاهلى؛ لأن رب الناس واحد، وأباهم واحـد، والتقـوى والاستبـاق فى الخيـرات هى معاييـر التفاضل بين النـاس.. وعلى حين وقفت مذاهب وفلسفات فى رسم حدود الوطن عند اللغة وحدها فإن الإسلام قد جعل العربية لسان الدين، وسبيل الدولة والعقل المسلم لفقه الدين والاجتهاد فيه، فلم يعرف التناقض بين آفاق الدين ونطاق اللغة العربية على وجه الخصوص..

وعلى حـين اكتفـت مذاهب وفلسـفات، فى تحـديد حدود الوطن «بجـغرافـيا الإقليم»، فإن الإسلام قد سلك الجغـرافيا والأقاليم فى سلك ديار الإسلام، تلك التى وحدتها العقيدة والشريعة والأمة والحضـارة، مع التمايز فى القبائل والشعوب والأوطان والأقوام.. فاجتمعت فى منظومتـه كل من العالمية والأممية مع الوطنيات والقوميات، دونما تناقض أو تعارض أو عداء.

* * *

وهذه الحقيقة ـ فى علاقـة الإسلام بالوطنية ـ هى التى جعلت للوطن والوطنية ذلك المقام العالى فى ظل الانتماء الإسلامى الذى لا يقف عند حدود وطن بعينه، ولا يتقيد بوطنية من الوطنيات دون سواها..

● فالقـرآن الكريم يتحدث عن حب الإنسـان لوطنه كمعـادل وقرين لحب هذا

الإنسان للحياة؟!.. ولذلك، فالإخراج من الديار معادل ومساوٍ للقتل الذى يخرج الإنسان من عداد الأحياء؟!.. ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾[٨].

ومن بنود المواثيق التى أخذها الله على بعض الأمم، نتعلم أن الإخراج من الديار، والحرمان من الوطن، هو معادل لسفك الدماء والإخراج من الحياة ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٩].

ولذلك، جعل القرآن الكريم «استقلال الوطن وحريته»، الذى هو ثمرة لوطنية أهله وبسالتهم فى الدفاع عنه، جعل ذلك «حياة» لأهل هذا الوطن.. بينما عبر عن الذين فرطوا فى الوطنية، ومن ثم فى استقلال وطنهم بأنهم «أموات».. وجعل من عودة الروح الوطنية إلى الذين سبق لهم التفريط فيها، عودة لروح الحياة إلى الذين سبق وأصابهم الموت والموات؟!.. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[١٠]..

فالذين خرجوا من ديارهم - وليس الذين أُخرجوا - لضعف فى وطنيتهم، جعلهم يحذرون الموت، هم أموات، مع أنهم ألوف يأكلون ويشربون!.. وعودة الوطنية إليهم، واستخلاصهم لوطنهم، هو إحياء لهم بعد الممات!..

ولقد رأى الأستاذ الإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] أن هذه الآية القرآنية إنما تتحدث عن سنة من سنن الله فى الاجتماع البشرى، ليس لها تحويل ولا تبديل، فحياة الأمم إنما تكون بحيوية وطنيتها التى تحافظ على استقلال

وحياة أوطانها.. وموت هذه الأمم هو رهن بموات وطنيتها الذى يفرط فى استقلال الوطن الذى تعيش فيه!.. فكتب ـ رحمه الله ـ فى تفسيره لهذه الآية يقول:

«.. تلك سنة الله تعالى فى الأمم التى تجبن فلا تدفع العادين عليها.. وحياة الأمم وموتها، فى عرف الناس جميعهم، معروف، فمعنى موت أولئك القوم هو أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم، وأزال استقلال أمتهم، حتى صارت لا تعد أمة، بأن تفرق شملها، وذهبت جامعتها، فكل ما بقى من أفرادها خاضعين للغالبين ضائعين فيهم، مدغمين فى غمارهم، لا وجود لهم فى أنفسهم، وإنما وجودهم تابع لوجود غيرهم؛ ومعنى حياتهم هو: عودة الاستقلال إليهم!.. إن الجبن عن مدافعة الأعداء، وتسليم الديار، بالهزيمة والفرار، هو الموت المحفوف بالخزى والعار، وإن الحياة العزيزة الطيبة هى الحياة الملّية ـ [الوطنية] ـ المحفوظة من عدوان المعتدين.. والقتال فى سبيل الله.. أعم من القتال لأجل الدين؛ لأنه يشمل، أيضًا، الدفاع عن الحوزة إذا همّ الطامع المهاجم باغتصاب بلادنا والتمتع بخيرات أرضنا، أو أراد العدو الباغى إذلالنا، والعدوان على استقلالنا، ولو لم يكن ذلك لأجل فتنتنا عن ديننا. فالقتال لحماية الحقيقة كالقتال لحماية الحق، كله جهاد فى سبيل الله.. ولقد اتفق الفقهاء على أن العدو إذا دخل دار الإسلام يكون قتاله فرض عين على كل المسلمين..»(١١).

● وكما جعل الإسلام الوطنية، التى تحفظ استقلال الوطن، قرين الحياة ومعادلها.. كذلك جعل هذه الوطنية قرين حرية الدعوة إلى الدين.. فكان الجهاد القتالى فى الإسلام ردًا ودفعًا لعدوان المعتدين على حرية الدعوة ـ بالفتنة فى الدين ـ وعلى عدوان المعتدين الذى يخرج الناس من الأوطان ويقتلعهم من الديار.. فى هذين السببين انحصرت شرعية ومشروعية فريضة الجهاد القتالى فى الإسلام.. وعلى هذه الحقيقة تشهد آيات القرآن الكريم التى شرعت فريضة القتال لرد العدوان عن الدين.. وعن الوطن!..

فعندما «أَذِن» الله، سبحانه، للمؤمنين فى القتال، كان إخراجهم من ديارهم سببًا علل به القرآن الكريم هذا التطور الجديد، المتمثل فى الإذن بالقتال.. ﴿أُذِنَ

لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾(١٢).

وعندما تطور الحال من «الإذن» في القتال إلى «الأمر» به، جاء حديث القرآن الكريم، أيضًا، فوضع الإخراج من الديار سببًا لقتال أولئك الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ...﴾(١٣).

وعندما انتقل القرآن الكريم، في تشريعه للجهاد القتالي، من «أمر» المؤمنين به إلى حيث جعله «فريضة مكتوبة» عليهم، استمر حديثه عن إخراجهم من ديارهم، كسبب يوجب عليهم ويفرض قتال الأعداء.. ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(١٤).

ثم تطرد هذه الحقيقة القرآنية ـ الحديث عن الإخراج من الديار ـ في كل مواطن الاستنفار للجهاد القتالي.. فالله يحدث رسوله عن صنيع مشركي مكة معه، وخياراتهم للمكر به ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(١٥).. فالإخراج من الديار معادل للقتل.. وللسجن.. فجميعها تحرم الإنسان من السيادة على مقدرات الوطن الذي ينتمي إليه!..

وفي مقام استنفار المسلمين للقتال، يحدثهم القرآن عن إخراج المشركين للرسول ﷺ من وطنه.. ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم

بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين (١٣) قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾[١٦].. ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم (٤٠) انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾[١٧].

وإذا كان المقام مقام الحديث عن المكانة التي أعدها الله للمؤمنين، كانت الإشارة إلى المكانة المتميزة للذين قاتلوا من أخرجوهم من ديارهم واقتلعوهم من أوطانهم.. ﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب﴾[١٨].

وعندما يكون الحديث عن أولويات الاختصاص بالفيء والمال، يذكر القرآن بالذين أصابهم الفقر بسبب الإخراج من الديار.. ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب (٧) للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون﴾[١٩].

هكذا يذكر القرآن الكريم ـ عندما يتحدث عن الجهاد القتالي ـ الإخراج من الديار، سببًا يجب من أجله القتال، وقضية يستنفر المؤمنين كي يقاتلوا لحلها، وذلك حتى يستردوا وطنهم الذي اقتلعوا منه من بين براثن المعتدين.. بل ويجعل الإخراج من الديار والفتنة في الدين جماع أسباب الجهاد القتالي في الإسلام!.

* وفي تشريع الإسلام لمعايير «الموالاة» و«المعاداة»، ولأسباب «الولاء» و«البراء»، ولفلسفة العلاقات ـ الداخلية.. والدولية ـ بين المؤمنين و«الآخرين»..

يذكر القرآن الكريم، أيضًا، معيارى وسببى «الإخراج من الديار» و«الفتنة فى الدين» جماعا لأسباب التمييز بين الأصدقاء ـ الذين لهم البر والقسط ـ وبين الأعداء ـ الذين لا موالاة لهم، بل وعلينا أن نقاتلهم، حفاظًا على حرية الوطن، وحرية الدعوة إلى الدين.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾[٢٠]..

وفى آيات أخرى ـ بذات السورة ـ يحدثنا القرآن عمن تجوز مصادقته من المخالفين لنا في الدين؟ وعمن لا تجوز لنا مصادقته من هؤلاء المخالفين؟.. فإذا نحن مطالبون بألا نصادق ثلاث فئات:

أ ـ الذين يقاتلوننا فى الدين، بالحيلولة بيننا وبين حرية الدعوة وأمن الدعاة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة..

ب ـ والذين يخرجون المسلمين أو بعضهم من ديارهم، على أى نحو كان هذا الإخراج، تهجيرًا بالاضطهاد، أو عزلاً عن امتلاك خيرات الوطن والتحكم فى مقدراته..

جـ ـ والذين يُظاهرون، أى يساعدون على هذا الإخراج للمسلمين من الديار والأوطان.. على أى نحو كانت المظاهرة والمساعدة فى القهر الوطنى من هؤلاء المظاهرين!..

﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[٢١].

فالوطنية فطرة إنسانية، معادلة للحياة.. وفقدها موت.. وهى ـ مع الفتنة فى الدين ـ جماع أسباب مشروعية الجهاد القتالى فى الإسلام.. وجماع معايير

«الموالاة» و«المعاداة» أى «الولاء» و«البراء» فى الشريعة الإسلامية.

***

وإذا كان فقهاء الأمة ـ من كل مذاهبها.. وعلى مر تاريخها ـ قد اتفقوا ـ وفق عبارة الإمام محمد عبده ـ على «أن العدو إذا دخل دار الإسلام يكون قتاله فرض عين على كل المسلمين».. فإننا نستطيع أن نصنف عقيدة الجهاد الإسلامية، وتراثنا فى آدابها ضمن «ديوان الوطنية الإسلامية».. وأن لا نقف فى هذا التراث فقط عند ما ألف ـ وهو كثير ـ فى «الحنين إلى الأوطان»، و«المنازل والديار».. فنحن أمام «عقيدة إسلامية» ـ هى الجهاد ـ قد جعلت حماية الوطن وحريته وتحريره «ذروة سنام الإسلام»، وأمام تراث فى الجهاد ـ فكراً وممارسة ـ يشهد على مكانته وخطره ما تمثله، حتى اليوم، كلمة «الجهاد» من تداعيات وذكريات وحسابات لدى كل القوى الطامعة فى اغتصاب أرض الإسلام؟!..

ولا يحسبن أحد أن هذا «تراث» قد انقطعت معه خيوط اتصال عصرنا الحديث.. فكل حركات ودعوات التحرر الوطنى الحديثة، فى عالم الإسلام، قد نشأت إسلامية، أو وثيقة الصلة بالإسلام وعقيدة الجهاد فيه.. من السنوسية والمهدية.. إلى تيار الجامعة الإسلامية الذى قاده جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م].. إلى الثورة العرابية ـ فى مصر ـ [١٢٩٨هـ ١٨٨١م].. إلى الحزب الوطنى ـ حزب الجامعة الإسلامية ـ الذى قاده مصطفى كامل [١٢٩١ ـ ١٣٢٦ هـ ١٨٧٤ ـ ١٩٠٨م].. إلى الثورة المصرية [١٣٣٧هـ ١٩١٩م] التى انطلقت من دور العبادة، والتى قادها تلميذ الأفغانى ومحمد عبده: سعد زغلول [١٢٧٣ ـ ١٣٤٦هـ ١٨٥٧ ـ ١٩٢٧م].. إلى جمعية العلماء المسلمين فى الجزائر، وحزب الاستقلال فى المغرب.. إلى ثورة العشرينات فى العراق.. إلى دعوات وجهاد القسام والحسينى فى فلسطين.. وحتى حسن البنا [١٣٢٤ ـ ١٣٦٨هـ ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩م] الذى تحدث عن الوطنية ومكانتها فى فكر اليقظة الإسلامية المعاصرة فقال: «إن الإخوان المسلمين يحبون وطنهم، ويحرصون على وحدته، ولا يجدون غضاضة على أى إنسان أن يخلص لبلده، وأن يفنى فى سبيل قومه، وأن يتمنى لوطنه كل مجد وفخار.. وأن يقدم فى ذلك الأقرب فالأقرب

رحمًا وجوارًا.. إننا مع دعاة الوطنية، بل مع غلاتهم فى كل معانيها الصالحة التى تعود بالخير على البلاد والعباد.. فالوطنية لم تخرج عن أنها جزء من تعاليم الإسلام. أما وجه الخلاف بيننا وبينهم فهو أننا نعتبر حدود الوطنية بالعقيدة، وهم يعتبرونها بالتخوم الأرضية والحدود الجغرافية..»[٢٢].

فالإسلام لا يسقط تمايزات التخوم الأرضية والحدود الجغرافية ـ أى التمايز الإقليمى ـ للأوطان داخل ديار الإسلام ـ بل يدعو الإنسان ـ كما يقول الأستاذ البنا ـ إلى «أن يخلص لبلده، وأن يفنى فى سبيل قومه.. وأن يتمنى لوطنه كل مجد وفخار.. وأن يقدم فى ذلك الأقرب فالأقرب رحمًا وجوارًا..».. فقط تتميز الوطنية الإسلامية بأنها لا تجعل تخوم الأقاليم الوطنية نهاية آفاقها، وإنما تسلك الأقاليم والأوطان فى سلك جامع هو «دار الإسلام»..

* * *

لقد استقر تراث الإسلام على اعتبار الوطنية ـ وهى المشاعر التى تربط بروابط الحب بين الإنسان ووطنه ـ فطرة فطر الله الإنسان عليها.. فحدثنا الجاحظ [١٦٣ ـ ٢٥٥ هـ ٧٨٠ ـ ٨٦٩م] فى رسالة [الحنين إلى الأوطان] كيف «كانت العرب إذا غزت أو سافرت حملت معها من تربة بلدها رملاً وعفرًا تستنشقه»[٢٣]!.. وأشار إليها الزمخشرى [٤٦٧ ـ ٥٣٨ هـ ١٠٧٥ ـ ١١٤٤م] ـ فى [أساس البلاغة] ـ كفطرة تجعل كل إنسان «يحب وطنه وأوطانه ومواطنه»!.. وجعلها رفاعة الطهطاوى [١٢١٦ ـ ١٢٩٠ هـ ١٨٠١ ـ ١٨٧٣م] «المذهب» الذى تلتف حوله «أدوار» إحدى منظوماته وأناشيده.. فهى عنده «فطرة» و«مِنّة» و«هِبَة» إلهية:

من أصل الفِطْرة للفَطِن ... بعد المولى حبُّ الوطن
هِبَةٌ مَنّ الوهّاب بها ... فالحمد لوهّاب المِنَن[٢٤]

وصاغ حسن البنا علاقة الوطنية بالإسلام فى عبارته الموجزة التى تقول: «إن الوطنية لم تخرج عن أنها جزء من تعاليم الإسلام».

* * *

● **الهوامش**

(١) الممتحنة: ٨.

(٢) العنكبوت: ٣٧.

(٣) رواه أبو داود.

(٤) رواه الإمام أحمد.

(٥) التهانوي [كشاف اصطلاحات الفنون] طبعة الهند سنة ١٨٩١م.

(٦) التوبة: ٢٤.

(٧) الأحزاب: ٦.

(٨) النساء: ٦٦.

(٩) البقرة: ٨٤، ٨٥.

(١٠) البقرة: ٢٤٣، ٢٤٤.

(١١) [الأعمال الكاملة] جـ٤ ص٦٩٥-٦٩٧. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

(١٢) الحج: ٣٩، ٤٠.

(١٣) البقرة: ١٩٠، ١٩١.

(١٤) البقرة: ٢١٦، ٢١٧.

(١٥) الأنفال: ٣٠.

(١٦) التوبة: ١٣، ١٤.

(١٧) التوبة: ٤٠، ٤١.

(١٨) آل عمران: ١٩٥.

(١٩) الحشر: ٧، ٨.

(٢٠) الممتحنة: ١.

(٢١) الممتحنة: ٨، ٩.

(٢٢) [مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا] - رسالة: المؤتمر الخامس. ورسالة: دعوتنا - ص١٧٦، ١٧٨، ١٩. طبعة دار الشهاب - القاهرة - بدون تاريخ.

(٢٣) [رسائل الجاحظ] جـ٢ ص٣٩٢. تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤م.

(٢٤) [الأعمال الكاملة] جـ٥ ص٢٧٨. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٨١م.

* * *

التقريب بين المذاهب الإسلامية

فى الحديث عن التقريب بين المذاهب الإسلامية، هناك خلط بين المفاهيم المرادة من وراء المصطلحات التى يستخدمها الباحثون فى هذا الميدان.. «فالتقريب» بين المذاهب غير «التوحيد» للمذاهب.. وكلاهما متميز عن «احتضان» جميع المذاهب والاستفادة من الملائم فى أحكامها واجتهادات مجتهديها..

ثم إن «المذاهب» قد يراد بها «المذاهب الفقهية».. وقد يراد بها «المذاهب الكلامية».. لذلك، لابد من البدأ بتحديد وتحرير مضامين ومفاهيم كل مصطلح من هذه المصطلحات..

● «فالتقريب»: هو الانطلاق من تمايز المذاهب المتعددة والمختلفة، والحفاظ على تمايزها واختلافها، مع العدول عن نفى مذهب للمذاهب الأخرى، بالتعصب لمذهب واحد، ورفض ما عداه.. فهو ـ التقريب ـ تعايش بين المذاهب المختلفة، مع اكتشاف الإطار العام الجامع لها، ومناطق الاتفاق بينها، وتحديد مناطق التمايز والاختلاف..

● أما «التوحيد» بين المذاهب: فإنه يعنى دمجها جميعًا فى مذهب واحد، ونفى قاعدة التعدد والتمايز والاختلاف..

● وبين هذين المصطلحين يأتى «الاحتضان» والاستفادة من المذاهب المختلفة والمتمايزة، باعتبارها اجتهادات إسلامية فى إطار علم واحد وحضارة واحدة ودين واحد، والنظر إلى الأحكام التى أثمرتها الاجتهادات المذهبية المختلفة باعتبارها التراث الواحد للأمة الواحدة، ومن ثم الاستفادة بالملائم منها، الذى يلبى حاجات تحقيق المصالح والضرورات المتجددة بحكم تمايز الزمان والمكان وتنوع العادات والتقاليد والأعراف. أى توسيع دائرة الترجيح بين الأحكام والاجتهادات من نطاق

المذهب الواحد إلى جملة المذاهب كلها.. ومفهوم «الاحتضان» هذا من الممكن أن يكون ثمرة من ثمرات «التقريب»..

● أما مصطلح «المذاهب»، فإنه يطلق على المذاهب الفقهية، التى هى علم الفروع، واجتهادات الفقهاء فى إطار الشريعة الإسلامية الواحدة، التى هى وضع إلهى ثابت عبر الزمان والمكان.. وقد يطلق هذا المصطلح ـ «المذاهب» ـ على المذاهب الكلامية، أى التصورات والاجتهادات التى أبدعها علماء أصول الدين فى إطار العقائد الإسلامية، وخاصة «الألوهية» وصفات الذات الإلهية.. و«النبوات والرسالات» وما يتعلق بها من المعجزات.. و«فلسفة العلاقة بين الحق والخلق»، وما يتعلق بها من مكانة الإنسان فى الكون وأفعال هذا الإنسان.. إلخ..

هذا عن ضبط مفاهيم ومضامين مصطلحات هذا المبحث من مباحث الفكر الإسلامى..

***

أما عن التاريخ الحديث للجهود والدعوات التى بذلت وقامت للتقريب بين المذاهب الفقهية الإسلامية، بهدف الخروج من التعصب لواحد منها ضد ما عداه، والاستفادة من كل الاجتهادات فيها، لتلبية احتياجات التشريع للمستجدات العصرية.. فلعل دعوة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٥ ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] ـ فى التقرير الذى كتبه لإصلاح القضاء الشرعى ـ أن تكون أبرز هذه الدعوات فى عصرنا الحديث، لاحتضان كل مذاهب الفقه الإسلامى، والاستفادة من اجتهاداتها فى القضاء والتقنين الحديث لفقه الشريعة الإسلامية.. فلقد كانت الدولة العثمانية [٦٦٩ ـ ١٣٤٢هـ ١٢٩٩ ـ ١٩٢٢م] تلتزم المذهب الحنفى وحده، وبفقهه وحده يحكم القضاء ويفتى المفتون فى ولاياتها، رغم تمذهب الناس فيها بالمذاهب السنية الأربعة: ـ الحنفى.. والمالكى.. والشافعى.. والحنبلى ـ.. وللمذهب الحنفى وحده تم التقنين فى «مجلة الأحكام العدلية» سنة ١٢٨٦هـ سنة ١٨٦٩م ـ.. فلما درس الإمام محمد عبده حال القضاء الشرعى بمصر، دعا فى التقرير الذى كتبه ـ فى نوفمبر سنة ١٨٩٩م ـ إلى إصلاح حال هذا القضاء وفقهه.. ودعا إلى احتضان كل المذاهب الفقهية والاستفادة من اجتهادات

جميع مجتهديها، لما في ذلك من فتح باب الاجتهاد بالترجيح بين الأحكام جميعها، والتيسير على الناس، وتلبية حاجات المستجدات ـ [الأعمال الكاملة جـ٢ ص٢٠٩ ـ ٢٨٨].

ولقد كانت حركة التقنين للفقه الإسلامي بمصر، في مقدمة الحركات التي وضعت دعوة الإمام محمد عبده في الممارسة والتطبيق.. ففي التعديلات التي أدخلت على بعض مواد قوانين الأسرة ـ الأحوال الشخصية ـ تمت الاستفادة من المذاهب الفقهية المختلفة، بما في ذلك المذهب الجعفري ـ للشيعة الاثنى عشرية ـ والمذهب الزيدي ـ للشيعة الزيدية ـ...

ولما قامت مصر بإصدار موسوعة الفقه الإسلامي ـ موسوعة جمال عبد الناصر ـ اعتمدت كل المذاهب الفقهية الموثقة مصادرها، واحتضنت أحكامها واجتهادات مجتهديها جميعًا ـ وهي المذاهب السنية الأربعة.. مع المذهب الجعفري، والمذهب الزيدي، والمذهب الإباضي، والمذهب الظاهري ـ.. فكانت «للفقه المصري» ـ إذا جاز التعبير ـ الريادة في انتهاج هذا الطريق، الذي لا يكتفي، فقط، «بالتقريب» بين المذاهب الفقهية، أي رفض التعصب لمذهب واحد ضد ما عداه، وإنما تجاوز «الموقف المصري» هذا «التقريب» إلى «احتضان» كل المذاهب، والعمل على الاستفادة من الملائم الملبي لاحتياجات الأمة ومستجدات العصر من اجتهادات المذاهب الفقهية جميعها..

* * *

وفي أربعينيات القرن العشرين، قامت في مصر «جماعة التقريب بين المذاهب»، مركزة جهودها على مذاهب السنة والشيعة الإمامية بوجه خاص..

ولقد رأس هذه الجماعة الزعيم المصلح محمد على علوبة باشا [١٢٩٢ ـ ١٣٧٥هـ ١٨٧٥ ـ ١٩٥٦م].. وكان في مقدمة مؤسسيها والعاملين في ميدان جهودها الفقهية والفكرية الأئمة والعلماء الأعلام: الشيخ عبد المجيد سليم [١٢٩٩ ـ ١٣٧٤هـ] والشيخ محمد مصطفى المراغي [١٢٩٨ ـ ١٣٦٤هـ ١٨٨١ـ ١٩٤٥م] والشيخ مصطفى عبد الرازق [١٣٠٢ ـ ١٣٦٦هـ ١٨٨٥ ـ ١٩٤٦م] والشيخ محمود شلتوت [١٣١٠ ـ ١٣٨٣هـ ١٨٩٣ ـ ١٩٦٣م] والشيخ محمد

المدني [١٣٢٥ ـ ١٣٨٨هـ ١٩٠٧ ـ ١٩٦٨م] والشيخ علي الخفيف [١٣٠٨ ـ ١٣٩٨ هـ ١٨٩١ـ ١٩٧٨م] والشيخ عبد العزيز عيسى [١٣٢٧ـ ١٤١٥هـ ١٩٠٩ ـ ١٩٩٤م] والشيخ حسن البنا [١٣٢٤ ـ ١٣٦٨هـ ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩م] والشيخ سيد سابق.. وغيرهم من أئمة علماء السنة..

كما ضمت هذه اللجنة ـ في إطار «دار التقريب» ـ كوكبة من كبار علماء الشيعة الاثنى عشرية. من مثل آية الله آقا حسين البروجردي.. والسيد محمد تقي الدين القمي ـ الذي تولى الأمانة العامة للجماعة ـ والسيد محمد الحسيني آل كاشف الغطاء.. والسيد شرف الدين الموسوي.. والسيد محمد جواد مغنية.. والسيد صدر الدين شرف الدين.. وغيرهم..

وكانت مجلة «رسالة الإسلام» لسان حال هذه الجماعة، من أبرز المنابر الفكرية التي تجسدت فيها الجهود التي بذلت في هذا اللون من التقريب بين المذاهب الإسلامية.. وفي إزالة الشبهات والعقبات من ميادين العلاقة بين السنة والشيعة على وجه الخصوص..

كذلك، كانت جهود الشيخ محمود شلتوت من أبرز ما تمخضت عنه اجتهادات هذا اللون من التقريب بين المذاهب الفقهية.. فلقد كتب عن مقاصد هذه الدعوة، وجهود هذه الجماعة فقال:

«إن دعوة التقريب هي دعوة التوحيد والوحدة، هي دعوة الإسلام والسلام.. كنت أود أن أستطيع تصوير فكرة الحرية المذهبية الصحيحة المستقيمة على نهج الإسلام، والتي كان عليها الأئمة الأعلام في تاريخنا الفقهي، أولئك الذين كانوا يترفعون عن العصبية الضيقة، ويربأون بدين الله وشريعته عن الجمود والخمول، فلا يزعم أحدهم أنه أتى بالحق الذي لا ريب فيه، وأن على سائر الناس أن يتبعوه، ولكن يقول: «هذا مذهبي، وما وصل إليه جهدي وعلمي، ولست أبيح لأحد تقليدي واتباعي دون أن ينظر ويعلم من أين قلتُ ما قلتُ، فإن الدليل إذا استقام فهو عمدتي، والحديث إذا صح فهو مذهبي».

«ولقد آمنت بفكرة التقريب كمنهج قويم، وأسهمتُ منذ أول يوم في جماعتها، وفي وجوه نشاط دارها بأمور كثيرة، ثم تهيأ لي بعد ذلك، وقد عهد إليّ بمنصب

مشيخة الأزهر، أن أصدرت فتواى فى جواز التعبد على المذاهب الإسلامية الثابتة الأصول، المعروفة المصادر، المتبعة لسبيل المؤمنين، ومنها مذهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية.. وقرت بهذه الفتوى عيون المؤمنين المخلصين الذين لا هدف لهم إلا الحق والألفة ومصلحة الأمة.. وظلت تتوارد الأسئلة والمشاورات والمجادلات فى شأنها وأنا مؤمن بصحتها، ثابت على فكرتها، أؤيدها فى الحين بعد الحين فيما أبعث به من رسائل إلى المتوضحين، أو أرد به على شبه المعترضين، وفيما أنشئ من مقال ينشر أو حديث يذاع، أو بيان أدعو به إلى الوحدة والتماسك والاتفاق حول أصول الإسلام، ونسيان الضغائن والأحقاد، حتى أصبحت - والحمد لله - حقيقة مقررة تجرى بين المسلمين مجرى القضايا المسلمة، بعد أن كان المرجفون فى مختلف عهود الضعف الفكرى والخلاف الطائفى والنزاع السياسى، يثيرون فى موضوعها الشكوك والأوهام بالباطل، وها هو ذا الأزهر الشريف ينزل على حكم هذا المبدأ، مبدأ التقريب بين أرباب المذاهب المختلفة، فيقرر دراسة فقه المذاهب الإسلامية، سنيها وشيعيها، دراسة تعتمد على الدليل والبرهان، وتخلو من التعصب لفلان وفلان» - [كتاب مشيخة الأزهر] للشيخ على عبد العظيم. جـ٢ ص١٨٧، ١٨٨-.

هكذا تحدث الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت، عن فكرة التقريب بين المذاهب الفقهية الإسلامية، والتقريب بين أرباب هذه المذاهب - أى بين علماء السنة والشيعة.. وعن شمول هذه الدعوة لكل المذاهب الفقهية الثابتة الأصول، المعتمدة المصادر، المتبعة لسبيل المؤمنين.. وعن جواز التعبد بفقه جميع هذه المذاهب دون استثناء.. كما تحدث عن الجدل الذى دار حول فتواه بهذا الخصوص.. وعن تبنى الأزهر الشريف لهذا الاتجاه فى التقريب بين مذاهب الفقه الإسلامى.

* * *

أما نص الفتوى التى أصدرها الشيخ شلتوت، والتى أثارت جدلاً فكريًا حول هذا الموضوع.. فلقد جاءت ردا على سؤال نصه:

«إن بعض الناس يرى أنه يجب على المسلم لكي تقع عباداته ومعاملاته على وجه صحيح، أن يقلد أحد المذاهب الأربعة المعروفة، وليس من بينها مذهب الشيعة: فهل توافقون فضيلتكم على هذا الرأي على إطلاقه، فتمنعوا تقليد مذهب الشيعة الاثنى عشرية مثلاً؟»..

فكان جواب الشيخ شلتوت على هذا السؤال:

«إن الإسلام لا يوجب على أحد اتباع مذهب معين، بل نقول: إن لكل مسلم الحق في أن يقلد بادئ ذي بدء أي مذهب من المذاهب المنقولة نقلاً صحيحاً، والمدونة أحكامها في كتبها الخاصة، ولمن قلد مذهبا من هذه المذاهب أن ينتقل إلى غيره - أي مذهب كان - ولا حرج عليه في شيء.

إن مذهب الجعفرية، المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية، مذهب يجوز التعبد به شرعا كسائر مذاهب أهل السنة، فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك، وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة، فما كان دين الله وما كانت شريعته تابعة لمذهب أو مقصورة على مذهب، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى، يجوز - لمن ليس أهلا للنظر والاجتهاد - تقليدهم والعمل بما يقررونه في فقههم، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات» - كتاب [مشيخة الأزهر] جـ٢ ص١٨٨ـ..

ذلك هو نص فتوى الشيخ شلتوت في التقريب بين المذاهب الفقهية.. وفي جواز التعبد والتعامل وفق أحكامها جميعًا دون تعصب لمذهب ضد ما عداه. وجواز التعبد والتعامل - من قبل أهل السنة - وفق فقه المذهب الجعفري للشيعة الإمامية الاثنى عشرية على وجه التحديد..

ورغم أن هذه الفتوى قد وجدت صدى عظيمًا وواسعًا ومستمرًا في الدوائر الشيعية، ورفعت من مقام الشيخ شلتوت في هذه الدوائر، حتى لقد تم الاحتفال به وبآية الله البروجردي - في طهران - سنة ٢٠٠١م.. ولقد ترجم علماء الشيعة فتواه هذه إلى مختلف اللغات.. إلا أنه لم تصدر فتوى مناظرة لها من أي مرجع من مراجع الشيعة، ولم يفت واحد من هؤلاء العلماء الأعلام بجواز تعبد وتعامل المسلم الشيعي وفق فقه المذاهب الفقهية السنية، حتى يكون التقريب متبادلاً بين

الأطراف المتعددة، وليس من طرف واحد لحساب الطرف الثانى!..

بل إن دستور الجمهورية الإسلامية الإيرانية ـ الصادر بعد الثورة الإسلامية ـ قد ذهب إلى الحد الذى جعل المذهب الجعفرى وحده هو مذهب الدولة، ونص على أن المادة التى تقرر ذلك لا يجوز تغييرها فيما يطرأ على مواد هذا الدستور من تغييرات!.. الأمر الذى يجعل قضية التقريب بين المذاهب الفقهية قائمة على ساق واحدة، ومن طرف واحد حتى كتابة هذه السطور!..

***

وإذا كانت لنا من ملاحظات على هذه الجهود العلمية العظيمة التى بذلتها جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية، والتى أثمرت ثمرات طيبة فى ميدان التقريب بين السنة والشيعة.. وهى الجهود التى يحاول مواصلتها ـ قدر الإمكان.. وعلى نحو من الأنحاء ـ «المجمع العالمى للتقريب بين المذاهب» ـ بطهران ـ فإن هذه الملاحظات يمكن إجمالها فى هذه النقاط:

أولاً: إن توجيه جهود التقريب بين المذاهب الإسلامية إلى جانب التقريب بين المذاهب الفقهية، هو جهاد فى غير الميدان الحقيقى الأولى بالجهاد.. أو ـ على أحسن الفروض ـ هو جهاد فى الميدان الأسهل، الذى لا يمثل المشكلة الحقيقية فى الخلافات بين المذاهب الإسلامية.. وبين السنة والشيعة على وجه التحديد ـ فالفقه هو علم الفروع.. وكلما زاد الاجتهاد والتجديد فى الفقه الإسلامى كلما تمايزت الاجتهادات فى الأحكام الفقهية، ففتح الآفاق أمام تمايزات الاجتهادات هو الذى يحرك العقل الإسلامى المجتهد، وليس التقريب ـ فضلاً عن التوحيد لهذه الاجتهادات ـ فقط نريد احتضان الاجتهادات المذهبية والفقهية المتنوعة، والاستفادة بالملائم من أحكامها للتيسير على الناس، ولمواكبة المستجدات..

وثانياً: إن الفقه هو علم الفروع.. وتمايز الاجتهادات فيه واختلاف المجتهدين فى أحكامه لم يكن فى يوم من الأيام يمثل مشكلة لوحدة الأمة، بل كان مصدر غنى وثراء للعقل الفقهى والواقع الإسلامى على السواء.. وفى الفقه كان الأئمة والعلماء، المختلفون فى المذاهب، يتلمذ الواحد منهم على من يخالفه فى المذهب.. بل ورأينا فى تراثنا من العلماء الأعلام من يجمع المذاهب المتعددة فى

فقهه وعطائه. فيفتى وفق مذهب، ويقضى وفق مذهب ثان، ويدرّس كل المذاهب لطلاب علمه ومريديه!..

فاختلاف المذاهب الفقهية هو ظاهرة صحية فى الفكر الإسلامى، وهو مصدر من مصادر الغنى والثراء لهذا الفقه، ولا يمثل أية مشكلة لوحدة أمة الإسلام.. ومن ثم، فليس هو الميدان الحقيقى والأولى للجهاد الفكرى فى التقريب بين مذاهب المسلمين..

وثالثًا: إن الميدان الذى كان ولا يزال يمثل مشكلة لوحدة الأمة - التى هى فريضة إلهية وتكليف قرآنى - وهو ميدان بعض الاجتهادات المذهبية فى المذاهب الكلامية الإسلامية.. وعلى وجه التحديد أحكام «التكفير» و«التفسيق» التى نجدها فى تراث هذه المذاهب، والتى ارتبطت بقضية الإمامة على سبيل الحصر والتحديد..

إن اختلاف مذاهب الفقه - السنية والشيعية - حول «نكاح المتعة» مثلا، لا يمثل مشكلة تفصم وحدة الأمة الإسلامية.. لكن الاجتهادات التى تكفّر الصحابة الذين أخروا خلافة على بن أبى طالب هى التى تهدد وحدة الأمة منذ عصر الخلافة وحتى هذه اللحظات..

ومثلها الاجتهادات التى تكفّر الشيعة فى بعض كتب التراث السنى، كما هو الحال عند شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨م] وبعض الأئمة «السلفيين».. ويضاف إلى هذه المسائل بعض الآراء التى توهم التجسيد والتشبيه للذات الإلهية.. وبعض المواقف الحادة فى ميدان التصوف والصوفيين..

فالتقريب بين المذاهب، والذى يمثل الميدان الحقيقى للجهاد الفكرى المطلوب، هو الذى يوحد الأمة فى الأصول والثوابت، وفى أمهات العقائد والمسائل الفكرية.. وهذا هو ميدان علم الكلام.. والجهد التقريبى - الغائب والمطلوب - هو نزع «الألغام الفكرية - التكفيرية» التى تفصم وحدة الأمة بالتكفير لفريق من الفرقاء أو مذهب من المذاهب؛ لأن التكفير هو نفى للآخر، يفصم وحدة الأمة.. وهو خطر لا علاقة له بالفقه، الذى هو علم الفروع، ولا بالاجتهادات والاختلافات الفقهية، التى هى ظاهرة صحية، تثمر الغنى والثراء فى الأحكام،

واليسر والسعة للأمة كلها في تطبيق هذه الأحكام..

● وإذا كانت هذه «الألغام الفكرية - التكفيرية»، التي تتغذى بها وعليها عقول قطاعات من العلماء في بعض الحوزات العلمية، وفي بعض الدوائر الفكرية السنية.. كما تتغذى عليها نزعات التعصب عند العامة.. إذا كانت هذه «الألغام» قد غدت راسخة، بل و«متكلسة»!.. فإن الموقف الممكن والعملي إزاءها يمكن تصوره فيما يلي:

١ - تحديد نطاق هذه «الألغام الفكرية - التكفيرية».. وأغلبها - لحسن الحظ - نابع من نقل القضايا الخلافية من نطاق «الفروع» إلى نطاق «أصول الاعتقاد»، وتحويلها - من ثم - إلى عوامل «نفي.. وتكفير» للمخالفين..

٢ - اعتماد منهاج وسنة التدرج في تطبيق خطة إزالة هذه «الألغام الفكرية - التكفيرية» من الكتب التراثية، وخاصة الذي يدرّس منها في الحوزات العلمية والجامعات الإسلامية، وذلك بحذفها من الطبعات الجديدة لكتب التراث هذه.. وفق المنهاج المتعارف عليه في «تهذيب» كتب التراث..

٣ - الاتفاق - في إطار حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية - على منع تدريس هذه «الاجتهادات التكفيرية» في الحوزات والجامعات الإسلامية التي تكوّن عقول العلماء في مختلف بلاد الإسلام.. ولنا في منهاج الأزهر الشريف النموذج والقدوة في هذا الميدان، فهو يحتضن كل مذاهب الأمة - الفقهية والكلامية - سلفها وخلفها على حد سواء، مع استبعاد التكفير والتفسيق لأي مذهب من المذاهب أو فرقة من الفرق الإسلامية، حفاظًا على وحدة الأمة، التي هي فريضة إلهية، تعلو فوق اجتهادات المجتهدين ومذاهب المتمذهبين..

وصدق الله العظيم ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]..

ذلك هو الميدان الحقيقي للجهاد الفكري في التقريب بين المذاهب الإسلامية.. إنه علم الكلام.. علم الأصول في الاعتقاد.. وليس علم الفقه والمذاهب الفقهية التي تتخصص في الفروع، واختلافاتها رحمة وسعة، ولا تفسد الود بين المسلمين.

❊ ❊ ❊

عن التعددية.. والآخر الدينى.. والتكفير.. وكتب الضلال

(١)

يؤسس القرآن الكريم لفلسفة إسلامية متميزة فى رؤية الكون.. والحياة.. والعلاقات بين الأحياء.. وفى هذه الفلسفة الإسلامية المتميزة معالم رئيسية، يمكن أن نشير إلى عدد منها.. وذلك من مثل:

أ ـ أن الواحدية والأحدية ـ التى تبلغ قمة التنزيه والتجريد ـ هى فقط للذات الإلهية ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].. فكل ما خطر على بالك، فالله ليس كذلك..

ب ـ وأن التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف هو سنة إلهية كونية مطردة فى سائر عوالم المخلوقات.. من الجماد إلى النبات إلى الحيوان إلى الإنسان وعوالم الأفكار.. وأن هذه التعددية هى فى إطار وحدة الأصل الذى خلقه الله، سبحانه وتعالى.. فالإنسانية التى خلقها الله من نفس واحدة تتنوع إلى شعوب وقبائل وأمم وأجناس وألوان.. وكذلك إلى شرائع فى إطار الدين الواحد.. وإلى مناهج، أى ثقافات وحضارات فى إطار المشترك الإنسانى الواحد، الذى لا تختلف فيه الثقافات.. كما تتنوع إلى عادات وتقاليد وأعراف متمايزة حتى داخل الحضارة الواحدة، بل والثقافة الواحدة.

وهذا التنوع والاختلاف والتمايز ـ فى هذه الفلسفة الإسلامية ـ يتجاوز كونه «حقا» من حقوق الإنسان، إلى حيث هو «سنة» من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل، وآية من آياته، سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم

مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم:٢٢].. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود:١١٨، ١١٩].. وكما يقول المفسرون: «فللاختلاف خلقهم»!..

فالواحدية والأحدية فقط للحق، سبحانه.. والتنوع هو السنة والقانون فى كل عوالم المخلوقات..

جـ ـ وأن هذا التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف ـ الذى هو آية من آيات الله، سبحانه وتعالى ـ له مقاصد عديدة، منها: تحقيق حوافز التسابق على طريق الخيرات بين الفرقاء المتمايزين: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة:٤٨].

ومن هذه المقاصد: فتح أبواب الحرية للاجتهاد والتجديد والإبداع، الذى يستحيل تحقيقه دون تفرد وتمايز واختلاف: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:١٤٨].. ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [الليل:٤]..

د ـ وأن علاقة الفرقاء المتمايزين والمختلفين والمتعددين يجب أن تظل فى إطار الجوامع الموحِّدة.. وعند مستوى التوازن والعدل والوسطية: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].. «فالوسط» ـ بنص الحديث النبوى ـ هو «العدل» ـ الذى يجب أن يحكم علاقات الفرقاء المختلفين ـ «الوسط: العدل. جعلناكم أمة وسطاً» ـ رواه الإمام أحمد.

هـ ـ فإذا اختلت موازين العدل والوسط بين الفرقاء المختلفين والمتمايزين ـ فى الطبقات الاجتماعية.. أو الشرائع الدينية.. أو الفلسفات.. أو الحضارات.. فإن الفلسفة الإسلامية تحبذ طريق «التدافع» ـ الذى هو حراك يعدّل المواقف والمواقع

والاتجاهات، فينتقل بها من مستوى الخلل والظلم والجور والعدوان إلى مستوى العدل والتوازن والوسط والتعايش والتعارف، مع المحافظة على بقاء التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤]..

وهذا «التدافع»، الذى هو وسط بين تفريط «السكون والموات» وبين إفراط «الصراع»، هو المزكى للتعددية، وللتنافس والتسابق على طريق الخيرات.. بينما السكون يفضى إلى الموات للمستضعفين.. كما أن الصراع يفضى إلى نفس النتيجة؛ لأن القوى يصرع الضعيف، فينفرد بالساحة، وينهى التعدد والتمايز والاختلاف ـ على النحو الذى تزكيه «الداروينية» فى عالم الأحياء.. والصراع الطبقى فى الاجتماع.. ونزعة الصدام والصراع بين الحضارات ـ.. ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧، ٨]..

فالتدافع هو الذى يُعَدِّل المواقف الظالمة، مع الحفاظ على التعددية وعلى التنافس والتسابق على طريق الخيرات.. فهو سبيل للإصلاح فى ظل التنوع والتعدد؛ وليس على أنقاض التنوع والتعدد: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١].. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]..

هذا هو موقع التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف فى الرؤية الإسلامية للكون والحياة والعلاقات بين عوالم المخلوقات والأفكار.. ودور هذا التنوع فى التقدم والإصلاح..

وذلك هو تميز الفلسفة الإسلامية بالوسطية الجامعة، عن غيرها من نزعات وفلسفات الدمج القسرى للكل فى واحد.. أو نزعات وفلسفات الصراع، التى تفضى ـ هى الأخرى ـ إلى انفراد طرف واحد ـ هو الأقوى ـ بالساحة والامتيازات!.. فطرفا الغلو يفضى كل منهما إلى ذات النهاية.. وبينهما تتميز الوسطية الإسلامية فى هذا الميدان..

(٢)

● كما يرفض الإسلام نزعة «الصراع» وفلسفته؛ لأنها تفضى إلى إنهاء التنوع والتمايز والاختلاف ـ الذى هو سنة إلهية كونية ـ.. فهو يرفض، كذلك، «النزاع والشقاق»، اللذين يدمران وحدة «الجوامع» التى توحد الأمة، وتجعل من الأفراد جماعة واحدة.. والتى هى مقومات الانتماء الجامع للأفراد.

فالجماعة المسلمة، التى هى ـ فى النظرة الإسلامية ـ وحدة فى إطار التنوع الإنسانى إلى أمم وشعوب ـ قد جمعها الإسلام على جوامع خمسة: فى العقيدة.. والشريعة.. والأمة.. والحضارة.. ودار الإسلام..

وإذا كان التنازع والشقاق يهددان وحدة هذه «الجوامع» ـ ومن ثم يهددان وجود الأمة كأمة، فإن الرؤية الإسلامية تفسح الطريق أمام التنوع والتمايز والاختلاف فى إطار كل جامع من هذه الجوامع الخمسة..

ففى إطار «العقيدة الواحدة»، هناك تصورات فلسفية متمايزة لمسائل من فروع الاعتقاد، نجدها مبثوثة فى مسائل علم الكلام ـ علم التوحيد الإسلامى ـ..

وفى إطار «الشريعة الواحدة» ـ التى هى وضع إلهى ثابت ـ هناك تنوع واختلاف فى المذاهب الفقهية ـ التى هى علم الفروع ـ.. فاجتهادات المجتهد غير ملزمة للمجتهد الآخر، وفى هذا تقنين للتنوع والاختلاف فى إطار مقاصد الشريعة وحدودها وقواعدها وروحها وفلسفتها فى التشريع..

وفى إطار جامع «الأمة الواحدة» هناك تنوع وتمايز واختلاف فى الشعوب والقبائل والأجناس والألوان والألسنة واللغات ـ أى فى القوميات ـ..

وفى إطار جامع «الحضارة الواحدة»، هناك تنوع واختلاف وتمايز فى العادات والتقاليد والأعراف، وفى الثقافات الفرعية أيضًا.

وفى إطار جامع «دار الإسلام»، هناك تنوع وتمايز وتعدد فى الأقاليم والأوطان، يمكن أن يسع تعددية الدول الوطنية والقومية، فى الحدود التى لا تفضى إلى نظام «الجنسية»، الممزق لوحدة دار الإسلام.. والذى تسلل إلى العالم الإسلامى عن «الدولة القومية الأوروبية»، كجزء من تأثيرات التغريب على عالم الإسلام، لتمزيق وحدة دار الإسلام..

فالتنوع فى إطار وحدة الجوامع الخمسة المكونة لمقومات الأمة هو الوسط العدل بين «الدمج» الذى ينفى التنوع، وبين «التمزق والتشرذم والشقاق» الذى يفضى إلى نفى وحدة الأمة.. ولذلك كان هذا التنوع فى الفروع مغايراً للتنازع والشقاق فى الأصول - وهو الذى نهى عنه القرآن الكريم: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦].. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام:٦٥].. ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام:١٥٩]..

فخطأ كبير أن نسمى التنوع فى إطار الوحدة تنازعًا وشقاقًا.. كما أن من الخطأ أن نسمى الخلاف فى الأصول والثوابت والجوامع تعددية وتنوعًا..

* * *

(٣)

وفى دولة النبوة - بالمدينة المنورة - سنّ رسول الله ﷺ ثلاث سنن جسدت فلسفة الإسلام فى العلاقة بالآخر الدينى - الكتابى منه والوضعى: اليهود والنصارى.. والمجوس ومن ماثلهم -.. ولقد صيغت هذه السنن النبوية، المعبرة عن هذه الفلسفة الإسلامية، فى وثائق دستورية، طبقتها دولة النبوة، ورعتها دولة الخلافة الراشدة، وظلت مبادئها مرعية إلى حد كبير عبر تاريخ الحضارة الإسلامية وأوطان عالم الإسلام..

* وأولى هذه الوثائق الدستورية هى «الصحيفة.. الكتاب» - دستور دولة المدينة المنورة، الذى وضعه رسول الله ﷺ عقب الهجرة، وفور إقامة «الدولة» ليحدد حدود الدولة.. ومكونات رعيتها - الأمة -.. والحقوق والواجبات لوحدات الرعية، بمن فيهم الآخر الدينى - اليهود العرب وحلفاؤهم العبرانيون - وليحدد كذلك المرجعية الحاكمة للدولة ورعيتها..

وفى هذه الوثيقة الدستورية تحدثت موادها - التى زادت على الخمسين مادة - عن التنوع الدينى فى إطار الأمة الوليدة والدولة الجديدة، وعن المساواة بين الفرقاء المتنوعين، فقالت عن العلاقة بين المسلمين واليهود - أى عن التنوع الدينى فى

إطار وحدة الأمة: «.. ويهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم.. وأن بطانة يهود كأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ - [يهلك] - إلا نفسه وأهل بيته.. ومن تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، غير مظلومين ولا مُتَنَاصَرٍ عليهم.. ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.. على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم.. وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم..» - [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة] ص١٥ - ٢١ - طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م -..

فكانت هذه الوثيقة الدستورية، أول «عقد اجتماعي وسياسي وديني» - حقيقي وليس مفترضا ومتوهما! - لا يكتفي بالاعتراف بالآخر، وإنما يجعل الآخر جزءاً من الرعية والأمة والدولة - أي جزءاً من الذات - له كل الحقوق، وعليه كل الواجبات، وذلك في زمن لم يكن فيه طرف يعترف بالآخر على وجه التعميم والإطلاق!..

● أما الوثيقة الدستورية الثانية، فهي خاصة بالعلاقة مع الآخر النصراني، وضعها رسول الله ﷺ لنصارى نجران - عهداً لهم ولكل المتدينين، بالنصرانية عبر المكان والزمان - وذلك عند أول علاقة بين الدولة الإسلامية وبين المتدينين بالنصرانية.. وفي هذا العهد الدستوري كتب رسول الله ﷺ: «لنجران وحاشيتها، وسائر من ينتحل دين النصرانية في أقطار الأرض: جوار الله، وذمة محمد رسول الله، على أموالهم، وأنفسهم، وملتهم، وغائبهم وشاهدهم، وعشيرتهم، وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير.. أن أحمي جانبهم، وأذب عنهم، وعن كنائسهم وبيعهم وبيوت صلواتهم، ومواضع الرهبان، ومواطن السياح.. وأن أحرس دينهم وملتهم أين كانوا بما أحفظ به نفسي وخاصتي وأهل الإسلام من ملتي.. لأني أعطيتهم عهد الله على أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم.. حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم»!. - [مجموعة الوثائق السياسية - للعهد النبوي والخلافة الراشدة] ص١٢٣ - ١٢٨ -..

فبلغت هذه الوثيقة ـ التى أشرنا إلى سطور من صفحاتها ـ فى الاعتراف بالآخر الدينى، والقبول به، والتكريم له، والتمكين لخصوصياته، والاندماج معه، ما لم تبلغه وثيقة أخرى عبر تاريخ الإنسانية ـ القديم منه.. والوسيط.. والحديث.. والمعاصر أيضاً ـ.. مع ميزة كبرى، وهى جعلها لهذا التنوع والاختلاف فى إطار وحدة الأمة، تجسيداً لفلسفة الدين الإسلامى فى العلاقة بالآخر، وليس على أنقاض الدين ـ كل دين ـ كما هو الحال مع الوثائق الوضعية العلمانية التى تؤسس للعلاقات بين المختلفين!..

● أما السنة النبوية الثالثة، التى قننت للعلاقة بالآخر الدينى، فلقد مدت نطاق الآخر إلى أهل الديانات الوضعية؛ فعاملتهم معاملة أهل الديانات الكتابية.. ولقد بدأ تطبيق دولة الخلافة الراشدة لهذه السنة عندما دخل المتدينون بالمجوسية فى إطار الرعية الواحدة لدولة الخلافة الراشدة ـ على عهد الراشد الثانى عمر بن الخطاب [٤٠ق هـ ـ ٢٣هـ ٥٨٤ ـ ٦٤٤م] ـ فلقد عرض عمر هذا الواقع الجديد ـ الموقف من المجوس ـ على مجلس الشورى ـ مجلس السبعين ـ الذى كان يجتمع بمسجد النبوة، بمكان محدد، وأوقات منتظمة ـ.. وسأل عمر:

ـ كيف أصنع بالمجوس؟

فوثب عبد الرحمن بن عوف [٤٤ق هـ ـ ٣٢هـ ٥٨٠ ـ ٦٥٢م] فقال:

ـ أشهد على رسول الله ﷺ أنه قال: «سُنُّوا فيهم سنة أهل الكتاب» ـ [البلاذرى «فتوح البلدان» ص٣٢٧ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م]..

فعومل أهل الديانات الوضعية ـ كل الديانات الوضعية ـ معاملة الكتابيين، عبر تاريخ حضارة الإسلام.. تأسيساً على السنن النبوية الثلاث، التى قننت لذلك، التنوع والاختلاف، منذ دولة المدينة المنورة، على عهد رسول الله ﷺ وحتى أحدث الاجتهادات فى الفقه الإسلامى المعاصر..

* * *

(٤)

منذ القرن الهجرى الأول ضمت الدولة الإسلامية أوطانًا وديارًا وأقاليم امتدت من «غانة» غربًا إلى «فرغانة» شرقًا، ومن حوض نهر الفولجا فى الشمال إلى جنوبى خط الاستواء.. كما ضمت شعوبًا وقبائل وأجناسًا وألوانًا ولغات وقوميات وديانات وفلسفات ومذاهب جسدت كل ألوان أطياف التنوع والاختلاف الذى عرفه الإنسان فى ذلك التاريخ..

ولقد تعاقب على حكم الخلافة الإسلامية، والدول التى تفرعت عنها وورثت سلطانها ألوان من الخلفاء والسلاطين والولاة، منهم الصالح ومنهم الطالح، ومنهم العادل ومنهم الجائر، ومنهم الذى جمع بين المتناقضات..

ولا يتصور عاقل أن تاريخًا بهذا الطول ـ قرابة خمسة عشر قرنًا ـ لأمة بهذا التنوع، وعالم بهذا الاتساع، وفى ظل تحديات خارجية شرسة، يمكن أن يخلو هذا التاريخ عن التوترات الدينية بين الفرقاء الذين عاشوا على أرض الإسلام.. لكن النظر إلى هذه التوترات الدينية ـ التى تمثل خروجًا عن السنة النبوية التى تقررت منذ دولة الإسلام الأولى فى المدينة المنورة ـ يجب أن يكون فى حجمها الحقيقى.. وفى إطار مقارنتها بما كانت عليه الحضارات الأخرى، التى تجاوزت النفى المعنوى للآخر، إلى إبادته، وإعلان الحروب الدينية عليه، بل وعلى الآخر المذهبى فى إطار الدين الواحد ـ كما حدث بين البروتستانت والكاثوليك فى الحروب الدينية الأوروبية، التى دامت أكثر من قرنين، وأبيد فيها ٤٠٪ من شعوب وسط أوروبا!.. والحروب بين البيض والسود فى أمريكا ـ.. وفوق ذلك ومعه، يجب النظر إلى هذه التوترات الدينية والطائفية فى إطار الأسباب الحقيقية التى ولّدت وقائعها وأحداثها..

ولعل شهادة العلماء والباحثين غير المسلمين أن تكون خير شاهد من أهلها على حقيقة حجم هذه التوترات وأسبابها:

● فالعالم الإنجليزى الحجة «سير توماس أرنولد» [١٨٦٤ ـ ١٩٣٠م] يشهد للحرية الدينية التى قررها الإسلام وحضارته، والتى وسعت التنوع والاختلاف، وأتاحت إنقاذ النصرانية الشرقية من الإبادة الرومانية البيزنطية، حتى ليمكن القول

إن بقاء النصرانية الشرقية هو «هبة الإسلام»!.. يشهد «السير توماس أرنولد» على هذه الحقيقة، فيقول: «إنه من الحق أن نقول: إن غير المسلمين قد نعموا - بوجه الإجمال - في ظل الحكم الإسلامي، بدرجة من التسامح لا نجد معادلاً لها في أوربا قبل الأزمنة الحديثة.. وإن دوام الطوائف المسيحية في وسط إسلامي يدل على أن الاضطهادات التي قاست منها بين الحين والآخر على يد المتزمتين والمتعصبين كانت من صنع الظروف المحلية، أكثر مما كانت عاقبة مبادئ التعصب وعدم التسامح».. [الدعوة إلى الإسلام] ص٧٢٩، ٧٣٠ - طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م]..

● والعالم الألماني الحجة «آدم متز» [١٨٦٩ - ١٩١٧م] يتحدث عن دور غير المسلمين في إدارة دواوين الدولة الإسلامية، عبر التاريخ الإسلامي، فيقول: «لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام»! - [الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري] جـ١ ص١٠٥ - طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م..

● أما الباحث والمؤرخ المسيحي اللبناني «جورج قرم»، فإنه يرجع التوترات الدينية والطائفية - العابرة والمحدودة - التي شهدها التاريخ الإسلامي، إلى عوامل ثلاثة، هي:

- المزاج الشاذ لبعض الحكام الشواذ، الذين حكموا بعض البلاد الإسلامية لبعض الوقت، والذين اضطهدوا الأقليات - كجزء من اضطهادهم العام للرعية كلها!..

- وصلف الوزراء والجباة والقادة غير المسلمين، واستعلاؤهم على جمهور المسلمين، وثراؤهم المستفز، وظلمهم واضطهادهم لعامة الفقراء المسلمين؛ الأمر الذي ولّد ردود أفعال طائفية لم تقف عند الذين ظلموا من أبناء هذه الأقليات خاصة!.. وإنما عمت البلوى جماهير الأقليات!..

- أما العامل الثالث، فهو غواية الاستعمار الأجنبي - الصليبي.. والتترى.. والإنجليزي.. والفرنسي - لقطاعات من أبناء الأقليات، كي تمالئ الغزاة، وتخون أمتها ووطنها.. ونجاح هذه الغوايات الاستعمارية في كثير من الأحيان.. الأمر الذي ولّد ردود أفعال عنيفة ضد أبناء هذه الأقليات التي وقعت في شباك الغوايات!..

يفصّل الباحث والمؤرخ النصراني اللبناني "جورج قرم" هذه الأسباب للتوتر الديني والطائفي، فيقول:

"إن فترات التوتر والاضطهاد لغير المسلمين في الحضارة الإسلامية كانت قصيرة، وكان يحكمها ثلاثة عوامل:

العامل الأول: هو مزاج الخلفاء الشخصي، فأخطر اضطهادين تعرض لهما الذميون وقعا في عهد المتوكل العباسي [٢٠٦ ـ ٢٤٧هـ ٨٢١ ـ ٨٦١م] الميال بطبعه إلى التعصب والقسوة. وفي عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي [٣٧٥ ـ ٤١١هـ ٩٨٥ ـ ١٠٢١م] الذي غالى في التصرف معهم بشدة.

والعامل الثاني: هو تردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لسواد المسلمين، والظلم الذي يمارسه بعض الذميين المحتلين لمناصب إدارية عالية، فلا يعسر أن ندرك صلتهما المباشرة بالاضطهادات التي وقعت في عدد من الأمصار الإسلامية..

أما العامل الثالث: فهو مرتبط بفترات التدخل الأجنبي في البلدان الإسلامية، وقيام الحكام الأجانب بإغراء واستدراج الأقليات الدينية غير المسلمة إلى التعاون معهم ضد الأغلبية المسلمة.. فنهايات الحملات الصليبية قد أعقبتها، في أماكن عديدة، أعمال ثأر وانتقام ضد الأقليات المسيحية التي تعاونت مع الغازي.. ولم يحجم الحكام الأجانب ـ من الإنجليز والفرنسيين ـ عن استخدام الأقليات الدينية ـ في مصر وسوريا ـ الأمر الذي أثار قلاقل دينية خطيرة بين النصارى والمسلمين" [تعدد الأديان ونظام الحكم] ص٢١١ ـ ٢٢٤ طبعة بيروت سنة ١٩٧٩م..

هذا هو حجم التوترات الدينية في التاريخ الإسلامي.. وتلك هي أسباب هذه التوترات، كما شهد بها المنصفون من العلماء والباحثين غير المسلمين..

ومن يقرأ ما كتبه المقريزي [٧٦٦ ـ ٨٤٥هـ ١٣٦٥ ـ ١٤٤١م] في كتابه [السلوك لمعرفة دول الملوك] عن غوايات التتار لنصارى دمشق.. وردود الأفعال لهذه الغوايات.. وما كتبه الجبرتي [١١٦٧ ـ ١٢٣٧هـ ١٧٥٤ ـ ١٨٢٢م] في كتابه [عجائب الآثار] عن غواية الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م لقطاع من

النصارى.. وما مثله ذلك من توترات طائفية.. من يقرأ ذلك يجد مصداق هذه الشهادات التى شهد بها هؤلاء الباحثون غير المسلمين..

* * *

(٥)

● لا يستطيع منصف أن ينكر وجود ما يمكن تسميته «حرب الفتاوى الدينية»، التى تستخدم فى المعارك الفكرية، فى بعض المجتمعات الإسلامية.. والتى تستخدم «سلاح التكفير» لنفى الخصوم الفكريين ومطاردتهم، وربما محاولة «إعدامهم معنويًا» وأحيانا ماديًا!..

حدث هذا فى تاريخنا القديم.. والوسيط.. والحديث.. والمعاصر أيضًا..

لكننا يجب أن نضع هذه «الظاهرة» السلبية - على فرض كونها «ظاهرة» - فى حجمها الطبيعى.. وفى إطار ملابساتها وأسبابها أيضًا.. وذلك حتى نكون منصفين لمختلف الفرقاء الذين يتصارعون حول هذه النزعة الفكرية التكفيرية..

ذلك أن الفكر الوسطى المعتدل، الذى يمثل حقيقة الإسلام، والذى تنتمى إليه الجماهير العريضة من الأمة، هو فكر برىء من هذه الظاهرة المؤسفة.. فقديمًا أفاض حجة الإسلام أبو حامد الغزالى [٤٥٠ - ٥٠٥هـ ١٠٥٨ - ١١١١م] فى نقد هذه النزعة التكفيرية، عندما حذّر «من تكفير الفرَق، وتطويل اللسان فى أهل الإسلام، وإن اختلفت طرقهم، ما داموا متمسكين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله، صادقين بها غير مناقضين لها.. لأن الكفر حكم شرعى.. لا يُدْرَكُ إلا بِمُدْرَك شرعى، من نص أو قياس على منصوص.. ولا يلزم كفر المُؤَوِّلين ما داموا يلازمون قانون التأويل.. وأصول الإيمان ثلاثة، هى: الإيمان بالله، وبرسوله، وباليوم الآخر، وما عداه فروع.. ولا تكفير فى الفروع أصلاً، إلا فى مسألة واحدة وهى أن ينكر أصلاً دينيًا عُلم من الرسول ﷺ بالتواتر.. فالتكفير فيه خطر، والسكوت لا خطر فيه.. والخطأ فى ترك ألف كافر فى الحياة أهون من الخطأ فى سفك محجمة من دم مسلم.. والمبادرة إلى التكفير إنما تغلب على من يغلب عليهم الجهل.. وأكثر الخائضين فى هذا التكفير إنما يحركهم التعصب واتباع الهوى دون النظر للدين.. والعصمة للدم مستفادة من قول لا إله إلا الله قطعًا، فلا يدفع ذلك إلا بدليل

قاطع..» [فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة] ص٤ ـ ٧ طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧م. و[الاقتصاد في الاعتقاد] ص١٤٣، ١٤٤. طبعة مكتبة صبيح ـ القاهرة ـ بدون تاريخ..

ولقد ظل هذا الموقف الفكرى، الوسطى والمعتدل، والمعبر عن حقيقة الموقف الإسلامى، هو التيار السائد لدى أغلب الأمة الإسلامية، على مر تاريخها الحضارى، وخاصة فى حقب الاجتهاد والتجديد والازدهار الحضارى.. حتى رأيناه سمة بارزة فى فكر مدرسة الإحياء والتجديد بالعصر الحديث.. وها هو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] يعبر عن هذا الفكر الوسطى المستنير، الرافض للمسارعة فى التكفير، فيقول: «أصلٌ من أصول الأحكام فى الإسلام: البعد عن التكفير.. ولقد اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد دينهم أنه إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حُمل على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر.. فهل رأيت تسامحًا مع أقوال الفلاسفة الحكماء أوسع من هذا؟ وهل يليق بالحكيم أن يكون من الحمق بحيث يقول قولاً لا يحتمل الإيمان من وجه واحد من مائة وجه؟!.. إذا بلغ به الحمق هذا المبلغ كان الأجدر به أن يذوق حكم محكمة التفتيش البابوية، ويؤخذ بيديه ورجليه فيلقى فى النار»! ـ [الأعمال الكاملة] جـ٣ ص٣٠٢. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

ويضاف إلى هذا الأصل من أصول الأحكام فى الإسلام، أصل آخر اتفق عليه جمهور علماء الأمة، وهو أن التكفير إنما يتوجه إلى «المقولة.. والرأى» ولا يتوجه إلى «القائل» لهذه المقولة الكافرة، إذ ربما كان لهذا القائل للمقولة الكافرة تأويل ـ حتى ولو كان تأويلاً فاسدًا ـ يدرأ عنه، تهمة الكفر والمروق من الدين.

هذا هو الموقف الحقيقى لحقيقة موقف الإسلام من «نزعة التكفير»، كما عبر عنها التيار الوسطى فى الفكر الإسلامى، المعبر عن جمهور الأمة، عبر تاريخ الإسلام.. والمنطلق من أصول وثوابت الإسلام كما عبر عنها القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة التى طبقت وبينت هذا القرآن الكريم.. فلقد عاش رسول الله ﷺ فى مجتمع كان فيه الذين آمنوا أول النهار وكفروا آخره ـ والذين

آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾ [آل عمران: ٧٢]. . ﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً﴾ [النساء: ١٣٧]. . ومع كل ذلك لم يقم رسول الله ﷺ عليهم عقوبة دنيوية، لأنه ﴿لا إكراه في الدين﴾ [البقرة: ٢٥٦] أي أن الدين لا يتأتى بالإكراه، والإكراه لا يثمر إيمانًا، وإنما ثمرته النفاق!. .

أما الحديث - الذي رواه الإمام أحمد - وهو حديث آحاد - ظني الثبوت - فإنه يتحدث عن إقامة الحد على «التارك لدينه، المفارق للجماعة» أي المرتكب لجريمة الحرابة، والخروج على الأمة، والانحياز إلى أعدائها إبان الحرب والصراع. . ولذلك كانت إقامة رسول الله ﷺ لحد الردة، فقط على من نزلت فيهم آية حد الحرابة ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ [المائدة: ٣٣].

فكل الآيات التي جاء فيها ذكر الذين كفروا بعد إيمانهم، ذكرت الجزاء الأخروي على هذه الردة عن الإيمان. . إلا آية الحرابة هذه فإنها قد ذكرت عقوبة دنيوية مع العقوبة الأخروية، وهي قد نزلت في الذين لم يرتدوا عن الإيمان الإسلامي فقط، وإنما ارتكبوا جريمة مركبة، عندما أضافوا إلى ردتهم سرقة الإبل، والقتل والتمثيل بعمال إبل الصدقة. . - [ابن رشد «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» جـ٢ ص٤٩٢، ٤٨٨. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٤م] -. .

ولذلك، جاء تصنيف الفقهاء «لباب الردة» ضمن «كتاب الحرابة»، للدلالة على هذا الموقف الإسلامي الأصيل من نزعة التكفير. . وجاء الاتفاق على أن المرأة المرتدة لا يقام عليها الحد، لأنها غير مقاتلة. . وردتها مجرد اختيار فكري.

أما الجهلة - كما سماهم أبو حامد الغزالي - الذين يبادرون ويسارعون إلى التكفير - من بين المسلمين - فإنهم - سواء بالأمس أو اليوم - إنما يمثلون قلة من بين الفرق والتيارات التي تمثل الأقليات في فرق الإسلام. . وما علو أصوات

الذين يفتون بالتكفير ونفى الآخر إلا من شذوذ آرائهم ومواقفهم هذه، وليس بسبب الوزن الذى يتمتعون به أو يمثلونه بين جماهير المسلمين.. وأيضًا بسبب الأضواء الإعلامية، الغربية والمحلية، التى لا تتوجه إلا ناحية «العورات الفكرية»، كى تشوه كامل صورة الفكر الإسلامى، بل والإسلام أيضًا!..

والناظر فى واقع العالم الإسلامى يرى مصداق ذلك فى حقل الإفتاء.. فالتكفير لا يسارع إليه إلا الجهلة.. أو المتعصبون من بعض الرموز الفكرية لبعض الأقليات المذهبية فى عالم الإسلام.. وأعرق الجامعات الإسلامية وأشهرها وأوسعها انتشارا وتأثيراً ـ وفى مقدمتها الأزهر الشريف ـ بريئة من هذه «العورة الفكرية»، بما تمثله وتشيعه هذه الجامعات من الفكر الوسطى المعبر عن حقيقة الإسلام فى هذا المقام.. ومع هذه الجامعات فى هذا النهج أوسع الحركات الإسلامية انتشارا وتأثيرا بين جماهير المسلمين..

* * *

(٦)

هناك أسباب عدة لظاهرة «نفى الآخر» لدى بعض الجماعات الإسلامية، ولاستخدام هذه الجماعات ـ أحيانًا ـ «سلاح التكفير» للحكام أو المجتمعات، أو حتى للجماعات الإسلامية الأخرى، بهدف «نفي الآخرين»، ومحاولة «إعدامهم» معنويًا بهذا التكفير.. وفى مقدمة هذه الأسباب:

١ ـ التفسير الحرفى والجامد لفتاوى تراثية، صدرت ضد أعداء الأمة الإسلامية، الغزاة لدار الإسلام، والمدمرين للحضارة الإسلامية ـ مثل فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨م] فى التتار ـ ونقل هذه الفتاوى إلى واقعنا المعاصر، مع تجريدها من سياقها التاريخى، وأسبابها الموضوعية، وملابساتها الفكرية والحضارية.. وبذلك يتم نقل هذا «السلاح» من جبهة الصراع الدينى والحضارى والتناقضات الرئيسية والعدائية مع الأعداء إلى جبهة التدافع الداخلى والتناقضات الثانوية غير العدائية حول الفروع ـ تلك التى قال عنها حجة الإسلام أبو حامد الغزالى [٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م]: «إنه لا شىء فيها يستوجب التكفير»..

كما أن فى نقل هذه الفتاوى ـ مع إغفال ملابسات زمانها ومكانها وأسبابها ـ خلطًا بين «الفتوى»، وهى رأى غير ملزم، وبين ثوابت الدين، التى هى وضع إلهى ثابت عبر الزمان والمكان..

٢ ـ وقوع جماعات التكفير هذه نفسها فى دائرة النفى ـ أى التكفير ـ من قبل خصومها الآخرين، الذين قد يكونون حكومات تحرم هذه الجماعات من حقها فى التعبير والتنظيم.. الأمر الذى يساعد على أن تبادل هذه الجماعات خصومها نفيًا بنفى وتكفيرًا بتكفير!..

ويشهد على دور هذا السبب أن أغلب «فتاوى» التكفير فى واقعنا المعاصر إنما نشأت من جماعات تعرضت لابتلاء السجون والمعتقلات والقهر والتعذيب.. أو من دوائر فكرية تتعرض لحصار فكرى وسياسى ظالم، يدفعها إلى الرفض والنفى والتكفير للآخرين الذين يفرضون عليها الحصار والنفى والتكفير!..

٣ ـ حالات القهر الحضارى التى مارسها ويمارسها الاستعمار الغربى، والغزو الفكرى والاستلاب الحضارى ضد الإسلام والهوية الإسلامية؛ الأمر الذى يدفع جماعات إسلامية إلى الحكم بالجاهلية والكفر على القوى والحكومات والتيارات الفكرية التى تمارس هذا القهر الحضارى للهوية الإسلامية..

ولقد كان هذا العامل وراء فكر العلامة أبى الأعلى المودودى [١٣٢١ ـ ١٣٩٩هـ ١٩٠٣ ـ ١٩٧٩م] الذى حكم فيه بالجاهلية والكفر على الحضارة الغربية الاستعمارية وعلى قوى القهر الحضارى للهوية الإسلامية وللأقلية المسلمة فى شبه القارة الهندية ـ قبل استقلال باكستان سنة ١٩٤٧م ـ.. فكان التكفير، والوصف بالجاهلية ـ فى فكر المودودى ـ نابعًا من رد الفعل ضد السحق الحضارى الذى مارسه الإنجليز والهندوس ضد مقومات الهوية الحضارية الإسلامية للمسلمين فى شبه القارة الهندية..

٤ ـ ثم هناك ـ على الجبهة الفكرية ـ الفهم القاصر والمغلوط لبعض المرويات والمأثورات، وفى مقدمتها حديث الفرقة الناجية: «ستفترق أمتى على نيف وسبعين فرقة، الناجية منها واحدة» ـ رواه الترمذى وابن ماجه والإمام أحمد ـ..

فكثير من الذين يشهرون «سيف التكفير» ضد خصومهم، ينطلقون من اعتبار

أنفسهم «الفرقة الناجية»، وأن من عداهم هم الفرق الهالكة! . .

ولمواجهة هذا الفهم القاصر ـ بل والمنحرف ـ لهذا الحديث، يجب التنبيه إلى عدد من الحقائق التى يغفل عنها أصحاب هذا الفهم القاصر والمنحرف. . وفى مقدمتها:

أ ـ أن هذا الحديث يتحدث عن الافتراق فى صفوف الأمة. . أى أن كل فرقاء هذا الافتراق هم فى إطار أمة الإسلام. . أمة محمد ﷺ ـ «أمتى» ـ. . فليس فى هذه الفرق ـ النيِّف والسبعين ـ هالك، بمعنى الهلاك الذى يمثله الكفر والخروج من ملة الأمة الإسلامية. .

ب ـ أن لهذا الحديث روايات أخرى، منها رواية تقول: «إن الهالكة من هذه الفرق ـ [النيف والسبعين] ـ واحدة» والنجاة لكل الفرق الأخرى. .

جـ ـ كما أن لكل من «النجاة» و«الهلاك» تفسيرات أكثر قربًا من المنطق المعقول. . وذلك من مثل التفسير الذى أورده حجة الإسلام أبو حامد الغزالى [٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م] فى كتابه [فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة] والذى قال فيه: إن الفرقة الناجية هى التى ستدخل الجنة بغير حساب، بينما سائر الفرق الأخرى ـ من الأمة الإسلامية ـ ستدخل الجنة بعد أن تستوفى الحساب والجزاء. . أما الهلاك، بمعنى التأبيد والخلود الأبدى فى النار، فلا يكون إلا للمكذبين بأصول الإيمان، الخارجين عن إطار الأمة الإسلامية، وإطار فرقها جميعًا. .

د ـ أن هذا الحديث يتنبأ بافتراق الأمة إلى نيف وسبعين فرقة، كما افترقت اليهود إلى نيف وسبعين فرقة، وكما افترقت النصارى إلى نيف وسبعين فرقة. . وباستقراء الواقع التاريخى لفرق اليهودية والنصرانية والإسلام لا نجد لهذا العدد ـ الذى ذكر فى الحديث ـ علاقة بالواقع الذى عليه الافتراق فى أبناء هذه الديانات الثلاث. . ـ [د. محمد عمارة «تيارات الفكر الإسلامى» ص٣٥١ ـ ٣٥٨ طبعة بيروت سنة ١٩٨٥م] ـ. .

الأمر الذى يجعل «للدراية» مجالاً فى هذا الحديث ـ الذى هو من أحاديث الآحاد، ظنية الثبوت ـ. .

هـ ـ وإذا كان هذا هو «منطق الدراية» في التعامل مع هذا الحديث ـ وأمثاله من المأثورات ـ فإن «منطق الرواية» مع هذا الحديث شأنا يدعو الذين ينطلقون منه لاستخدام «سلاح التكفير» إلى مراجعة ما لديهم من تفسيرات خاطئة ومنحرفة فى هذا المقام. خصوصًا وأن هذا الحديث ـ برواياته المختلفة ـ وأحيانا المخالفة ـ مثل «ستفرق أمتى إلى فرقتين» ـ لم يرد فى أى من صحيح البخارى وصحيح مسلم. ولم تجز أى من رواياته على شروط الصحة المعتبرة فى الصحاح من كتب الحديث النبوى الشريف...

* * *

كما أن علينا أن ننتبه إلى تأثيرات موقف الغرب الاستعمارى من الشرق الإسلامى ـ ومن الحضارات غير الغربية عمومًا ـ عبر تاريخ الاحتكاك بين الغرب والشرق والشمال والجنوب.. تأثيرات الموقف الغربي هذا ودوره فى إفراز فكر «الفرقة الناجية»، كردود أفعال شرقية لهذا الموقف الغربى..

فالغرب الإغريقى ـ الذى استعمر الشرق، بقيادة الإسكندر الأكبر [٣٥٦ ـ ٣٢٤ق م] فى القرن الرابع قبل الميلاد ـ كان يرى فى القلة اليونانية من الملاك والفرسان أنهم وحدهم هم الأشراف المتحضرون، الذين لهم وحدهم ديموقراطية أثينا وكل الحقوق والامتيازات.. أما كل من عدا هذه القلة فهم برابرة وهمج، ليست لهم أية حقوق! أى أن هذه القلة من الملاك والفرسان والأشراف هم وحدهم الفرقة الناجية ـ بمعايير النجاة الحضارية عند الإغريق ـ!

ولقد سار الغرب الرومانى ـ الذى مد عمر القهر الاستعمارى والحضارى للشرق عشرة قرون ـ حتى الفتح التحريرى الإسلامى للشرق فى القرن السابع الميلادى ـ سار هذا الغرب الرومانى على طريق الغرب الإغريقى فى هذه النزعة العنصرية فصنف من عدا السادة الرومان فى عداد البرابرة الهمج المتوحشين، الذين لا حق لهم حتى فى أن يُحكموا بالقانون الرومانى ـ قانون السادة الرومان! ـ ولذلك مارس الرومان هم أيضًا «نزعة الفرقة الناجية» فى نفى من عداهم من الديانات والقوميات والمذاهب والفلسفات!.

وعلى ذات الدرب العنصرى سارت الحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة، عندما

دفعتها «نزعتها المركزية» إلى أن ترى فى ذاتها وحدها الحضارة العالمية والإنسانية والمتمدنة الوحيدة، فسعت إلى فرض نموذجها على الآخرين، بدعوى «تمدينهم.. وتحضيرهم!»، معتبرة تدميرها للبنى الثقافية والمواريث الحضارية للأمم والشعوب التى استعمرها الغرب «رسالة حضارية» للرجل الأبيض!.. ومن أبى الانصياع لذلك، صنفته فى عداد الأعداء غير المتمدنين، الذين لا حرمة لمواريثهم الثقافية، ولا حق لهم فى خصوصية التمايز عن الغربيين!..

وهذا الذى مارسه الاستعمار الغربى مع حضارات البلاد التى ابتليت به منذ أكثر من قرنين من الزمان.. هو ذاته الذى تصاعدت بوتيرته وحدته «العولمة الأمريكية» فى وقتنا الراهن، عندما أعلنت وتعلن أن المبادئ الأمريكية - التى أعلنت مع الاستقلال الأمريكى - لا تقف عند حدود أمريكا - بل لابد من عولمتها - سلمًا أو حربًا.. طواعية أو كرهًا - الأمر الذى جعل هذه «الأمركة» تأخذ الصورة المعاصرة «للفرقة الناجية» التى تسعى لفرض نموذجها على العالم، وخاصة عالم الإسلام، الذى رأت فيه منعة واستعصاء على «ليبراليتها.. وحداثتها.. وعلمانيتها»..

وفى هذه النزعة العنصرية من نزعات تعصب «الفرقة الناجية» ما يزكى ردود الأفعال لدى فرق وتيارات وجماعات فى عالم الإسلام.. بل وحتى فى إطار الكنفوشيوسية الصينية والأرثوذكسية الروسية ضد المفاهيم الغربية لحقوق الإنسان.. وضد مذاهب دينية تريد أمريكا أن تبشر بها فى فضاءات هذه الحضارات والقوميات..

تلك هى أهم العوامل المزكية للتعصب.. ولنفى الآخر.. سواء أكان فى إطار الفعل أم فى إطار ردود الأفعال.

* * *

(٧)

هناك جدل كبير يدور فى عدد من المجتمعات الإسلامية حول الموقف من الكتب التى يسميها البعض [كتب الضلال].. وخاصة فى ظل ثورة وسائل الاتصالات والمعلومات، التى جعلت حجب هذه الكتب ومصادرتها أمراً

مستحيلا.. بل والتى جعلت من هذا الحجب وهذه المصادرة سبلا لإذاعة أفكار هذه الكتب على نحو أكثر شيوعًا، بدلاً من حجبها ومصادرتها!..

وفي الموقف من هذه الكتب ـ المسماة من قبل البعض [كتب الضلال] ـ يجب التمييز بين مستويات «الضلال» في هذه الكتب، وأن يكون هذا التمييز بواسطة المؤسسات العلمية ذات المصداقية في وسطيتها وموضوعيتها واعتدالها.. وأن يكون الحكم ـ بعد هذا التمييز العلمي ـ للقضاء المؤهل، علما وعدالة وحيادًا، للفصل في مثل القضايا الفكرية التي احتوتها هذه الكتب. على أن يكون الحكم، في كل الأحوال، على «المقولات» وليس على «قائليها»، إذ قد تكون لديهم تأويلات ـ حتى ولو كانت فاسدة ـ هي التي دفعتهم إلى قول «مقولات الضلال» هذه.. الأمر الذي يدرأ عنهم القصد إلى تعمد إشاعة الضلال في المجتمعات التي يعيشون فيها..

وعلى المؤسسات الفكرية، وعلى دوائر القضاء أن تلتزم بالمنهاج القرآنى الذى اختار طريق الحوار مع مقولات الشرك والكفر والضلال، والتفنيد لهذه المقولات، حتى أصبحت آيات قرآنية نتلوها ونتعبد بها ونتقرب بواسطتها إلى الله، سبحانه وتعالى. وبذلك رفض هذا المنهاج القرآنى طريق المصادرة والحجب لمقولات الضلال.. بل ونبهنا على أن المشركين هم الذين كانوا ينهجون نهج المصادرة للمقولات التى لايؤمنون بها: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ٢٦ ـ ٢٨].

أما المنهاج القرآنى، الرافض للمصادرة، والمعادى لحجب مقولات الضلال، فإنه لم يكتف بسماع تلك المقولات وتفنيدها.. وإنما كان يستنطق أصحابها كى يفصحوا عنها: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].. ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي

مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤]..

فالمنهاج القرآنى لا يصادر «مقولات الضلال».. بل يستنطق أصحابها لينطقوا بها، ثم يتولى الحوار معها والتفنيد لها بالمنطق العلمى والمنهاج العقلى الذى شاع فى حوارات القرآن الكريم مع كل ألوان الخصوم..

* * *

على أن هناك درجة من «مقولات الضلال» وكتبها، تلك التى لا تقف عند التعبير عن الاجتهادات الخاطئة والتأويلات الفاسدة، وإنما تدخل فى مخططات الحرب المعلنة على الإسلام وثوابته ومنظومة قيمه وعلى أمته وعالمه، سواء منها مخططات التنصير للمسلمين أو الهيمنة السياسية والحضارية على ديار الإسلام.. فإذا دخلت «مقولات الضلال وكتبها» فى إطار هذه المخططات كانت لونا من ألوان الحرب والحرابة التى يجب على المؤسسات الإسلامية ـ السياسية والعلمية ـ أن تحمى مقومات الاجتماع الإسلامى والعقائد الإسلامية من الآثار الضارة والمفاسد المحققة لهذه المقولات التى تحملها كتب الضلال.. ولا عبرة بكون هذه الكتب ستوضع فى مواضع النشر والإذاعة المفتوحة للعالم ـ مثل شبكة المعلومات العالمية ـ حتى لو صودرت فى دار الإسلام ـ ففارق بين السموم التى ينفثها الأعداء رغما عنا، وبين أن نروج نحن لتجرع هذه السموم.. وفارق بين نظرة القارئ العام لمقولات جرمتها مؤسساتنا العلمية والسياسية وبين ذات المقولات إذا كانت موضع الرضا من هذه المؤسسات.. ذلك أن رفض البلوى هو موقف مبدئى، حتى ولو كان عموم هذه البلوى واقعًا مفروضًا على الناس!..

* * *

(٨)

فى الموقف من الثقافات التى تنتشر على النطاق العالمى، وفى إطار الحضارات غير الإسلامية، هناك مواقف ثلاثة، لكل واحد منها أنصار ومحبذون:

وأول هذه المواقف: هو موقف المثقف «خالى الشغل»!.. ذلك الذى يمثل

عقله صفحة بيضاء خالية من الموقف والخصوصية والذاتية الحضارية، تنطبع عليها كل ألوان الوافد والمستورد، حتى لكأن عقله هذا مكتب من مكاتب الاستيراد، التى تعيش بها وعليها طبقة «الكومبرادور» الطفيلية ـ التى لا علاقة لها بالإنتاج الوطنى والقومى، ولا علاقة لعقولها بالإبداع الفكرى والثقافى والحضارى. . وأصحاب هذا الموقف قد عطلوا الملكات الإبداعية التى خلقها الله لهم، فذبلت فيهم هذه الملكات من كثرة ما تعودوا على الاستيراد والتقليد والتبعية لما هو وافد ومستورد من الأفكار والنظريات والثقافات.

وثانى هذه المواقف: هو موقف الانغلاق دون الثقافات العالمية جميعها، وتحريم الاستفادة من تجارب الأمم الأخرى فى الحفاظ على لغاتها وآدابها وفنونها وثقافاتها، وفى التطوير لهذه الثقافات. . والتحريم لكل ألوان الانفتاح على هذه الثقافات.

وأصحاب هذا الموقف يحلمون «بالمستحيل ـ الضار»! . . فما يريدونه مستحيل التحقيق، لأن بناء أسوار صينية بين الثقافات العالمية لم يتحقق قديمًا، فما بالنا به فى عصر ثورة وسائل الاتصال؟!. .

وهذا المستحيل ضار ـ على فرض إمكان تحققه ـ لأن الانغلاق الثقافى يؤدى بأصحابه إلى مثل ما يؤدى إليه الإضراب عن الطعام والشراب بجسم الإنسان، حيث يتغذى الجسم على ذاته، فيستهلك هذه الذات، ويصاب بالذبول والضمور والاضمحلال.

وإذا كانت التبعية الثقافية تؤدى بأصحابها إلى التقليد الذى يذيب التميز، فتضمحل به الذاتية والخصوصية، فإن الانغلاق يقود ـ هو الآخر ـ إلى ذات النتيجة البائسة والمأساوية. . فكلا التفريط والإفراط يفضيان إلى مأساة الذبول والاضمحلال للشخصية الوطنية والقومية فى الثقافة والحضارة. .

أما الموقف الثالث: من الثقافات العالمية، فهو الوسط العدل الذى يختار طريق «التفاعل» مع الحضارات والثقافات العالمية، من موقع الراشد المستقل، دونما إفراط فى الخصوصية يؤدى إلى «الانغلاق» أو تفريط يؤدى إلى «التبعية» والتقليد والذوبان. .

وهذا التفاعل مع الثقافات العالمية هو الذى يميّز بين خصوصيتنا الثقافية، المتمثلة فى منظومة القيم الإسلامية، التى هى معايير القبول والرفض لما لدى الآخرين.. والتى هى أشبه ما تكون «بالبصمة» الثقافية للأمة، تظل مرعية وحية وفاعلة ومتميزة مع مصافحة كل الثقافات الأخرى والانفتاح على سائر الحضارات..

يميّز التفاعل بين هذه الخصوصية الثقافية الإسلامية وبين ما هو مشترك إنسانى عام، سواء أكان هذا المشترك علوماً طبيعية ودقيقة ومحايدة، أو تطبيقات لهذه العلوم فى التقنيات التى يتم بها عمران الواقع المادى فى المجتمعات الإسلامية، أو كان هذا المشترك الإنسانى العام خبرات وتجارب إنسانية فى ميادين ترقية الثقافة واللغة وتطعيم ثقافتنا وإثرائها بالقوالب المستحدثة والنافعة فى الفضاءات الثقافية الأخرى..

فهذا الموقف الثالث ـ موقف التفاعل الخلاق بين الثقافات والحضارات ـ هو الناقع.. وهو الوسط العدل بين غلوى الإفراط والتفريط ـ فى الانغلاق والعزلة.. وفى التبعية والتقليد ـ..

بل إن هذا الموقف الثالث ـ الوسطى والمتوازن والعادل ـ موقف التفاعل مع الحضارات والثقافات العالمية ـ يكاد أن يكون هو القانون العادل الذى حكم العلاقات الصحية والناضجة بين الثقافات والحضارات على مر التاريخ..

● فالمسلمون عندما انفتحوا على ثقافة مدرسة الإسكندرية ـ فى القرن الهجرى الأول ـ ترجموا علوم الصنعة ـ تقنيات العلوم الطبيعية والدقيقة والمحايدة ـ ولم يترجموا ديانات مصر ـ الوثنية أو النصرانية ـ ولا الفلسفات الهلينية والغنوصية.. أى أنهم أخذوا ما يدعم ذاتيتهم الثقافية الإسلامية المتميزة، لا ما يمسخها ويشوه خصوصيتها..

● وكذلك صنع المسلمون عندما انفتحوا على التراث الرومانى، منذ عصر الراشد الثانى عمر بن الخطاب [٤٠ق هـ ـ ٢٣هـ ٥٨٤ ـ ٦٤٤م].. فلقد أخذوا نظم الدواوين، دون أن يأخذوا القانون الرومانى؛ لأن عندهم الشريعة الإسلامية وفقه معاملاتها...

● وكذلك كان الحال فى التفاعل الإسلامى مع الحضارة الفارسية.. فلقد أخذ المسلمون تجارب الفرس فى التراتيب الإدارية، دون أن يأخذوا فلسفات المجوسية وعقائدها الدينية..

● وبنفس المعايير كان الانفتاح والتفاعل الإسلامى مع المواريث الهندية.. إذ أخذ المسلمون فلك الهند وحسابها، دون أن يأخذوا فلسفتها وديانتها..

● ولقد حكمت ذات المعايير الانفتاح الكبير للحضارة الإسلامية على التراث الإغريقى.. فأخذوا من الإغريق العلوم الطبيعية والتجريبية.. دون أن يأخذوا وثنية الإغريق.. بل إنهم لم يترجموا آداب الإغريق وملاحمهم الأدبية والشعرية؛ لأنها كانت مليئة بالوثنية وصراعات الآلهة الإغريقية.. وهم لم يترجموا الفلسفة اليونانية لتكون فلسفة الإسلام.. ففلسفة الإسلام هى «علم التوحيد»، وإنما ترجموا عقلانية اليونان ليردوا بها على «الغنوصية ـ الباطنية» التى كانت تهدد الإسلام..

● وبنفس المعايير كان انفتاح الحضارة الأوروبية ـ إبان نهضتها ـ على الحضارة الإسلامية، عندما أخذت العلوم التجريبية والمنهج التجريبى، والخبرات الإسلامية، دون منظومة القيم الإسلامية، والعقائد الإسلامية، وفلسفة العلم عند المسلمين..

● وبنفس معايير هذا التفاعل تعاملت نهضة مصر على عهد محمد على باشا [١١٨٤ ـ ١٢٦٥هـ ١٧٧٠ ـ ١٨٤٩م] مع الحضارة الأوروبية، عندما أقام محمد على هذه النهضة على ساقين اثنتين: العلوم التجريبية الأوروبية وتقنياتها.. والتراث الإسلامى الذى عرف طريقه إلى الإحياء فى هذه النهضة الحديثة..

فلما جاء الاستعمار الغربى، ودمر هذه النهضة، قلب الآية، فحرم بلادنا من العلوم التى تحتاجها، وفرض عليها مناهجه فى القيم والعلوم الإنسانية والآداب والفنون.. بل وأصبحنا ندرس ديننا على أيدى المستشرقين، وبمناهجهم المادية والوضعية العلمانية!.. فدخلنا ـ بذلك ـ عصر التقليد للنموذج الغربى، وذبلت به ملكات الإبداع فى محيطنا الإسلامى..

إن الخصوصية الثقافية هى الضرورة المحركة للعقل المسلم كى يبدع ويجدد.. بينما الانغلاق والتبعية والتقليد تفضى إلى الذبول والذوبان والاضمحلال..

(٩)

● لقد تميزت فلسفة الإسلام فى النظر إلى الشرائع والملل والنحل الدينية غير الإسلامية، وفى العلاقة بالمتدينين بتلك الشرائع والملل والنحل بالموقف الوسطى، الذى قرر أن دين الله واحد، من آدم إلى محمد، عليهم الصلاة والسلام.. وأن الشرائع السماوية متعددة بتعدد أمم النبوات والرسالات فى إطار وحدة عقائد هذا الدين الإلهى الواحد.. فتحققت بهذه الفلسفة الوحدة الدينية مع التمايز فى الشرائع الدينية أيضًا.. أى تحقق التنوع والتمايز والاختلاف فى إطار وحدة الدين..

وبهذه الفلسفة الإسلامية فى النظرة للآخر الدينى حقق الإسلام «ثورة إصلاحية.. وإصلاحًا ثوريًا» تجاوز الاعتراف بالآخر.. والقبول به.. والتمكين له.. إلى حيث جعل هذا «الآخر فى الشريعة» جزءًا من «الذات الدينية الواحدة»، وذلك لأول مرة فى تاريخ العلاقات بين أبناء الديانات والحضارات!..

فقبل الإسلام لم يكن هناك، اعتراف من أى أحد بأى آخر.. بل لقد كان الموقف السائد والمطرد هو الإنكار والاضطهاد ومحاولات الإبادة من كل أحد لكل آخر!.. صنع ذلك أتباع «أخناتون» [١٣٨٠ ـ ١٣٦٢ ق.م] بأتباع آمون، وأتباع آمون بأتباع أخناتون ـ فى مصر القديمة ـ.. وصنعت ذلك الوثنية الفرعونية بالنصرانية المصرية، التى بادلت هى الأخرى هذه الوثنية نفيًا بنفى واضطهادًا باضطهاد!.. وصنع ذلك الرومان ـ فى عهد وثنيتهم ـ مع اليهود والنصارى.. ثم صنعوه ـ فى عهد نصرانيتهم ـ باليهود وبالمذاهب النصرانية غير الملكانية!..

ووحده الإسلام هو الذى بدأت به مسيرة جعل الآخر جزءًا من الذات الدينية، فقرر للآخرين ذات الحقوق وذات الواجبات فى الدولة.. والأمة.. «لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم..»..

بل لقد جعل الإسلام من الآخر الدينى جزءًا من أولى الأرحام عندما أقام الأسرة ـ وليس فقط الأمة ـ على التنوع الدينى!.. فأصبحت الزوجة الكتابية سكنا يسكن إليها المسلم، وموضع محبته ومودته، بينهما ميثاق الفطرة.. حتى

لكأنهما ذات واحدة يجمعها لباس واحد: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].. ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١]..

ولأن فلسفة الإسلام، وهى تتطلع إلى «المثال»، لا تغفل عن مكونات «الواقع»، تميزت بالعدل الذى لا يضع كل أهل الكتاب فى سلة واحدة وصنف واحد.. وإنما ميزت بين فرقائهم بحسب موقف كل فريق من «الكلمة السواء»، التى هى التمايز فى الشرائع بإطار وحدة الدين.. «الأنبياء أبناء علات، دينهم واحد، وأمهاتهم شتى» - رواه البخارى ومسلم وأبو داود -.. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]..

فأهل الكتاب ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣ - ١١٥]..

ومنهم الذين يرتزقون من التكذيب للحق الذى عرفوه كما يعرفون أبناءهم ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].. ومنهم الملعونون: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]..

ولذلك، فلا يمكن التسوية بين من هم أشد الناس عداوة ومن هم أقربهم مودة: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣]..

وليس من العدل - أبداً - التسوية بين هؤلاء الذين تفيض أعينهم من الدمع مما

عرفوا من الحق، وبين الذين دخلوا في لون من الشرك والكفر: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٢، ٧٣]..

لكن الإسلام، مع هذا التمييز بين فرقاء أهل الكتاب، والعدل في التمييز بين مواقفهم من «الكلمة السواء»، قد جعل حساب كل ذلك إلى الله وحده يوم الدين.. أما في الدنيا والدولة والتكريم الإلهي لمطلق بني آدم، فقد قرر الإسلام لكل هؤلاء الفرقاء ذات الحقوق وذات الواجبات التي قررها للمسلمين المؤمنين بكل الكتب وكل النبوات والرسالات.. وبنص عبارة رسول الله ﷺ في عهده لنصارى نجران وكل من ينتحل دعوة النصرانية: «فإن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم»..

تلك هي مرتكزات التعايش مع الأديان الأخرى، في القرآن الكريم، وفي التطبيق النبوي لهذا القرآن الكريم..

***

ظاهرة التكفير المتبادل؟!

من الظواهر التى شاعت فى حياتنا الفكرية - فى العقود الأخيرة - ظاهرة الضيق بالرأى المخالف. . وحكم غير المختصين فى أعمال فكرية لا علاقة لتخصصهم العلمى بها، وقياسها بغير المعايير التى يجب أن تقاس بها؟!. . والذهاب فى «ضيق الصدر الفكرى»! إلى حد الحكم بالكفر على هؤلاء المخالفين؟!. .

ويخطئ من يظن أن هذا السلوك الردىء وقف على «الإسلاميين» الذين يكفرون نفرا من «العلمانيين». . ذلك أن سلاح التكفير هذا قد أصبح مشهراً ضد العديد من فصائل الإسلاميين، توجهه ضدهم «دول» و«مؤسسات»، وليس مجرد كتاب أو مفكرين؟!. . الأمر الذى يدعو إلى الاحتكام إلى الإسلام، طلبًا لكلمة سواء، فى هذا الأمر الخطير. .

وإذا كان إسلامنا قد علمنا أن معرفة الحق هى السبيل إلى معرفة أهله، وأن الإسلام هو الحاكم على الرجال، دون أن يكون فى تصرفات «الرجال» - إذا تنكبت طريق الحق - ما يعيب الإسلام. . ومن ثم فإن على مختلف الفرقاء: الذين يدافعون عن الإسلام دفاع «الدبة التى قتلت صاحبها» من فرط حبها - غير الواعى - إياه؟!. . وأيضًا أولئك الذين يتلقفون صنيع هذه «الدبة» لتشويه الدعوة المقدسة والنبيلة من أجل استكمال أسلمة الواقع والقانون فى مجتمعات المسلمين. . إن مختلف الفرقاء فى هذه القضية مدعوون إلى الاحتكام إلى «الحق»، كما تمثل فى أصول الإسلام - قرآنا وسنة - وفى فكر أعلامه؛ وفى تطبيقات هذه الأصول ومناهج هؤلاء الأعلام. . ومنهم علماء وأعلام الأزهر الشريف، على امتداد تاريخه العريق.

● فالله، سبحانه وتعالى يعلمنا - بقرآنه الكريم - تفرده وحده، واختصاصه

دون سواه بالحكم على العقائد والضمائر والأفئدة والقلوب؛ لأنه وحده صاحب العلم المحيط بما فيها، لم يعط شيئًا من ذلك لأحد سواه.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤].

ولقد وقف أئمة تفسير القرآن الكريم وأعلامه أمام هذا التوجيه القرآني والفريضة الإلهية، وقفة ذات دلالة، فقالوا لنا: إن في هذا التوجيه الإلهي «من الفقه باب عظيم، وهو أن الأحكام تناط بالمظان والظواهر، لا على القطع واطلاع السرائر.. فالله لم يجعل لعباده غير الحكم بالظاهر..»(١) فعلى الذين يقلدون الكهانة الكنسية، باسم الإسلام وأيا كانت مواقعهم أن يتقوا الله في الإسلام - الذي لم يحفظوا كتابه، ولم يفقهوا علومه، ولم يكتبوا في فكره كتابًا واحدًا؟!..

وعلى أعداء الشريعة، وأنصار «التغريب»، والمبشرين بالتبعية للحضارة الغربية، أن يعلموا أن هذه «الصغائر» ليست من الإسلام في شيء.. ومن ثم فلا حجة فيها على الإسلام؟!..

● ورسول الإسلام ﷺ هو الذي نتعلم منه النهج والقدوة في هذا المقام.. لقد جاءه نفر من صحابته يحدثونه عن «الوساوس» التي جعلتهم «يشكون» في جوهر الدين ومحور التدين.. في ذات الله؟!.. فلم يجزع رسول الله ﷺ.. ولم ينهرهم ولم يتصيد مواقف الضعف ليوجه الاتهامات.. بل وصف حالهم وقلقهم الفكري، و«شكهم المنهجي» الباحث عن سبل اليقين بأنه «صريح الإيمان.. ومحض الإيمان» ولبه وجوهره؟!..

ففي الحديث، الذي يرويه أبو هريرة، يقول: جاء نفر من الصحابة إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: «يا رسول الله، إن أحدنا يحدث نفسه بالشيء ما يحب أن يتكلم به وإن له ما على الأرض من شيء.. وإنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به»!

فأجـابهم الهادى البشيـر. «وقد وجـدتموه»؟!.. قالوا: نعم.. فـقال: «ذاك صريح الإيمان.. ذاك محض الإيمان»[2]؟!..

● وإنها لشهيـرة وحاسمة قصة ذلك الحديث الذى رواه بـطلها أسامة بن زيد، رضى الله عنهـما، قـال: «بعثنا رسـول الله ﷺ فى سرية، فـصبّـحنا الحُرقـات ـ [مكان] ـ من جهـينة. فأدركت رجلاً، فـقال: لا إله إلا الله. فطعنتـه. فوقع فى نفسى من ذلك فذكرته للنبى ﷺ، فقال: «أقال: لا إله إلا الله، وقتلته؟!».. قال قلت: يا رسول الله، إنما قالها خوفًا من السلاح قال: «أفلا شققت عن قلبه لتعلم أقالها أم لا؟!».. فمازال يكررها علىّ حتى تمنيت أنى أسلمت يومئذ»[3].

وأمـام هذا النهج النبـوى، والموقف الإسـلامى الجـامع يقف الإمـام النووى [٦٣١ ـ ٦٧٦هـ ١٢٣٣ ـ ١٢٧٧م] وهو يشـرح «صحيح مـسلم»، فيـقول: «إنما كلفت بالعمل بالظاهر وما ينطق به اللسان.. وأما القلب فليس لك طريق إلى معرفة ما فيه»!.

فـعلى الذين لم يفقـهوا نهج الإسـلام فى صـيانة العـقائد عن عـبث الأحكام وطائش القرارات، أن يتـقوا الله فى هذا النهج الذى تميـز به الإسلام وامـتاز على غيره من الديانات..

وعلى الذين يكيدون للإسلام ونهجه بتـصيد العابث من الأحكام والطائش من القرارات، أن يميزوا بين هذا النهج الراقى للإسلام الحنيف وبين عبث العابثين.. فـمعرفة الحق هى السبيل إلى مـعرفـة أهله ـ وليس العكس ـ.. وليس فى حكم «الرجال» ما ينهض حجة على الإسلام؟!..

● وها هو حجة الإسلام أبو حامد الغزالى [٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م] يعلم الدنيا أن هذا المنهج الإسلامى لم يكن مـجرد «فكر نظرى»، وإنما كان التزام حضارة وضعه أعلامهـا فى «الممارسة والتطبيق»، فيقول: إنه «ينبغى الاحتراز من التكفير ما وجد الإنسان إلى ذلك سبيلاً، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة، المصرحين بقول: لا إله إلا اللـه محمد رسول الله، خطأ. والخطأ فى ترك ألف كافر أهون من الخطأ فى سفك محجمة من دم مسلم»[4]!

● وفى عصرنا الحديث، نجد السيادة لهذا النهج الإسلامى العظيم.. فعندما يخلط واحد من دعاة «التغريب» ـ هو فرح أنطون [١٨٧٤ ـ ١٩٢٢] ـ بين موقف الإسلام ونهجه هذا وبين الكهانة الكنسية الغربية التى زعمت لنفسها حق الحكم على العقائد والضمائر، ينبرى إمام الاجتهاد الإسلامى الحديث، والابن البار للأزهر الشريف الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] ليقول: «إن الله لم يجعل للخليفة ولا للقاضى ولا للمفتى ولا لشيخ الإسلام أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام.. ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه، أو ينازعه فى طريق نظره.. فليس فى الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة، والدعوة إلى الخير والتنفير عن الشر، وهى سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم.. وليس لمسلم، مهما علا كعبه فى الإسلام، على آخر، مهما انحطت منزلته فيه، إلا حق النصيحة والإرشاد.. ولقد اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم أنه إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حمل على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر..»[5]؟!..

فكان فى هذا الفكر الوجه المشرق للإسلام فى هذا الموضوع.. تعلّم منه أهل الإخلاص من «الإسلاميين» ومن «العلمانيين» على حد سواء!..

● بل وما لنا لا نذكّر كل الفرقاء، من أنصار أسلمة الواقع والقانون، ومن دعاة «التغريب» والتبعية للغرب فى الفكر والسلوك.. ما لنا لا نذكّر كل هؤلاء الفرقاء بنهج الأزهر، تاريخيًا، فى مثل هذه الأمور..

لقد جاء حين من الدهر ادعى فيه واحد من علماء الأزهر ـ هو المرحوم الشيخ على عبد الرازق [١٣٠٥ ـ ١٣٨٦هـ ١٨٨٧ ـ ١٩٦٦م] ـ دعوى لم يقل بمثلها عالم مسلم عبر تاريخ الإسلام الطويل.. ادعى أن الإسلام دين لا دولة، وأن نبيه رسول رسالة روحية وليس حاكمًا ولا قائد دولة، وأن هذا الإسلام مثله كمثل المسيحية يدعو لأن ندع ما لقيصر لقيصر وما لله لله؟!..

وعندما تصدى الأزهر يومئذ، لهذه الدعوى، وجدنا وثائقه الفكرية، التى نقضت هذا الزعم، قد برئت من أى اتهام للرجل فى عقيدته.. اشترت فى ذلك «حيثيات» حكم «هيئة كبار العلماء»، وما كتبه الإمام الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين فى كتابه [نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم] وما كتبه المفتى محمد بخيت المطيعى فى كتابه [حقيقة الإسلام وأصول الحكم]..

بل وكان ذلك هو التزام الأزهر وعلمائه عندما خرج الدكتور طه حسين سنة ١٩٢٦م بكتابه [فى الشعر الجاهلى].. وفيه ما فيه من إلقاء ظلال الشك الديكارتى على بعض من قصص القرآن الكريم؟!..

فبدءاً من القرآن الكريم.. إلى السنة النبوية الشريفة.. إلى النهج الذى انتهجه أئمة الإسلام وأعلامه.. والذى جسدته مواقف الأزهر الشريف، عبر تاريخه العريق.. كانت مقارعة الحجة بالحجة.. والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.. والتحرج كل التحرج من الكهانة والسلطة الدينية فى الحكم على الضمائر والعقائد والأفئدة والقلوب..

وعندما أصيبت بعض الفصائل الشبابية فى حركة الصحوة الإسلامية المعاصرة بداء الحكم على عقائد المسلمين بالكفر وعلى مجتمعاتهم بالارتداد إلى الجاهلية.. كان الأزهر فى مقدمة من تصدى لهذا الانحراف عن نهج الإسلام بالنقد والتفنيد والتوجيه..

تلك هى تقاليد الإسلام الدين.. والإسلام الحضارة، مع هذه القضية، التى يجب أن يرعى فيها الجميع هذه التقاليد التى أرساها الإسلام منذ أن نزل الوحى بكتابه المبين على قلب الصادق الأمين، عليه الصلاة والسلام..

* * *

إن طوق النجاة لهذه الأمة إنما يكمن فى «الإبداع» و«الاجتهاد» و«التجديد»، الذى تصوغ به مشروعها الحضارى المتميز عن المشروع الغربى، كشرط ضرورى لنجاح جهادها المقدس لوضع هذا المشروع فى الممارسة والتطبيق..

وإن هذا البلاء، المتمثل في «ضيق الأفق» و«ضيق الصدر الفكرى» إلى حد تكفير المخالفين.. إن هذا البلاء هو أعدا أعداء «الإبداع» و«الاجتهاد» و«التجديد»!..

فليتق الله المخلصون - الغافلون - من مختلف الفرقاء؟!..

* * *

● **الهوامش**

(١) القرطبى [الجامع لأحكام القرآن] جـ٥ ص٣٣٩، ٣٤٠. طبعة دار الكتب المصرية.

(٢) حديثان رواهما مسلم والإمام أحمد.

(٣) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه والإمام أحمد.

(٤) [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص١٤٣. طبعة القاهرة - مكتبة صبيح، بدون تاريخ.

(٥) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص٢٨٣ - ٢٨٩. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

* * *

معركة فى كتاب:
تهافت الفلاسفة

مؤلف هذا الكتاب هو حجة الإسلام، أبو حامد الغزالى، محمد بن محمد بن محمد الغزالى [٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م].. فقيه شافعى، ومتكلم أشعرى.. بل هو واحد من أبرز الذين طوروا مقالات ونظريات الأشعرية.. وهو، أيضًا، أصولى.. وفيلسوف.. وفوق كل ذلك، ومعه، متصوف شرعى..

ولقد كان ميلاد الغزالى، وكذلك كانت نشأته، ثم وفاته بخراسان.. ولد فى «الطابران»، من أعمال «طوس».. ثم رحل ـ طالبًا للعلم، ومعلمًا ـ إلى كثير من أقاليم وحواضر الإسلام.. مثل: نيسابور، وبغداد، والحجاز، والشام، ومصر.. وغيرها..

ولقد تجاوز الغزالى، فى معيار العلم الإسلامى، درجة المجتهد والمجدد، إلى حيث أصبح، فى تاريخ الفكر الإسلامى «ظاهرة فكرية»، ميزت عصره، وتركت بصماتها على مسيرة الفكر الإسلامى فيما تلا عصره من عصور.. بل لا تزال اجتهاداته وآثاره الفكرية تطبع قطاعات واسعة من الثقافة الإسلامية حتى الآن.

ومؤلفات الغزالى قد بلغت نحواً من مائتى كتاب ورسالة، كتب أغلبها باللغة العربية.. وبعضها باللغة الفارسية ـ ولقد ترجمت إلى العربية ـ.. كما ترجمت العديد من مؤلفاته إلى العديد من اللغات.. الإسلامية والأجنبية ـ.. ومن أهم كتبه ـ غير كتاب [تهافت الفلاسفة]: ـ [إحياء علوم الدين] و[الاقتصاد فى الاعتقاد] و[معيار العلم] و[فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة] و[معارج القدس] و[المنقذ من الضلال] و[مقاصد الفلاسفة] و[فضائح الباطنية] و[المعارف العقلية] و[المضنون به على غير أهله] و[جواهر القرآن] و[التبر المسبوك فى نصيحة الملوك] و[منهاج العابدين] و[المستصفى من علم الأصول] و[ياقوت التأويل فى تفسير

التنزيل] و[عقيدة أهل السنة] و[ميزان العمل] و[المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى].. إلخ.. إلخ..

ولقد جمع الغزالى، فى تآليفه ودروس تعليمه، موسوعية المجدد إلى عمق المجتهد.. مع التميز بالاهتمام بتقعيد «المنهج» فى العلوم التى كتب فيها.. اهتم بهذه «المنهجية» فى مقدمات مؤلفاته، وفى ثناياها، بل وأفرد عددًا من آثاره الفكرية لقضية «المنهج» كما صنع فى [فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة] وفى [معيار العلم].. وغيرهما.

ومن أبرز الإنجازات الفكرية التى سرت معالمها فى كل كتابات الغزالى، مواجهته الحاسمة لذلك الفصام النكد الذى كان قد ساد فى الثقافة الإسلامية، بين «العقل» و«القلب» و«النص»، عندما غلب على الفقهاء مجافاة القلب، وعلى الصوفية مجافاة الشرع، وعلى الفلاسفة عقلانية منفلتة من الشرع والقلب معًا، فدعا الغزالى إلى إحياء كل العلوم، باقتران وامتزاج العقل والشرع والقلب جميعًا، لتمتلئ القلوب بنور العقل والشرع معا.. فيكون للناظرين ـ بعبارته ـ: «نور على نور»!..

وكما كان كتابه الفذ [إحياء علوم الدين] إحياء للعلوم الشرعية بروحانية القلب المؤمن، إنقاذًا لها من جفاف الشكل والصور والحركات.. فلقد كان كتابه [تهافت الفلاسفة] إسهامًا فى إعادة الفلسفة إلى إطار الوحى الإلهى، وضبط العقلانية بثوابت الإيمان الدينى، وذلك من خلال الدراسة النقدية ـ التى قدمها هذا الكتاب ـ نقضا لما رآه الغزالى باطلاً فى مقولات الفلاسفة القدماء ـ أى الإغريق ـ..

فمع إبداع الغزالى فى ميادين العقلانية الإسلامية الخالصة، كما تجليتا فى علم أصول الفقه، وعلم أصول الدين ـ علم الكلام ـ أراد توجيه النقد لتجليات الفلسفة اليونانية فى المحيط الإسلامى، تلك التى تحررت عقلانيتها من «النقل» والوحى، فكان كتابه [تهافت الفلاسفة] نقدا للنظريات الفلسفية، ذات الأصول اليونانية، التى تبناها بعض فلاسفة الإسلام ـ وخاصة الفارابى [٢٦٠ ـ ٣٣٩ هـ ٨٧٤ ـ ٩٥٠م] وابن سينا [٣٧٠ ـ ٤٢٨ هـ ٩٨٠ ـ ١٠٣٧م] ـ فاقتصر النقد ـ فى هذا الكتاب ـ «على إبطال ما اختاره ورآه الصحيح من مذاهب رؤسائهم» من الفلاسفة القدماء ـ أى اليونانيين ـ..

• منهاجه فى النقد

وإذا كانت العقـلانية الإسلامية ـ كمـا فهمها الغزالى، ودافع عنهـا، وحبذها ـ هى العـقلانية المؤمنـة، التى تؤاخى بين «نور العقل» و«نور الشـرع»، والتى رآها «الوسطية الإسلامية الجامعة» بين النورين، والمتميزة عن غلو الظاهرية النصوصية الحرفيـة، وعن غلو الفلاسفة.. وهى عـقلانية «أهل السنة، الذين تحـققوا أن لا معاندة بـين الشرع المنقول والحق المعقـول.. لأن مثال العقل: البـصر السليم عن الآفات والأذاء. ومثال القـرآن: الشمس المنتشرة الضياء.. فـالمعرض عن العقل، مكتفيًا بنور القرآن، مثاله: المتعرض لنور الشـمس مغمضًا للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان. فالعقل مع الشرع نور على نور»[1]..

إذا كانت هذه هى العقلانية الإسلامية، كما آمن بها الغزالى ـ وكل أهل السنة ـ فإن منهاجـه فى نقد نظريات هؤلاء الفلاسفة كـان بمعيار هذه العقلانية الإسـلامية المؤمنة.. فهو لم يحـاكم نظرياتهم إلى الشرع الإسلامى وحده، وإنما حاكـمها إلى العقل أيـضًا، فكان ـ فى هذا الكتـاب ـ فيلسوفًـا إلهيـا، يكشف تهافت مـقولات فلسـفية رآهـا منفلتة من ضـوابط الشرع الإسـلامى، ومن ضوابط العـقل المؤمن أيضًا..

وهو ـ فى هذا الكتـاب ـ يرد على «الفلاسفـة القدمـاء» ـ أى الإغريق ـ وعلى «المقلدين لهم».. وهو لا يكفّـر الفلاسفـة بتعمـيم وإطلاق ـ فلقد كان من أكـثر العلماء تحـرجا من التكفير.. وإنما رأيناه يتحدث عن هؤلاء الفـلاسفة فيـقول: «إنهم مؤمنـون بالله، ومصدقـون لرسله، ولكنهم اختـبطوا فى تفاصيل بعد هذه الأصـول، قد زلوا فيها، فضلوا وأضلوا عن سواء السـبيل» فلقد «اتفق كل مرموق من الأوائل والأواخر على الإيمان بالله واليوم الآخر.. والاخـتلافات راجعة إلى تفـاصيل خـارجـة عن هذين القطـبين، اللذين لأجلهـما بُعـث الأنبيـاء المؤيَّدون بالمعجزات، ولم يذهب إلى إنكارهما إلا شرذمة يسيرة.. لا يؤبه بهم»[2]..

فهو لا يصنف عموم الفلاسفة فى خانة القلة الدهرية، الذين كفروا بالله واليوم الآخر.. فـالخلاف مع هذه القلة فى الأصـول، بينما الخـلاف فى التفـاصيل مع الفلاسفة الذين توجه إليهم بالنقد فى هذا الكتاب.

ولذلك، حصر الغزالى المقولات الفلسفية التى رأى كفر قائليها فيما رآها متعلقة «بالأصول». . وهى - فى كتابه هذا - ثلاث مسائل:

«إحداها: مسألة قدم العالم، والقول بأن الجواهر فيه كلها قديمة. .

والثانية: القول بأن الله تعالى لا يحيط علمًا بالجزئيات الحادثة من الأشخاص، وإنما يقف علمه عند ذاته فقط. .

والثالثة: إنكار بعث الأجساد والأبدان وحشرها يوم القيامة. .»[٣].

وذلك، لأن القول القاطع بهذه المسائل الثلاث، فيه إنكار وتكذيب لما أخبر به الأنبياء والمرسلون جميعًا، وهو ما لم يعتقده أحد من فرق المسلمين ومذاهبهم. . أما ما عدا ذلك من مقولات الفلاسفة - الأوائل والأواخر - فإن لها شبها بمقالات فرق إسلامية، إن عدها البعض فى «أهل البدع»، فلقد رفض الغزالى تكفيرها. . فالتكفير خاص «بما يتعلق النزاع فيه بأصل من أصول الدين، كالقول فى حدوث العالم، وصفات الصانع، وبيان حشر الأجساد والأبدان. وقد أنكروا جميع ذلك. .»[٤].

* * *

• المقدمات.. والفصول

ولقد قسّم الغزالى كتابه هذا إلى أربع مقدمات، وعشرين مسألة، وخاتمة. . تحدث في المقدمة الأولى عن طول اختلاف الفلاسفة، وكثرة نزاعهم، وتباعد طرقهم. . الأمر الذي يقطع بلا يقينية مقولاتهم، التى تغاير فى اليقين المقولات الرياضية والهندسية التى ألفوا فيها. .

وتحدث فى المقدمة الثانية عن أقسام الخلاف بين الفلاسفة وبين غيرهم من الفرق. .

وتحدث فى الثالثة عن منهجه في إبطال الباطل من مقولاتهم، وكيف أنه استعان فى هذا المقام بحجج الفرق الإسلامية، حتى تلك التى يختلف معها الغزالى والأشعرية. . لأن التناقض بينه وبين هذه المقولات الفلسفية مقدم على التناقضات

مع الفرق الإسلامية الأخرى «فإن سائر الفرق ربما خالفونا فى التفصيل، وهؤلاء [الفلاسفة] يتعرضون لأصول الدين، فلنتظاهر عليهم، فعند الشدائد تذهب الأحقاد»! ـ وهو، بهذا المنهاج، يقدم مذهبًا فى فقه وترتيب الأولويات!..

وفى المقدمة الرابعة تحدث الغزالى عن «حيل الفلاسفة»، الذين خلطوا يقين المعقولات بظنونها، وذلك عندما خلطوا علومهم الرياضية والهندسية والمنطقية بمقالاتهم فى الإلهيات، على حين أن الرياضيات راجعة إلى الحساب والهندسة، وهى لا إنكار لها ولا اختلاف فى حقائقها وقوانينها.. بينما كان الخطأ فى علومهم الطبيعية يسيرًا.. وفى الإلهية كثيرًا.. ولقد استعانوا، بهذا الخلط، على تمويه أخطائهم فى الإلهيات بإيهام صحتها عن طريق الطبيعيات والرياضيات.. بزعم التسوية بين جميعها[٥]..

وحديث الغزالى، فى هذه المقدمة الرابعة، يعالج ذات القضية الحديثة التى تبنتها الفلسفة الوضعية الغربية، وفلاسفة التنوير الغربى ـ منذ عصر النهضة الأوروبية ـ عندما أرادوا تطبيق مناهج العلوم الطبيعية ـ الدقيقة والمحايدة ـ على العلوم الاجتماعية ـ علوم النفس والسياسة والاجتماع والاقتصاد.. بل والفنون والفلسفات والآداب ـ مضفين على نظرياتهم فى العلوم الاجتماعية والإنسانية وعلى مقولاتهم الفلسفية يقين حقائق العلوم الطبيعية وقوانينها.. الأمر الذى يختلف معهم فيه الكثيرون..

وبعد هذه المقدمات الأربع، عرض الغزالى للمسائل العشرين التى تناول فيها تناقضات مذاهب الفلاسفة فى قضايا مثل: أزلية العالم وقدمه.. وأبديته وخلوده.. وعجز مذهب الفلاسفة عن البرهنة على أن صانع العالم هو الله.. وعلى وحدانيته، واستحالة إلهين.. وإبطال مذهبهم فى نفى الصفات الإلهية.. ولزوم القول بالدهرية لمذهبهم، ومن ثم تناقضه مع دعواهم الإيمان بالله... ومذهبهم فى العلم الإلهى، الذى أنكروا فيه علم الله للجزئيات، وزعموا أن «نفوس السموات» هى التى تعلمها.. وكذلك مذهبهم فى السببية، الذى هو فى حقيقته مذهب «الحتمية المطلقة»، المنكرة لإمكانية خرق العادة من قبل مسبِّب الأسباب.. ومذهبهم فى استحالة الفناء على النفوس البشرية.. وإبطال قولهم إن

البعث والحشر والتلذذ والتألم في الجنة والنار إنما هو بالمعاني والأرواح، لا بالأجساد والأبدان[٦]..

وكمثال على حقيقة موقف الغزالي في هذه «المسائل» - وهو موقف قد أسيء فهمه كثيراً - رأيه في «السببية».. فلقد شاع - شيوع «الخطأ الشائع!» - إنكار الغزالي لعلاقة الضرورة بين الأسباب والمسببات، بينما الذي أنكره الرجل على الفلاسفة هو القول «بالحتمية المطلقة» التي لا تتخلف، في علاقة الأسباب بالمسبِّبات.. فعنده أن الضرورة - التي سماها «الاقتران» - قائمة بين الأسباب والمسبِّبات، اللهم إلا إذا أراد مسبِّب الأسباب وخالقها إظهار «الإعجاز»، فإنه قادر على إحلال القوانين غير المعتادة محل الأسباب المعتادة، ليخرق بها العادة والاقترانات المعتادة.. وتأمُّل عبارات الغزالي، في هذه المسألة، لا يدع مجالاً للشك في أن هذا هو مراده.. فهو يقول: «إننا نسلم أن النار خُلقت خلقة إذا لاقاها قطنتان متماثلتان أحرقتهما، ولم تفرق بينهما إذا تماثلتا من كل وجه» ثم يضيف حديثه عن الإيمان بقدرة مسبِّب الأسباب على خرق هذه الاقترانات المعتادة بإيجاد أسباب غير معتادة، فيقول - مستطرداً: «ولكنا، مع هذا، نجوِّز أن يُلقى شخصٌ في النار فلا يحترق، إما بتغير صفة النار أو بتغير صفة الشخص، فيحدث من الله تعالى، أو من الملائكة صفة في النار تقصر سخونتها على جسمها بحيث لا تعداها، وتبقى معها سخونتها، وتكون على صورة النار حقيقتها.. أو يحدث في بدن الشخص صفة، ولا يخرجه عن كونه لحما وعظما فيدفع أثر النار».

فالغزالي لا ينكر ضرورة عمل الأسباب في المسببات، وإنما «يجوِّز» استبدال الأسباب بأخرى توقف عمل الأولى، وتعمل هي بدلاً منها.. وكما أن الجسم لا يحترق إذا هو طلي بمادة عازلة - «كالطلق» - الذي تحدث عنه الغزالي - فإن العقلانية المؤمنة «تجوِّز» استبدال الأسباب من قِبَل مسبِّب الأسباب، سبحانه وتعالى، وذلك إيماناً «بمقدرات الله، التي لم نشاهد جميعها، فلا ينبغي إنكار إمكانها، والحكم باستحالتها»[٧]..

ولذلك، فنحن لا ندهش عندما نرى أن رأي الغزالي هذا - في كتابه [تهافت الفلاسفة] - هو نفسه رأي ابن رشد [٥٢٠ - ٥٩٥ هـ ١١٢٦ - ١١٩٨م] - في

كتابه [تهافت التهافت].. الذى رد فيه على الغزالى! - فابن رشد، المناصر لعلاقة الضرورة بين الأسباب والمسببات، هو - مثل الغزالى - مؤمن بأن هناك فاعلاً وراء الأسباب المعتادة، له فى المسبَّبات فعل، بل إنه هو فاعل وموجد هذه الأسباب.. وعنده: «لا ينبغى أن يُشَكَّ فى أن هذه الموجودات قد يفعل بعضها بعضا ومن بعض، وأنها ليست مكتفية بأنفسها فى هذا الفعل، بل بفاعل من خارج، فعله شرط فى فعلها، بل فى وجودها، فضلاً عن فعلها.. ولا يشك أحد من الفلاسفة فى أن الإحراق الواقع فى القطن من النار مثلاً، أن النار هى الفاعلة له، لكن لا بإطلاق، بل من قِبَل مبدأ من خارج، هو شرط فى وجود النار، فضلاً عن إحراقها..»[٨]!

فلا خلاف فى السببية، ولا فى علاقة الضرورة بين الأسباب والمسبَّبات.. وإنما الخلاف مع القائلين «بالحتمية المطلقة»؛ لأن مذهبهم هذا يجعل المسبَّبات مفعولاً للأسباب المادية وحدها، منكرين بذلك قدرة خالق الأسباب ومسببها على إحلال الأسباب غير المعتادة محل هذه الأسباب المعتادة..

***

والغزالى، الذى صاغ - فى تراثنا - عبارة: «إنه لا مشاحة فى الألفاظ والمصطلحات». هو الذى نبه على ضرورة تحديد المراد والمفهوم والمضمون من المصطلحات، كشرط من شروط صحة الجدال مع الفلاسفة، وجدوى الحوار مع الخصوم.. فإذا كان «المنطق» هو «آلة الفكر» فى المعقولات، فلابد من الاستعانة على فهم الفلاسفة بفهم مصطلحاتهم المنطقية، وطرائقهم فى النظر.. ولذلك، وجدناه - فى [تهافت الفلاسفة] - ينبه على ضرورة الاطلاع على كتابه [معيار العلم]، الذى تناول فيه ما يسميه الفلاسفة علم المنطق.. وصولاً إلى تحرير وتحديد المفاهيم، كشرط لموضوعية الحوار والجدال[٩]..

***

وللمكانة المحورية لكتاب الغزالى هذا، فى المسيرة الفلسفية لحضارتنا الإسلامية، كان الاهتمام به - نظراً.. وشرحاً.. وتعليقاً.. ونقداً - من قبل كثير من العلماء والفلاسفة والنظار.. فابن رشد قد سعى إلى نقضه فى كتابه [تهافت التهافت]..

كما طلب السلطان العثماني محمد الفاتح [٨٣٣ - ٨٨٦هـ ١٤٣٠ - ١٤٨١] من العلامة مصطفى بن خليل البرسوى، الملقب بـ «خوجة زادة» [٨٩٣ هـ ١٤٨٨م] أن يكتب «تحكيمًا» بين الغزالى وابن رشد، فكتب كتابه [تهافت الفلاسفة] الذى اقتفى فيه مذهب الغزالى - مع انتقادات وشروح وتعليقات . .

بل لقد وجدنا مقالات الغزالى - فى هذا الكتاب - سلاحًا استخدمه خصوم «الرشدية اللاتينية» - فى أوروبا - إبان النهضة الأوروبية الحديثة . . منتصرين بهذه المقالات للإيمان المسيحى، فى مواجهة «وضعية ومادية» فلاسفة التنوير . .

ولقد عرف هذا الكتاب طريقه إلى الطباعة منذ ما يزيد على المائة عام . . فصدرت له «طبعة حجر» فى «بومباى» - بالهند - سنة ١٣٠٤هـ سنة ١٨٨٧م . . ثم طبعته المطبعة الخيرية - بمصر - سنة ١٣١٩هـ سنة ١٩٠١م - ومعه [تهافت التهافت] لابن رشد، و[تهافت الفلاسفة] لخوجة زادة . . ثم أعيدت هذه المجموعة - فى طبعة الحلبى - سنة ١٣٢١هـ سنة ١٩٠٣م . . ثم طبع بتحقيق «الأب بويج» - ببيروت - سنة ١٣٤٥هـ سنة ١٩٢٧م . . ثم - بتحقيق وتعليق الدكتور سليمان دنيا - فى طبعة الحلبى - سنة ١٣٦٦هـ سنة ١٩٤٧م . . وهى الطبعة التى أخرجتها دار المعارف - بمصر - سنة ١٣٧٤هـ سنة ١٩٥٥م . . إلى غير ذلك من الطبعات، التى تفاوتت حظوظها من التحقيق والدرس والتعليق .

***

● **الهوامش**

(١) الغزالى [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص٢، ٣ طبعة القاهرة . مكتبة صبيح . بدون تاريخ .

(٢) الغزالى [تهافت الفلاسفة] ص٣ . طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣م .

(٣) المصدر السابق . ص٩١ .

(٤) المصدر السابق . ص٥ .

(٥) المصدر السابق . ص٣-٦ .

(٦) المصدر السابق . ص٦-٩٠ .

(٧) المصدر السابق . ص٦٧، ٦٨ .

(٨) ابن رشد [تهافت التهافت] ص١٢٥ . طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣م .

(٩) الغزالى [تهافت الفلاسفة] ص٥، ٦ .

***

معركة فى كتاب:

تهافت التهافت

مؤلف هذا الكتاب هو ابن رشد الحفيد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن أحمد ابن رشد [٥٢٠ ـ ٥٩٤هـ ١١٢٦ ـ ١١٩٨م].. فيلسوف حكيم.. ومتكلم مسلم.. وفقيه مالكى.. وقاضى القضاة.. وطبيب عظيم.. وأديب.. ولغوى.. أبدع فى ميادين هذه العلوم والفنون آثاراً فكرية خالدة، تشهد على «التخصص العميق» مع «الموسوعية» التى أحاطت بكل هذه الميادين..

فله فى علم الكلام: [مناهج الأدلة فى عقائد الملة] بسط فيه الشريعة ليثبت لمن ظن ـ من المتكلمين ـ مخالفتها للحكمة والفلسفة أنهما متآخيتان.. وله فى المنهج: [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] بسط فيه الحكمة ليثبت لمن ظن ـ من المنتسبين إليها ـ مخالفتها للشريعة أنهما الأختان المتفقتان.. وله فى الفقه: [بداية المجتهد ونهاية المقتصد] وهو الذى فلسف فيه اختلافات الفقهاء.. وله فى اللغة والأدب والنحو: [تلخيص كتاب الشعر] و[الضرورى فى النحو] و[كلام على الكلمة والاسم المشتق].. وله فى الطب أكثر من عشرين كتابًا، أشهرها: [كتاب الكليات].. وله فى الفلسفة ـ وخاصة شروحه لفلسفة أرسطو [٣٨٤ ـ ٣٢٢ق.م] ـ ما يزيد على التسعين كتابًا.. أما كتابه [تهافت التهافت] فلقد ذاعت شهرته، لأنه كان الميدان الذى دافع فيه ابن رشد عن الفلسفة والفلاسفة، عندما كرسه لرد الهجوم الذى شنه عليها أبو حامد الغزالى [٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م]..

وكما تميز ابن رشد بالاجتهاد فى كل ما كتب عنه وألف فيه، كذلك تميز «بعدالة العلماء»، التى تجعلهم متجردين للحق الذى هو رسالتهم فيما يكتبون.. فعنده «إن العالم، بما هو عالم، إنما قصده: طلب الحق، لا إيقاع الشكوك وتحيّر العقول»[1]..

و«حياة» العالـم لابد أن تكون تجسيداً «لفكره»، حتى يكون قدوة جـاذبة للفضائل التى يبشر بها بين الناس «فإنما تكون الأقاويل التى يُحَثّ بها على السُّنن مقنعة، إذا كان المشيرون بها ذوى صلاح وحسنِ فعل، حتى تكون هذه الأشياء المذكورة هاهنا معلومة لنا وموجودة فينا، فإنه إذا وُجِد فينا الخُلق الذى نحث عليه كـان قولنا فى الحث عليه أشد إقناعاً»[٢]..

ولأن ابن رشد قد جمع بين الإبداع الإسلامى، فـى الفقه والفلسفة والكلام؛ وبين تقديمـه لأكبر مـشروعات الفلسـفة اليونانيـة ـ فلسفـة أرسطو ـ فلقد وضع منهـاجًـا عـادلاً لتـفـاعل الأفكار بين الحـضـارات المخـتلفـة، وبين المتـقـدمين واللاحقين.. فالعدالة مع «الذات» تقـتضى العدالة مع «الآخرين».. و«قد يجب علينا إن ألفـينا لمن تقدم من الأمم السـابقة نظـراً فى الموجودات، واعـتبـاراً لـهـا، بحسب ما اقـتضته شـرائط البرهان، أن ننظر فى الذى قالوه من ذلك؛ ومـا أثبتوه فى كتبهم، فما كان منها موافقًا للحق قبلناه منهم، وسررنا به، وشكرناهم عليه. وما كان منها غير موافق للحق، نبهنا عليه، وحذّرنا منه، وعذرناهم»[٣].

ولقد أجـاد «ابن الأبار» [٥٩٥ ـ ٦٥٨ هـ ١١٩٩ ـ ١٢٦٠م] عندما وصف ابن رشد، فقال: «كانت الدراية أغلب عـليه من الرواية. درس الفقـه والأصول وعلم الكلام، وغير ذلك. ولم ينشأ بالأندلس مثله كمالاً وعلمـًا وفضلاً. وكان على شرفه، أشد الناس تواضعًا وأخفضهم جناحًا. عُنى بالعلم من صغره إلى كبره، حتى حكى عنه أنه لم يدع النظر ولا القراءة منذ عـقل إلا ليلة وفـاة أبيه وليـلة بنائه على أهله، وأنه سوّد فـيما صنّف وقيّـد وألّف واختصر نحواً من عشر آلاف ورقـة. ومال إلى علوم الأوائل، فكانت له فـيهـا الإمامة دون أهل عـصره. وكـان يُفْزَعُ إلى فـتواه فى الطب كما يُفْزَعُ إلى فتواه فى الفقه، مع الحظ الوافر من الإعراب والآداب..»[٤].

* * *

• معركة التهافت

لقد ولد ابن رشد بعـد وفاة حجة الإسلام أبى حـامد الغزالى [٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م] بخمسة عشر عامًا.. أى أنه ولد وعاش فى ظل سلطان الهيمنة الفكرية للغزالى على مختلف ميادين الفكر فى عالم الإسلام.. فلما عهد سلطان

«الموحدين» أبو يوسف يعقوب بن يوسف [٥٥٥ ـ ٥٩٥ هـ ١١٦٠ ـ ١١٩٩م] إلى ابن رشد [٥٦٤هـ ١١٦٩م] بتقديم فلسفة أرسطو إلى الناطقين بالعربية، تقديماً يصلح عبارتها، التي أفسدها المترجمون، ويضبط معانيها، التي اختلف فيها المفسرون.. نهض ابن رشد بهذه المهمة، فقدم لأعمال أرسطو أوفى الشروح وأدق التفسيرات، حتى لقد عُدَّ الشارح الأكبر لأرسطو على النطاق العالمي.. بل ويسّر هذه الفلسفة للمستويات المختلفة من القراء، وذلك عندما قدم لكل كتاب من كتبها ثلاثة شروح ـ المطول.. والمتوسط.. والموجز ـ، مع إضافات وانتقادات.

وكان لابد لمن يقدم أعمال أرسطو لقراء العربية من أن يدلي بدلوه فيما كتبه الغزالي ـ في [تهافت الفلاسفة] ـ عن حكيم اليونان ومن تبعه من الفلاسفة المشائين القدماء.. فكان كتاب ابن رشد [تهافت التهافت] الذي تصدى به لاتهامات الغزالي للفلاسفة..

وإذا كان ابن رشد قد قدّم أدق الشروح العربية لفلسفة أرسطو، فلقد رأيناه يتتبع في كتابه هذا كل الأقاويل التي نسبها الغزالي للفلاسفة، فيفحصها، كاشفًا عن حظها من الدقة، وهل بالفعل قد قال الفلاسفة أو قصدوا هذا الذي فهمه الغزالي، فنسبه إليهم، ورده عليهم؟ أم أن هذا الذي نسبه الغزالي للفلاسفة، واتهمهم به، هو فهم خاطئ وقاصر، فهمه البعض من كلامهم، وهم منه براء؟؟..

وابن رشد، الذي آمن ـ ككل فلاسفة الإسلام ـ بوحدة الحقيقة، قد رأى أن أساليب التعبير عن الحقيقة متفاوتة بتفاوت مراتب المتكلمين ومراتب المخاطبين في صناعة الفلسفة والبرهان.. فهناك الجمهور، الذين لا دُربة لهم على صناعة الفلسفة، ولا طاقة لهم بفقه مصطلحاتها ومفاهيمها.. ولهذا الجمهور الأساليب الخطابية والوعظية والشعرية، التي يحصّلون بها يقينًا مناسبًا لمستوياتهم في الإدراك..

وهناك أوساط الناس، الذين ناسبتهم أساليب المتكلمين في الجدل والحجاج، دفعا لما يرد على العقائد من شبهات..

وهناك القلة من أهل صناعة الفلسفة والحكمة والبرهان، الذين ناسبت الفلسفة عقولهم، فاتخذوا براهينها سبلاً لتحصيل اليقين(٥)..

ولما كان الغزالى ـ فى كتابه [تهافت الفلاسفة] ـ يجادل الفلاسفة، فى مقولات فلسفية، فلقد عرض ابن رشد الأقاويل التى نسبها الغزالى لهم على ما رآه المعايير البرهانية، ليكشف لقرائه حظها من اليقين.. فرأيناه يفتتح كتابه ـ [تهافت التهافت] ـ ببيان هذا الغرض من تأليفه له.. «فإن الغرض من هذا القول أن نبين مراتب الأقاويل المثبتة فى كتاب [التهافت] فى التصديق والإقناع، وقصور أكثرها عن رتبة اليقين والبرهان»[6].

ولأن هذا هو منهاج ابن رشد، فى كتابه هذا، رأيناه فى الكثير من المسائل لا يختلف مع مقاصد الغزالى، بقدر ما كان خلافه مع الفهم الذى فهمه الغزالى عن كلام الفلاسفة، والذى رآه ابن رشد فهما خاطئًا، أخطأ الذين فهموه، فنسبوه إلى الفلاسفة، وجاراهم فى هذا الفهم صاحب [تهافت الفلاسفة]: فالمنطلقات الإسلامية الثوابت قد جمعت بين الغزالى وابن رشد، فلم تكن المواجهة بينهما، فى كتابيهما هذين، خلافًا فى العقائد الإسلامية، بل ولا فى التصورات الأساسية لهذه العقائد، بل ولا حتى فى التأويلات، فابن رشد لا يختلف مع الغزالى فى قواعد وضوابط التأويل، بل لقد كان أكثر تحرجًا فى استخدام التأويل[7]!.. بقدر ما كانت المواجهة بين هذا الذى فهمه الغزالى، كما هو منسوب إلى الفلاسفة، وبين ما كشف عنه ابن رشد من خطأ فى هذا الفهم، وتبيان حقيقة مقولات الفلاسفة ومقاصدهم..

لقد رأى ابن رشد أن الغزالى قد وجه انتقاداته إلى التصورات التى قدمها الفارابى [٢٦٠ ـ ٣٣٩هـ ٨٧٤ ـ ٩٥٠م] وابن سينا [٣٧٠/٤٢٨هـ ٩٨٠ ـ ١٠٣٧م] لمقالات الفلاسفة القدماء.. ولما كانت مقالات الفارابى وابن سينا، فى هذه التصورات ـ برأى ابن رشد ـ لا صحة لها، فإن «التهافت» إنما هو فيما فهماه ونسباه للفلاسفة، وليس للفلسفة ذاتها.. «فأبو نصر وابن سينا وغيرهما، الذين غيروا مذهب القوم فى العلم الإلهى حتى صار ظنيا.. من جنس الأقاويل الظنية.. التى لا تبلغ مرتبة الإقناع الخُطَبى، فضلاً عن الجدلى.. وذلك لقلة تحصيلهم لمذهب القدماء.. ولذلك، يحق ما يقول أبو حامد، فى غير موضع من كتبه، إن علومهم الإلهية ظنية»[8]..

تلك هى الحقيقة، التى تحتاج إلى تدبر جديد.. وكثير!..

• المواجهة حول الأصول

وإذا كان الغزالى قد حدد ـ فى [تهافت الفلاسفة] ـ أن الأخطر فى مواجهته مع الفلاسفة، إنما هو الخلاف معهم فى «الأصول»، وليست الاختلافات فى «الفروع والتفاصيل والجزئيات».. وأن أخطر هذه الخلافات هى تلك التى رآها مُخرِجة لهؤلاء الفلاسفة من الملة، مؤدية بهم إلى الكفر.. وهى قولهم:

١ ـ بقدم العالم، والجواهر التى فيه.. الأمر لذى يبطل الدليل على وجود الخالق ـ دليل حدوث العالم الذى لا بد له من مُحدِث ـ.

٢ ـ وبأن الله، سبحانه وتعالى، لا يعلم الجزئيات الصادرة من الأشخاص، لأن علمه قاصر على ذاته..

٣ ـ وبأن البعث والحشر والجزاء ـ نعيمًا وآلامًا ـ إنما هو بالمعاني والأرواح، لا بالأجساد والأبدان..

إذا كانت هذه المقولات الثلاث هى أبرز وأخطر القضايا التى دار حولها الجدال بين ابن رشد والغزالى ـ فى كتابيهما ـ فإن الوقوف أمام مقالات ابن رشد إزاء هذه المقولات، سيكون شاهد صدق على وحدة المنطلقات والاعتقادات والتصورات لديهما.. وعلى أن جوهر الخلاف بينهما إنما كان حول دقة وصدق هذا الذى فهمه الغزالى فحسبه مقالات الفلاسفة القدماء، ثم تصدى لهم فيه..

• ففى مسألة قدم العالم: التى رأى الغزالى أن قول الفلاسفة بها مخرج لهم من الملة، لأن حدوث العالم هو الدليل على وجود الخالق القديم.. لا يختلف ابن رشد مع الغزالى فى هذا الذى اجتمع على اعتقاده المسلمون، وإنما يختلف معه فى أن هذا ـ القول بقدم العالم ـ هو رأى الفلاسفة القدماء.. فهو يرى أن المتكلمين ـ الذين ينطق بمنطقهم الغزالى ـ قد أخطأوا عندما قاسوا «الغائب» على «الشاهد» ـ أى قاسوا حقائق عالم الغيب على حقائق عالم الشهادة ـ بينما يجب ـ فى الحديث عن الله، وخلقه للعالم ـ ألا يكون «الشاهد» هو معيار تصوراتنا لخلق الله وفعله، فضلاً عن ذاته، سبحانه.. «فالعقل الإنسانى قاصر عن إدراك كيفية ذلك الفعل».. وقياس الغائب على الشاهد هو الخطأ الذى وقع فيه المتكلمون، حتى ليظهر كلامهم «أنهم قد جعلوا الإله إنسانًا أزليا».. أما الفلاسفة فإنهم

«يعتقدون أن البارى، سبحانه، منفصل عن العالم، وهو فاعل، ليس بمعنى الفاعل الذى فى الشاهد.. وهو فاعل هذه الأسباب، مخرج الكل من العدم الى الوجود، وحافظه على وجه أتم وأشرف مما هو فى الفاعلات المشاهدة.. ويجب أن لا تكون خلقة هذه الأجسام ومبدأ تكونها على نحو كون الأجسام التى هيهنا، وإن العقل الإنسانى يقصر عن إدراك كيفية ذلك الفعل، وإن كان يعترف بالوجود، فمن رام أن يشبه الموجودين أحدهما بالآخر، وأن الفاعل لهما فاعل بالنحو الذى يوجده الفاعلات هيهنا، فهو شديد الغفلة عظيم الزلة..»(٩٦).

أما علاقة العالم «بالقدم» أو «بالحدوث»، فيجب أن تبرأ من المفاهيم التى صاغها المتكلمون لكل من القدم والحدوث.. فالقديم عندهم هو ما لا فاعل له، ولم يتقدمه زمان.. والحادث هو المُخترَع من لا شىء.. أما الفلاسفة، فإن لهذين المصطلحين عندهم ـ فى هذا المبحث ـ معانى أخرى.. ومن ثم فإن الواجب ـ لحل الإشكال ـ هو تحرير مضامين مصطلحى «القدم» و«الحدوث».. وهذا هو ما صنعه ابن رشد، عندما قال: «وأما مسألة قدم العالم، وحدوثه، فإن الاختلاف فيها بين المتكلمين ـ من الأشعرية ـ وبين الحكماء المتقدمين يكاد أن يكون راجعًا للاختلاف فى التسمية، وبخاصة عند بعض القدماء. وذلك أنهم اتفقوا على أن ها هنا ثلاثة أصناف من الموجودات، طرفان، وواسطة بين الطرفين. فاتفقوا فى تسمية الطرفين، واختلفوا فى الواسطة.

فأما الطرف: فهو موجود وُجِد من شىء غيره، وعن شىء، أعنى عن سبب فاعل، ومن مادة، والزمان متقدم عليه، أعنى على وجوده. وهذه هى حال الأجسام التى يُدرَك تكوّنها بالحس، مثل تكوّن الماء والهواء والأرض والحيوان والنبات. فهذا الصنف من الموجودات اتفق الجميع، من القدماء والأشعريين، على تسميتها مُحْدَثة.

وأما الطرف المقابل لهذا، فهو: موجود لم يكن من شىء، ولا عن شىء، ولا تقدمه زمان. وهذا، أيضًا، اتفق الجميع، من الفرقين، على تسميته قديمًا. وهذا الموجود مُدرَك بالبرهان، وهو الله، تبارك وتعالى، الذى هو فاعل الكل وموجده والحافظ له، سبحانه وتعالى قدره.

وأما الصنف من الموجود الذى بين هذين الطرفين، فهو: موجود لم يكن من شيء، ولا تقدمه زمان، ولكنه موجود عن شيء، أعنى عن فاعل، وهذا هو العالم بأسره.. فهذا الموجود قد أخذ شبها من الوجود الكائن الحقيقى، ومن الوجود القديم، فمن غَلّب ما فيه من شبه القديم على ما فيه من شبه المُحْدَث، سماه قديماً، ومن غَلّب ما فيه من شبه المُحْدَث، سماه مُحْدَثًا.. وهو، فى الحقيقة، ليس مُحْدَثًا حقيقيًا ولا قديماً حقيقيًا، فإن المحدث الحقيقى فاسد ضرورة، والقديم الحقيقى ليس له علّة»(١٠).

هكذا كشف ابن رشد عن مبررات انتفاء الخلاف، فتحديد مضامين مصطلحات «القِدم» و«الحدوث» يكشف عن أمر جديد، غاب عن الذين جعلوا من هذه القضية تهمة اتهموا بها الفلاسفة القدماء..

وحتى «ظاهر الشرع»، فإنه لا يشهد لما قال به المتكلمون من أن معنى حدوث العالم هو الاختراع من غير شيء.. «فالحدوث، الذى صرح الشرع به فى هذا العالم، هو من نوع الحدوث المشاع ههنا، وهو الذى يكون فى صور الموجودات، التى يسمونها الأشعرية صفات إنسانية، وتسميها الفلاسفة صوراً، وهذا الحدوث إنما يكون من شيء آخر، وفى زمان، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿أوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أنَّ السَّمَوَاتِ وَالأرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾(١١)، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾(١٢) الآية.. وأما حال طبيعة الموجود الممكن مع الموجود الضرورى فسكت عنه الشرع لبعده عن أفهام الناس، ولأن معرفته ليست ضرورية فى سعادة الجمهور.

وأما الذى تزعم الأشعرية من أن طبيعة الممكن مُخْتَرَعَة وحادثة من غير شيء، فهو الذى يخالفهم فيه الفلاسفة، من قال منهم بحدوث العالم أو لم يقل، فما قالوه - [أى الأشعرية] - إذا تأملته بالحقيقة ليس هو من شريعة المسلمين، ولا يقوم عليه برهان»(١٣).

فالعالم حادث، بمعنى أنه مفعول ومخلوق لله الخالق، حادث من شيء - مثل الدخان الذى سبق حدوث السماء - وهذا الحدوث لا يقتضى الاختراع من لا شيء، كما تصورته الأشعرية..

* * *

● وفي قضية العلم الإلهي ـ التي كانت التهمة الثانية من الغزالي للفلاسفة ـ عندما قال إنهم ينفون علم الله بالجزئيات الحادثة من الأشخاص ـ يدافع ابن رشد عن الفلسفة، ويدفع هذه التهمة عن الفلاسفة، مؤكداً قولهم بأن الله سبحانه وتعالى عالم بالجزئيات، كما هو عالم بالكليات.. لكن، على نحو مغاير للعلم الإنساني، ذلك لأن العلم الإنساني معلول للموجودات، بينما العلم الإلهي هو سبب وجود الموجودات، وعلم الله لذاته يعني علمه لكل موجوداته وجميع مصنوعاته.. ولا يعني وقوف علمه عند الكليات دون الجزئيات. . «فالعلوم الإنسانية كلها انفعالات وتأثيرات عن الموجودات، والموجودات هي المؤثرة فيها. . . والعلة في الإدراك هو المُدْرَك نفسه، فلا يُشك في تغير الإدراك بتغير المدركات، وفي تعدده بتعددها. . وإذا كان علمنا معلولاً للمعلوم به، فهو مُحْدَث بحدوثه، ومتغير بتغيره، فعلم الله سبحانه بالموجود على مقابل هذا، فإنه علة المعلوم، الذي هو الموجود. . وذات الصانع، التي يسمى بها صانعاً، ليست شيئاً أكثر من علمه بالمصنوعات. . وقولهم: إنه لا يعرف إلا ذاته، يعني أنه يعرف جميع الموجودات. . وتعلق علمه بالموجودات على نحو تعلق علمنا بها مستحيل، فوجب أن يكون تعلق علمه بها على نحو أشرف ووجود أتم لها من الموجودات التي تعلق علمنا به، لأن العلم الصادق هو الذي يطابق الموجود. .»(١٤).

فالقضية، عند الفلاسفة، ليست التمييز بين العلم بالكليات والعلم بالجزئيات ـ كما فهم الغزالي من مقالاتهم ـ وإنما هي تمييزهم بين العلم الإلهي والعلم الإنساني. . فتعلق العلم الإلهي بالموجودات مغاير لتعلق علمنا بها، سواء أكان ذلك في العلم بالكليات أم الجزئيات. .

* * *

● وفي «التهمة» الثالثة ـ المتعلقة «بحشر الأجساد». . يرى ابن رشد أن الفلاسفة قد قالوا وآمنوا بالمعاد والجزاء، دون تحديد لصورتيهما. . وهم يعظمون الشريعة ويؤمنون بمبادئها تسليماً وتقليداً، لأن هذي المبادئ، عندهم، مما يفوق العقول الإنسانية، فنحن نأخذها كما جاءت من واهب العقول الإنسانية. . ولذلك فهم يؤمنون بما جاء عن البعث والجزاء في الشريعة إجمالاً. . وأن قول من قال من

الفلاسفة «بشريعة عقلية» لا يقلل عندهم من مقام الشريعة المنزلة؛ لأن الشريعة الإلهية، عندهم، قائمة على العقل والوحى، ومن ثم فإن كفتها راجحة على شريعة العقل وحده.. ثم إن مذهبهم فى التأويل يمنع التصريح بهذا التأويل، الأمر الذى ينفى قولهم بتأويلات تجعل البعث والجزاء روحانيا، لا جسديا..

وأخيرا، فإن مغايرة عالم الغيب لعالم الشهادة ـ ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ـ يدل على أن ظاهر الشريعة يرشح أن العودة ـ فى البعث ـ إنما هى لأمثال هذه الأمثال التى فى الدنيا، لا لأعيانها.. فلو قلنا ببعث الأجساد، فإن ذلك لا يقتضى عودة ذات الأجساد الدنيوية، وإنما عودة أجساد مثلها؛ لأن المعدوم لا يعود بالشخص، وإنما يعود الوجود لمثل ما عدم..

وينبه ابن رشد على أن هذا المعنى الأخير قد قال به الغزالى.. بل وقال ـ فى غير كتابه [تهافت الفلاسفة] ـ إن الصوفية يقولون بالبعث الروحانى ـ ولم يكفرهم!..

على هذا النحو، عرض ابن رشد للقضية؛ فدفع التهمة، ومن ثم الحكم بالكفر عن الفلاسفة، فى تصوراتهم للبعث والجزاء.. فالقول بنفى البعث الجسدى، هو «شىء ما وُجد لواحد ممن تقدم فيه قول.. وهم أشد الناس تعظيمًا للشريعة وإيمانًا بها، والسبب فى ذلك أنهم يرون أنها تنحو نحو تدبير الناس، الذى به وجود الإنسان بما هو إنسان، وبلوغه سعادته الخاصة به، وذلك أنها ضرورية فى وجود الفضائل الخُلقية للإنسان، والفضائل النظرية، والصنائع العملية..فيجب التسليم بها والتقليد فيها مع جهل أسبابها؛ لأنها من مبادئ الشريعة، وهى أمور تفوق العقول الإنسانية، تأخذها من واهب العقول الإنسانية.. ويرون أنه لا ينبغى أن يُتَعرَّض بقول فى سائر مبادئها، مثل القول فى السعادة الأخيرة، وفى كيفيتها؛ لأن الشرائع كلها اتفقت على وجود أُخروىّ بعد الموت، وإن اختلفت فى صفة ذلك الوجود..

ومن صرّح بشكّ فى المبادى الشرعية التى نشأ عليها، أو بتأويل مناقض للأنبياء، صلوات الله عليهم أجمعين، وصارف عن سبيلهم، فإنه أحق الناس أن ينطلق عليه اسم الكفر، ويوجب فى الملة التى نشأ عليها عقوبة الكفر.

وكل شريعة كانت بالوحى فالعقل يخالطها، ومن سلّم أنه يمكن أن يكون ههنا

شريعة بالعقل فقط، فإنه يلزم ضرورة أن يكون أنقص من الشرائع التى استُنبطت بالعقل والوحى..

والوجود الأُخروى هو طور آخر أفضل من هذا الطور.. والتى تعود هى أمثال هذه الأمثال التى كانت فى هذه الدار، لا هى بعينها؛ لأن المعدوم لا يعود بالشخص، وإنما يعود الوجود لمثل ما عدم، لا لعين ما عدم ـ كما قال أبو حامد..

ولقد قال أبو حامد ـ فى هذا الكتاب [تهافت الفلاسفة]ـ: إنه لم يقل أحد من المسلمين بالمعاد الروحانى. وقال فى غيره: إن الصوفية تقول به. وعلى هذا فليس يكفر من قال بالمعاد الروحانى، ولم يقل بالمحسوس إجماعًا، وجوَّز القول بالمعاد الروحانى..»[١٥].

هكذا دفع ابن رشد عن الفلاسفة تهمة الكفر، فى تصوراتهم لكيفية البعث والحساب والجزاء..

* * *

• **السببية**

ويشهد، أيضًا، على أن اختلاف ابن رشد مع الغزالى ـ فى كتابيهما ـ لم يكن فى المنطلقات والعقائد، بل ولا فى التصورات الأساسية، بقدر ما كان حول «صحة المروى» عن الفلاسفة، و«المنسوب» إليهم.. يشهد على ذلك، أيضًا، موقفهما من «السببية».. والذى حسبه الكثيرون موضوعًا للخلاف. بينما هما فيه متفقان.. فالغزالى لم تكن قضيته مع القائلين بالسببية، وعلاقة الضرورة بين الأسباب والمسبَّبات، وإنما كانت مع القائلين «بالحتمية المطلقة» فى عمل الأسباب بالمسبَّبات، على النحو الذى ينكر قدرة مسبِّب الأسباب على إيقاف عملها، إذا هو أراد استبدالها، فى المعجزات..

وهذا هو الذى قدمه ابن رشد، كرأى للفلاسفة، الذين يؤكدون على وجود الأسباب الفاعلة ـ الذاتية ـ وعلى عملها فى المسبَّبات، دونما إنكار لوجود مسبب فوق هذه الأسباب الذاتية، فمُسبِّب الأسباب هو موجدها، وهو خالق فعلها فى المسبَّبات.. ذلك «أن إنكار وجود الأسباب الفاعلة، التى تُشاهَد فى المحسوسات، قول سفسطائى، والمتكلم بذلك إما جاحد بلسانه لما فى جَنَانه أو منقاد لشبهة

سفسطائية عرضت له فى ذلك، ومن ينفى ذلك فليس يقدر أن يعترف أن كل فعل لابد له من فاعل. . وماذا يقولون فى **الأسباب الذاتية**، التى لا يُفهم الموجود إلا بفهمها؟ . . والعقل ليس أكثر من إدراكه الموجودات بأسبابها، وبه يفترق من سائر القوى المدركة، **فمن رفع الأسباب فقد رفع العقل**، وصناعة المنطق تصنع وضعًا أن ههنا أسبابًا ومسببات، وأن المعرفة بتلك المسبِّبات لا تكون على التمام إلا بمعرفة أسبابها، **فرفع هذه الأشياء مبطل للعلم.. ولا يشك أحد من الفلاسفة فى أن الإحراق الواقع فى القطن من النار، مثلا، أن النار هى الفاعلة له، لكن لا بإطلاق، بل من قِبل مبدأ من خارج، هو شرط فى وجود النار، فضلاً عن إحراقها..**»[١٦].

فلا خلاف بين صاحبى [التهافت] على وجود الأسباب. . وفعلها. . ولا على أن هذا الوجود والفعل إنما هو بقدرة موجدها وموجد فعلها، سبحانه وتعالى. .

* * *

● **نقد المنهج**

ولقد تناثرت فى كتاب ابن رشد [تهافت التهافت] إشارات نقدية للمنهج الذى استخدمه الغزالى فى كتابه [تهافت الفلاسفة]. . من أهمها:

● أن الغزالى بدلاً من أن يقرر المذهب الحق، مع نقضه لما رآه باطلاً، اكتفى بنقض الباطل، دون تقرير المذهب الحق. . الأمر الذى يترك القارئ فى الحيرة والشكوك. . لقد قال ـ [الغزالى] ـ: «إن قصده ههنا ليس هو معرفة الحق، وإنما قصده إبطال أقاويلهم وإظهار دعاويهم الباطلة. . وهو قصد لا يليق به، بل بالذين فى غاية الشر!. . وقد كان واجبًا عليه أن يبتدئ بتقرير الحق قبل أن يبتدئ بما يوجب حيرة الناظرين وتشككهم».

● كذلك أبصر ابن رشد، بملكة الفيلسوف، مقام الفلسفة فى إبداع الغزالى. . فقدم تفسيراً لموقفه هذا من الفلاسفة والفلسفة، باحتمال أن يكون «الزمان» الغزالى وعصره، وأهل ذلك الزمان، والاتهامات التى وُجهت إليه ـ والتى بلغت حد اتهامه بالزندقة ـ. . احتمال أن يكون الرجل قد أراد مداهنة أهل زمانه بهجومه هذا على الفلسفة والفلاسفة!. . ذلك أن «معظم ما استفاد هذا الرجل ـ

[الغزالى] ـ من البلاهة، وفاق الناس فيما وضع من الكتب التى وضعها، إنما استفادها من كتب الفلاسفة ومن تعاليمهم.. فإتيانه بمثل هذه الأقاويل السفسطائية قبيح، فإنه يُظَن أنه ممن لا يذهب عليه ذلك، وإنما أراد مداهنة أهل زمانه، وهو بعيد من خُلُق القاصدين لإظهار الحق. ولعل الرجل معذور بحسب وقته ومكانه، فإن الرجل امتُحِن فى كتبه»[18]!..

ولا ينسى ابن رشد ـ رغم دفاعه التاريخى عن الفلسفة ـ الموضوعية التى جعلته يتفق مع الغزالى على أن تراث الفلاسفة فى العلوم الإلهية إنما هو «ظنى»، لم يبلغ مرتبة «اليقين».. فيقول: «إن قصدهم إنما هو معرفة الحق، ولو لم يكن لهم إلا هذا المقصد لكان ذلك كافياً فى مدحهم.. مع أنه لم يقل أحد من الناس فى العلوم الإلهية قولاً يُعتَدّ به»[19]!..

فمقاصد الفلاسفة الإلهيين كانت معرفة الحق.. وحسبهم هذا سببًا للمديح والثناء.. أما ثمرات فلسفتهم فى العلوم الإلهية فليس فيها ما يُعتَدّ به!.

وهو اعتراف صريح.. وخطير من أبى الوليد!..

***

ولأن هذه المعركة الفكرية.. بين ابن رشد والغزالى ـ فى هذين الكتابين ـ [تهافت التهافت] و[تهافت الفلاسفة] ـ كانت من أشهر وأخطر المعارك الفكرية فى تراث الإسلام الفلسفى، حتى لقد أخذت طريقها إلى ما وراء حضارة الإسلام.. فلقد لقى كتاب ابن رشد [تهافت التهافت] ـ كما لقى كتاب الغزالى ـ الكثير من الاهتمام.. فطبع بالقاهرة ـ بالمطبعة الإعلامية ـ سنة ١٣٠٢هـ سنة ١٨٨٤م.. ثم صدرت له عدة طبعات ـ مع كتاب الغزالى.. وكتاب خوجة زادة [٨٩٣هـ ١٤٨٨م] [تهافت الفلاسفة] الذى كتبه تعليقًا عليهما.. طبعتهم ـ كمجموعة ـ المطبعة الخيرية ـ بمصر ـ سنة ١٣١٩هـ سنة ١٩٠١م.. ثم طبعهم الحلبى ـ بمصر ـ سنة ١٣٢١هـ سنة ١٩٠٣م.. وله طبعات محققة، أولاها «للأب بويج» ـ بيروت ـ سنة ١٣٤٨هـ سنة ١٩٣٠م.. وثانيتها للدكتور سليمان دنيا ـ القاهرة ـ سنة ١٣٨٤هـ سنة ١٩٦٤م.. كما ترجم إلى العبرية واللاتينية والإنجليزية.. وغيرها من اللغات..

● الهوامش

(١) [تهافت التهافت] ص٦٧ طبعة القاهرة سنة ١٣٢١هـ سنة ١٩٠٣م.

(٢) [تلخيص الخطابة] ص١٤٠، ١٤١. تحقيق: د. محمد سليم سالم. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م.

(٣) [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] ص٢٨. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٨٢م.

(٤) إرنست رينان [ابن رشد والرشدية] ص٤٣٥، ٤٣٦. ترجمة عادل زعيتر. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥م.

(٥) [فصل المقال] ص٥٨ ـ ٦٢.

(٦) [تهافت التهافت] ص٢.

(٧) انظر [فصل المقال] ص٣٢. و[تهافت التهافت] ص١٢٤، ١٢٥. والغزالي [فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة] ص٤ ـ ٩. طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧م.

(٨) [تهافت التهافت] ص٤٩، ٨١، ٢١، ٦٥.

(٩) المصدر السابق. ص١٠٥، ٤٢، ٥١.

(١٠) [فصل المقال] ص٤٠ ـ ٤٢. و[تهافت التهافت] ص٧٤.

(١١) الأنبياء: ٣٠.

(١٢) فصلت: ١١.

(١٣) [تهافت التهافت] ص٩٨.

(١٤) المصدر السابق. ص٨٤، ١٠٩، ١١٠، ١١٢، ١١٣. و[فصل المقال] ص٣٩.

(١٥) [تهافت التهافت] ص١٢٩، ١٣٣ ـ ١٣٥.

(١٦) المصدر السابق. ص١٤٢، ١٢٣، ١٢٥.

(١٧) المصدر السابق. ص٨٨، ٣٤.

(١٨) المصدر السابق. ص٨٨، ١١.

(١٩) المصدر السابق. ص٨٨.

* * *

نصوص فى علاقة العقل بالشرع عند
أبى حامد الغزالى.. وأبى الوليد ابن رشد

١ - أبو حامد الغزالى

الحمد لله الذى اجتبى من صفوة عباده عصابة الحق وأهل السنة، وخصَّهم من بين سائر الفرق بمزايا اللطف والمنَّة، وأفاض عليهم من نور هدايته ما كشف به عن حقائق الدين، وأنطق ألسنتهم بحجته التى قمع بها ضلال الملحدين، وصفَّى سرائرهم من وساوس الشياطين، وطهر ضمائرهم عن نزغات الزائغين؛ وعمَّر أفئدتهم بأنوار اليقين، حتى اهتدوا بها إلى أسرار ما أنزله على لسان نبيه وصفيه محمد ﷺ سيد المرسلين.

واطَّلعوا على طريق التلفيق[١] بين مقتضيات الشرائع وموجبات العقول، وتحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول، وعرفوا أن من ظن من الحشوية[٢] وجوب الجمود على التقليد واتباع الظواهر، ما أُتوا به إلا من ضعف العقول وقلة البصائر، وأن من تغلغل من الفلاسفة وغلاة المعتزلة فى تصرف العقل حتى صادموا به قواطع الشرع ما أُتوا به إلا من خبث الضمائر، فميل أولئك إلى التفريط وميل هؤلاء إلى الإفراط، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط.

بل الواجب المحتوم فى قواعد الاعتقاد، ملازمة الاقتصاد، والاعتماد على الصراط المستقيم، فكلا طرفى قصد الأمور ذميم.

وأنَّى يستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر، وينكر مناهج البحث والنظر؟. أوَ لا يعلم أنه لا مستند للشرع إلا قول سيد البشر ﷺ، وبرهان العقل هو الذى عُرف به صدقه فيما أخبر؟.

وكيف يهتدي للصواب من اقتفى محض العقل واقتصر، وما استضاء بنور الشرع ولا استبصر؟. فليت شعري! كيف يفزع إلى العقل من حيث يعتريه العِيّ والحَصَر، أوَ لا يعلم أن خُطا العقل قاصر وأن مجاله ضيّق منحصر؟

هيهات! قد خاب على القطع والبتات، وتعثر بأذيال الضلالات، من لم يجمع بتآليف الشرع والعقل هذا الشتات. فمثال العقل: البصر السليم عن الآفات والآذاء، ومثال القرآن: الشمس المنتشرة الضياء، فأَخْلِق بأن يكون طالب الاهتداء، المستغني إذا استغنى بأحدهما عن الآخر في غمار الأغبياء. فالمُعْرِض عن العقل مكتفيًا بنور القرآن مثاله: المتعرض لنور الشمس مغمضًا للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان. فالعقل مع الشرع نور على نور، والملاحظ بالعين العور لأحدهما على الخصوص متدلٍّ بحبل غرور.

وسيتضح لك ـ أيها المشوق إلى الاطلاع على قواعد عقائد أهل السنة، المقترح تحقيقها بقواطع الأدلة ـ أنه لم يستأثر بالتوفيق، بالجمع بين الشرع والتحقيق، فريق سوى هذا الفريق[3]. . فقد عرفت بهذا أن العين أولى باسم النور من النور المعروف المحسوس، ثم عرفت، أن العقل أولى باسم النور من العين، بل بينهما من التفاوت ما يصح أن يقال معه إنه أوْلى، بل الحق أنه يستحق الاسم دونه.

• [دقيقة]

اعلم أن العقول، وإن كانت مبصرة، فليست المبصرات عندها كلها على مرتبة واحدة، بل بعضها تكون عندها كأنها حاضرة، كالعلوم الضرورية، مثل علمه بأن الشيء الواحد لا يكون قديمًا حديثًا، ولا يكون موجودًا معدومًا، والقول الواحد لا يكون صدقًا وكذبًا، وأن الحكم إذا ثبت للشيء جوازه ثبت لمثله، وأن الأخص إذا كان موجودًا كان الأعم واجب الوجود، فإذا وُجد السواد فقد وُجد اللون، وإذا وُجد الإنسان فقد وُجد الحيوان. . وأما عكسه فلا يلزم في العقل، إذ لا يلزم من وجود اللون وجود السواد، ولا من وجود الحيوان وجود الإنسان، إلى غير ذلك من القضايا الضرورية في الواجبات والجائزات والمستحيلات.

ومنها ما لا يقارن العقل في كل حال إذا عرض عليه، بل يحتاج إلى أن يهز أعطافه، ويستوري زناده، وينبه عليه بالتنبيه، كالنظريات، وإنما ينبهه كلام

الحكماء، فعند إشراق نور الحكمة يصير الإنسان مبصراً بالفعل بعد أن كان مبصراً بالقوة، وأعظم الحكمة كلام الله تعالى؛ ومن جملة كلامه القرآن خاصة، فيكون منزلة آيات القرآن عند عين العقل منزلة نور الشمس عند العين الظاهرة، إذ به يتم الإبصار، فبالحرىّ أن يسمّى القرآن نوراً، كما يُسمّى نور الشمس نوراً. فمثال القرآن: نور الشمس، ومثال العقل: نور العين، وبهذا يُفهم معنى قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[5] . . .[6] وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[7].

ولا يبعد، أيها المتكف في عالم العقل، أن يكون وراء العقل طور آخر يظهر فيه ما لا يظهر في العقل، كما لا يبعد كون العقل طوراً وراء التمييز والإحساس ينكشف فيه غرائب وعجائب يقصر عنها الإحساس والتمييز، فلا تجعل أقصى الكمال وقفًا على نفسك...»[8].

والأصل في ذلك أن وراء ما يتصوره العقلاء أموراً ورد الشرع بها، ولا يعلم حقائقها إلا الله تعالى والأنبياء الذين هم وسائط بين الله تعالى وبين عباده...[9]. وإن ما ينتفع به في الآخرة أو يضر لا سبيل إلى معرفته بالتجربة، كما عرف الطبيب، إذ لا مجال للعلوم التجريبية إلا بما يشاهد على سبيل التكرر، ومن الذي رجع من ذلك العالم فأدرك بالمشاهدة ما نفع وضر، وأخبر عنه؟. ولا يُدرك بقياس العقل، فإن العقول قاصرة عن ذلك؛ والعقلاء بأجمعهم معترفون بأن العقل لا يهتدي إلى ما بعد الموت، ولا يرشد إلى ضرر المعاصي ونفع الطاعات، لاسيما على سبيل التفصيل والتحديد، كما وردت به الشرائع، بل أقروا بجملتهم أن ذلك لا يُدرك إلا بنور النبوة، وهي قوة وراء قوة العقل، يدرك بها من أمر الغيب في الماضي والمستقبل أمور لا على طريق التعرف بالأسباب العقلية، وهذا مما اتفق عليه الأوائل من الحكماء، فضلاً عن الأولياء والعلماء الراسخين القاصرين نظرهم على الاقتباس من حضرة النبوة، المقرين بقصور كل قوة سوى هذه القوة...»[10].

إن ما لا يُعْلَم بالضرورة ينقسم إلى:

ما يُعْلَم بدليل العقل دون الشرع.

وإلى ما يُعْلَم بالشرع دون العقل.

وإلى ما يُعْلَم بهما.

أما المعلوم بدليل العقل دون الشرع، فهو حدوث العالم، ووجود المُحدِث، وقدرته، وعلمه، وإرادته، فإن كل ذلك ما لم يثبت لم يثبت الشرع، إذ الشرع يبنى على الكلام، فإن لم يثبت كلام النفس لم يثبت الشرع، فكل ما يتقدم في الرتبة على كلام النفس يستحيل إثباته بكلام النفس وما يستند إليه، ونفس الكلام أيضًا فيما اخترناه لا يمكن إثباته بالشرع، ومن المحققين من تكلف ذلك وادعاه.

وأما المعلوم بمجرد السمع، فتخصيص أحد الجائزين بالوقوع، فإن ذلك من موافق العقول، وإنما يُعرف من الله تعالى بوحي وإلهام، ونحن نعلم من الوحي إليه بسماع كالحشر والنشر والثواب والعقاب وأمثالها.

وأما المعلوم بهما، فكل ما هو واقع في مجال العقل ومتأخر في الرتبة عن إثبات كلام الله تعالى، كمسألة الرؤية، وانفراد الله تعالى بخلق الحركات والأعراض[11] كلها وما يجرى هذا المجرى.

ثم، كل ما ورد السمع به يُنظَر، فإن كان العقل مجوزًا له وجب التصديق به قطعًا إن كانت الأدلة السمعية قاطعة في متنها ومستندها، لا يتطرق إليها احتمال، ووجب التصديق بها ظنًا إن كانت ظنية..

وأما ما قضى العقل باستحالته، فيجب فيه تأويل ما ورد السمع به، ولا يتصور أن يشمل السمع على قاطع مخالف للمعقول، وظواهر أحاديث التشبيه أكثرها غير صحيحة، والصحيح منها ليس بقاطع، بل هو قابل للتأويل، فإن توقف العقل في شيء من ذلك فلم يقض فيه باستحالة ولا جواز وجب التصديق أيضًا لأدلة السمع، فيكفي في وجوب التصديق انفكاك العقل عن القضاء بالإحالة، وليس يشترط اشتماله على القضاء بالتجويز، وبين الرتبتين فرق ربما يزل عن ذهن البليد...[12].

. . . والوحي الإلهي والشرع الحق لا يرد بما ينبو عنه العقل... فإن أراد بنبو العقل: أن برهان العقل يدل على استحالته، كخلق الله تعالى مثل نفسه، أو الجمع بين المتضادين، فهذا ما لا يرد الشرع به.

وإن أراد به ما يقصر العقل عن إدراكه، ولا يستقل بالإحاطة بكنهه، فهذا ليس بمحال أن يكون في علم الأطباء مثل جذب المغناطيس للحديد، وأن المرأة لو مشت فوق حية مخصوصة ألقت الجنين، وغير ذلك من الخواص، وهذا مما ينبو عنه العقل، بمعنى أنه لا يقف على حقيقته، ولا يستقل بالاطلاع عليه، فلا ينبو عنه الحكم باستحالته، وليس كل ما لا يدركه العقل محالاً في نفسه.. وفرق بين البعيد والمحال، فإن البعيد هو ما ليس بمألوف، والمحال ما لا يُتصور كونه...(١٣).

وأما اتباع العقل الصرف، فلا يقوى عليه إلا أولياء الله تعالى، الذين أراهم الله الحق حقًا وقواهم على اتباعه...(١٤) ولهذا كان رأس مال كل السعادات العقل...(١٥).

* * *

٢ـ أبو الوليد ابن رشد

. . فإن الغرض من هذا القول: أن نفحص، على وجه النظر الشرعي، هل النظر في الفلسفة وعلوم المنطق مباح بالشرع؟ أم محظور؟ أم مأمور به، إما على جهة الندب، وإما على جهة الوجوب؟؟

فنقول: إن كان فعل الفلسفة ليس شيئًا أكثر من النظر في الموجودات، واعتبارها، من جهة دلالتها على الصانع، أعني من جهة ما هي مصنوعات، فإن الموجودات إنما تدل على الصانع بمعرفة صنعتها، وأنه كلما كانت المعرفة بصنعتها أتم كانت المعرفة بالصانع أتم.

وكان الشرع قد ندب إلى اعتبار الموجودات، وحث على ذلك، فَبَيِّنٌ أن ما يدل عليه هذا الاسم إما واجب بالشرع، وإما مندوب إليه.

فأما أن الشرع دعا إلى اعتبار الموجودات بالعقل، وتَطَلُّب معرفتها به، فذلك

بيّنٌ فى غير ما آية من كتاب الله تبارك وتعالى، مثل قوله تعالى ﴿فاعتبروا يا أولى الأبصار﴾[١٦]، وهذا نصٌ على وجوب استعمال القياس العقلى، أو العقلى والشرعى معا. ومثل قوله تعالى: ﴿أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء﴾[١٧]، وهذا نصٌ بالحث على النظر فى جميع الموجودات.

واعلم أن الله تعالى ممن خصّهُ بهذا العلم وشرّفه به إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقال تعالى: ﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض﴾[١٨] الآية. وقال تعالى: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ۝ وإلى السماء كيف رفعت﴾[١٩]، وقال: ﴿ويتفكرون فى خلق السموات والأرض﴾[٢٠]، إلى غير ذلك من الآيات التى لا تُحصى كثرة...

فواجب أن نجعل نظرنا فى الموجودات بالقياس العقلى...[٢١].

وليس لقائل أن يقول: إن هذا النوع من النظر فى القياس العقلى بدعة، إذ لم يكن فى الصدر الأول. فإن النظر أيضًا فى القياس الفقهى، وأنواعه، هو شىء استنبط بعد الصدر الأول، وليس يرى أنه بدعة. فكذلك يجب أن نعتقد فى النظر فى القياس العقلى...[٢٢].

وإذا كان هذا هكذا، فقد يجب علينا إن ألفينا لمن تقدّم من الأمم السالفة نظرًا فى الموجودات، واعتبارًا لها، بحسب ما اقتضته شرائط البرهان، أن ننظر فى الذى قالوه من ذلك، وما أثبتوه فى كتبهم، فما كان منها موافقًا للحق قبلناه منهم، وسررنا به، وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه، وحذرنا منه، وعذرناهم.

فقد تبيّن من هذا أن النظر فى كتب القدماء واجب بالشرع، إذا كان مغزاهم فى كتبهم ومقصدهم هو المقصد الذى حثنا الشرع عليه، وأنَّ من نهى عن النظر فيها من كان أهلا للنظر فيها ـ وهو الذى جمع أمرين:

أحدهما: ذكاء الفطرة.

والثانى: العدالة الشرعية، والفضيلة العلمية والخُلقية ـ فقد صدّ الناس عن الباب الذى دعا الشرع منه الناس إلى معرفة الله، وهو باب النظر المؤدى إلى

معرفته حق المعرفة.. وذلك غاية الجهل والبعد عن الله تعالى..."(٢٣)

وإذا كانت هذه الشريعة حقًا، وداعية إلى النظر المؤدى إلى معرفة الحق، فإنا، معشر المسلمين، نعلم، على القطع، أنه لا يؤدى النظر البرهانى إلى مخالفة ما ورد به الشرع، فإن الحق لا يضادّ الحق، بل يوافقه ويشهد له.

وإذا كان هذا هكذا، فإن أدّى النظر البرهانى إلى نحو من المعرفة بموجود ما، فلا يخلو ذلك الموجود أن يكون: قد سكت عنه الشرع، أو عرّف به.

فإن كان قد سكت عنه، فلا تعارُض هنالك، وهو بمنزلة ما سكت عنه من الأحكام، فاستنبطها الفقيه بالقياس الشرعى.

وإن كانت الشريعة نطقت به، فلا يخلو ظاهر النطق أن يكون موافقًا لما أدّى إليه البرهان فيه، أو مخالفًا، فإن كان موافقًا فلا قول هنالك، وإن كان مخالفًا طُلِب هنالك تأويله.

ومعنى التأويل: هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية، من غير أن يُخِلّ ذلك بعادة لسان العرب فى التَّجَوُّز، من تسمية الشىء بشبيهه، أو بسببه، أو لاحقه، أو مُقارِنه، أو غير ذلك من الأشياء التى عُدِّدَت فى تعريف أصناف الكلام المجازى.

وإذا كان الفقيه يفعل هذا فى كثير من الأحكام الشرعية، فكم بالحَرِىّ أن يفعل ذلك صاحب علم البرهان؟ فإن الفقيه إنما عنده قياس ظنى، والعارف عنده قياس يقينى.

ونحن نقطع قطعًا أن كل ما أدى إليه البرهان، وخالفه ظاهر الشرع، أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربى. وهذه القضية لا يشك فيها مسلم، ولا يرتاب بها مؤمن، وما أعظم ازدياد اليقين بها عند من زاول هذا المعنى وجرّبه، وقصد هذا المقصد من الجمع بين المعقول والمنقول.

بل نقول: إنه ما من منطوق به فى الشرع، مخالف بظاهره لما أدّى إليه البرهانُ إلا إذا اعتُبِر وتُصُفِّحَت سائر أجزائه، وُجِد فى ألفاظ الشرع ما يشهد بظاهره لذلك التأويل، أو يُقارِبُ أن يشهد. ولهذا المعنى أجمع المسلمون على أنه ليس يجب أن

قال: حدثُوا الناس بما يعرفـون، أتريدون أن يُكَذَّب الله ورسوله؟!، ومثل ما روى من ذلك عن جماعة من السلف.

فكيف يمكن أن يُتَصَوَّر إجماع منقول إلينا عن مسألة من المسائل النظرية، ونحن نعلم قطعًا أنه لا يخلو عصر من الأعصار من علماء يرون أن في الشرع أشياء لا ينبغي أن يعلم بتحقيقها جميع الناس؟.

وذلك بخلاف ما عرض في العمليات، فإن الناس كلهم يرون إفشاءها لجميع الناس على السواء، ويُكْتَفَى في حصول الإجماع فيها بأن تنتشر المسألة، فلا يُنْقَل إلينا فيها خلاف، فإن هذا كافٍ في حصول الإجماع في العمليات، بخلاف الأمر في العلميات...»[٣٠].

* * *

• مبادئ الشرائع

أما الكلام في المعجزات، فليس فيها للقدماء من الفلاسفة قول؛ لأن هذه كانت عندهم من الأشياء التي لا يجب التعرض للفحص عنها، وتجعل مسائل، فإنها مبادئ الشرائع، والفاحص عنها والمشكك فيها يحتاج إلى عقوبة عندهم، مثل من يفحص عن سائر مبادئ الشرائع العامة، مثل: هل الله تعالى موجود؟ وهل السعادة موجودة؟ وهل الفضائل موجودة؟ وأنه لا يُشَك في وجودها، وأن كيفية وجودها هو أمر إلهي معجز عن إدراك العقول الإنسانية.

والعلة في ذلك، أن هذه هي مبادئ الأعمال، التي يكون بها الإنسان فاضلاً، ولا سبيل إلى حصول العلم إلا بعد حصول الفضيلة، فوجب أن لا يتعرض للفحص عن المبادئ التي توجب الفضيلة قبل حصول الفضيلة، وإذا كانت الصنائع العملية لا تتم إلا بأوضاع ومصادرات يتسلمها المتعلم أولاً، فأحرى أن يكون ذلك في الأمور العلمية...»[٣١].

ولذلك، يجب على كل إنسان أن يسلم مبادئ الشريعة، وأن يُقلد فيها، ولابد من هذا الوضع لها، فإن جحدها والمناظرة فيها مبطلان لوجود الإنسان، ولذلك وجب قتل الزنادقة.

فالذى يجب أن يُقال فيها: إن مباديها هى أمور إلهية تفوق العقول الإنسانية، فلابد أن يعترف بها مع جهل أسبابها. ولذلك لا تجد أحداً من القدماء تكلم فى المعجزات، مع انتشارها وظهورها فى العالم؛ لأنها مبادى تثبيت الشرائع، والشرائع مبادى الفضائل. ولا فيما يقال فيما بعد الموت.

فإذا نشأ الإنسان على الفضائل الشرعية، كان فاضلاً بإطلاق، فإن تمادى به الزمان والسعادة إلى أن يكون من العلماء الراسخين فى العلم، فعرض له تأويل فى مبدأ من مباديها، فيجب عليه أن لا يصرح بذلك التأويل، وأن يقول فيه كما قال تعالى: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾[٣٢].

هذه حدود الشرائع، وحدود العلماء..»[٣٣].

فالصواب:

أن تعلم الفرقة من الجمهور التى ترى أن الشريعة مخالفة للحكمة، أنها ليست مخالفة لها.

وكذلك الذين يرون أن الحكمة مخالفة لها، من الذين ينتسبون للحكمة، أنها ليست مخالفة لها، وذلك بأن يُعَرِّف كل واحد من الفريقين أنه لم يقف على كنههما بالحقيقة، أعنى لا على كنه الشريعة ولا على كنه الحكمة، وأن الرأى فى الشريعة الذى اعْتُقِدَ أنه مخالف للحكمة هو رأى إما مُبْتَدَع فى الشريعة، لا من أصلها، وإما رأى خطأ فى الحكمة، أعنى تأويل خطأ عليها..

إن أصول الشريعة إذا تُؤُمِّلَت وُجِدَت أشد مطابقة للحكمة مما أُوِّل فيها، وكذلك الرأى الذى ظُنَّ فى الحكمة أنه مخالف للشريعة يُعَرِّف أن السبب فى ذلك أنه لم يحط علماً بالحكمة ولا بالشريعة، ولذلك اضطررنا إلى وضع قول - [مناهج الأدلة] - نُعَرِّف أصول الشريعة وإلى وضع قول، أعنى [فصل المقال فى موافقة الحكمة للشريعة]...»[٣٤].

إن الحكمة هى صاحبة الشريعة، والأخت الرضيعة.. وهما المصطحبتان بالطبع، المتحابتان بالجوهر والغريزة...»[٣٥].

* * *

• الهوامش

(١) التلفيق: من اللفق، وهو الجمع والوصل.

(٢) الحشوية: لقب أطلق على الذين يقفون عند ظواهر النصوص، لعجزهم عن استخدام العقول في فقه ما وراء ظواهرها.

(٣) [الاقتصاد في الاعتقاد] ص٢، ٣. طبعة القاهرة ـ المطبعة المحمودية التجارية ـ لمحمود على صبيح ـ بدون تاريخ.

(٤) التغابن: ٨.

(٥) النساء: ١٧٤.

(٦) [مشكاة الأنوار] ص٣٦. طبعة القاهرة الأولى ـ ضمن مجموعة ـ سنة ١٣٢٥هـ سنة ١٩٠٧م.

(٧) الشورى: ٥٢.

(٨) [مشكاة الأنوار] ص٥١.

(٩) [المضنون به على غير أهله] ص٣٤٥، طبعة القاهرة ـ ضمن مجموعة [القصور العوالى من رسائل الإمام الغزالى] مكتبة الجندى. بدون تاريخ.

(١٠) [إلجام العوام عن علم الكلام] ص١٧١، ١٧٢ـ ضمن مجموعة ـ المصدر السابق.

(١١) مفردها عرض ـ بفتح العين والراء ـ وهو المقابل للجوهر والذات. والأعراض تقوم بغيرها، لا بذاتها. . فالألوان أعراض، والأجسام ـ التي تقوم بها الألوان ـ جواهر. والإنسان: ذات، وقيامه وقعوده أعراض. ومن الأعراض ما هي ملازمة للذات، لا تنفك عن الماهية، مثل الضحك بالقوة بالنسبة للإنسان. ومنها ما هي مفارقة ومنفكة عن الأشياء، مثل حمرة الخجل. انظر [المعجم الفلسفي] ـ وضع مجمع اللغة العربية ـ القاهرة سنة ١٩٧٩م.

(١٢) [الاقتصاد في الاعتقاد] ص١٢١، ١٢٢.

(١٣) [المضنون به على غير أهله] ص٣١٨، ٣١٩.

(١٤) [الاقتصاد في الاعتقاد] ص٩٨.

(١٥) [رسالة الغزالى إلى ملكشاه في العقائد] ص٦٩. طبعة القاهرة ـ ضمن مجموعة ـ سنة ١٣٢٥هـ سنة ١٩٠٧م.

(١٦) الحشر: ٢.

(١٧) الأعراف: ١٨٥.

(١٨) الأنعام: ٧٥.

(١٩) الغاشية: ١٧.

(٢٠) آل عمران: ١٩١.

(٢١) [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] ص٢٢، ٢٣ دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٨٣م.

فى تجديد الفلسفة الإسلامية

هذه الصفحات ليست بحثًا فى الفلسفة الإسلامية ـ بالمعنى الفنى «للبحث» و«للفلسفة الإسلامية» ـ وإنما هى ـ فى مبلغ طموحها ـ «تصور»، فى نقاط، للسبيل إلى «فلسفة إسلامية معاصرة»..

فـ «نحو» فلسفة إسلامية معاصرة هو موضوع هذا الحديث.. وليس «البحث» فى ماهية الفلسفة الإسلامية المعاصرة..

ولما كان الهدف من هذا «التصور» هو حفز الفكر لإدارة الحوار حول هذا الموضوع، لذلك كان اختيار عرضه فى عدد من النقاط، التى هى قضايا، نأمل أن يقود الحوار فيها وحولها إلى خطة «طموحة ـ وعملية»، تثمر، إذا هى وضعت فى الممارسة والتطبيق، فلسفة إسلامية معاصرة، تفى بحاجات العقل المسلم فى هذا الميدان من ميادين المعرفة الإسلامية..

وإذا كان هذا هو إطار موضوع هذه الصفحات.. فإن النقاط، التى تمثل قضاياه، هى ـ على وجه التحديد ـ:

١ ـ هل من الممكن، والضرورى، أن تكون الفلسفة معاصرة؟..

٢ ـ وهل الفلسفة ضرورية فى عصرنا الراهن؟..

٣ ـ وما هى ملامح واقعنا الفلسفى المعاصر؟.. وهل نحن فى «مأزق فلسفى»؟!..

٤ ـ وما هو السبيل إلى الخروج من هذا «المأزق الفلسفى»؟ ـ وهو المأزق الذى يشل طاقة إبداعنا الفلسفى.. وهل من نماذج لمقولات تمثل معالم فى «مشروع» لـ«فلسفة إسلامية معاصرة»..؟؟..

وفى اعتقادى أن نظرة فاحصة إلى واقع عصرنا الراهن، ستضع يدنا وعقلنا على زيف هذه الدعوى. . دعوى سقوط العقائد وتراجع الفلسفات والأيديولوچيات لحساب العلم وتطبيقاته والثمرات المادية لإنجازاته. .

● فالتراجع ـ الذى يضرب به أصحاب هذه الدعوة المثل ـ للأيديولوچية الماركسية ـ فى الدول الاشتراكية ـ مثلاً، إنما يتم لحساب الأيديولوچية الليبرالية. . فالاعتراف بأهمية الحافز الفردى فى الاقتصاد، وبالحقوق الفردية للإنسان، والتخلى عن ضرورة واحدية الحزب ودكتاتورية الطبقة ـ البروليتاريا ـ ليس تراجعًا عن الأيديولوچية الماركسية لحساب العلم وضرورات الواقع وحدهما، وإنما هو تراجع تدريجى يدفعه العلم وضرورات الواقع نحو التبنى للأيديولوچية الليبرالية الغربية. . فما يحدث فى هذا النطاق هو استبدال أيديولوچية بأخرى ـ بتدرج بطىء ـ الأمر الذى يوحى بعودة التئام الانشقاق الذى حدث فى الأيديولوچية الغربية ـ الليبرالية ـ التئام الشق الشمولى فى الشق الليبرالى. . فلسنا أمام سقوط مطلق الأيديولوچية، وإنما نحن أمام استبدال نوع منها بنوع آخر. . بل إن تأثير الأيديولوچية الليبرالية، وقدراتها على تجديد نظامها، وكفاءة مؤسساتها فى محاصرة كثير من أمراضها، هى عوامل فاعلة فى هذا التراجع للنموذج الشمولى لحساب النموذج الليبرالى. . ففعل الأيديولوچية هنا قائم، بل وحاسم. . على عكس ما يحسب الذين يتحدثون عن تراجع واقعنا المعاصر عن الاستجابة لتأثير الأيديولوچيات.

● وهذا التقسيم الذى ميز ويميز المجتمعات المعاصرة إلى «أغنياء» و«فقراء» ـ «شمال» و«جنوب». .

والذى يسوقه دعاة سقوط الأيديولوچيات وتراجع العقائد دليلاً على دعواهم ـ هو الآخر شاهد عليهم، وليس شاهدا لهم. . فالعامل الأيديولوچى بالغ التأثير وحاسم فى الفعل، سواء فى غنى الأغنياء أو فى فقر الفقراء. . فالمجتمعات التى صنعت لها العقيدة إطار انتماء، حركها فى مشروع نهضوى، هى التى انعتقت من الفقر. . وبعض هذه المجتمعات قد سعت لفرض نموذجها الأيديولوچى على «الغير»، وفى سبيل ذلك حاولت مسخ ونسخ وتشويه أيديولوچيات هذا «الغير»،

الذى جعلها تخسر السباق مع الغرب، ففقدت من بنيها النخبة التى انبهرت به، فتغرب عقلها، واتخذت منه السلف والمرجع والقدوة والمعين.. وأصبحنا بإزاء لونين من «السلفية ـ النصوصية»، تنطلق إحداهما من تراثنا العاجز، والأخرى من تراث الغرب غير الملائم.. فكان عجز هاتين السلفيتين عن إنهاض الأمة من التخلف الذى أنشب فيها أظفاره منذ عدة قرون..

إن الكثير من طاقات أمتنا الفكرية تتبدد فى صراع بين فرقاء هذه «السلفية النصوصية»، فبين «المنسحبين من الزمان» و«المنسحبين من الخصوصية الحضارية» تدور أغلب المعارك الفكرية التى تستنفد الجهد والطاقة دون أن تنهض بالأمة من المأزق الذى تردت فيه..

وهنا، ولهذه الملابسات، تبرز الأهمية البالغة للإحياء والتجديد الذى يستبدل منابعنا الفكرية الجوهرية والنقية ـ وفى مقدمتها القرآن والسنة ـ بمتون وحواشى عصر التراجع الحضارى.. ويستبدل «التفاعل الحضارى» الخلاق «بالتبعية والتقليد» للآخرين.. الإحياء والتجديد على الجبهة الفكرية العريضة.. وفى ميدان الفلسفة الإسلامية على وجه الخصوص، وذلك ابتغاء بلورة الأيديولوجية الخاصة، القادرة على أن تكون «الهوية الفكرية» التى تحقق، بالنسبة للأمة، رباط الانتماء إلى مشروع حضارى إسلامى، يكون دليل عمل للنهضة التى تعيد هذه الأمة إلى موقع الشهود الحضارى من جديد..

لقد حول الغرب ـ بقوته وبفكره ـ ديار الإسلام وثرواتها وشعوبها إلى هامش لمركزه الحضارى.. ففرض علينا الجهاد، بمعناه الواسع والشامل لكل ميادين الحياة، للتحرر السياسى والاقتصادى.. والتحرر الأمنى والعسكرى.. والتحرر الحضارى.. ولتوحيد وطن الأمة الحضارى.. ولاستخلاص أجزائها وشعوبها السليبة والأسيرة.. ولحماية ثغورها المهددة.. ولمساندة أقلياتها المستضعفة.. وللعودة بها وبالإسلام إلى مكان الصدارة والإمامة فى «منتدى الحضارات» العالمية، كى تسهم فى إثراء وإغناء الفكر الإنسانى من جديد..

وفى هذا الجهاد، تتجلى أهمية الأيديولوجية ـ العقيدة ـ ويغدو التجديد لفلسفة الإسلام، التى تستجيب لمشكلات العصر، وتتصدى لتحدياته طوق نجاة ودائرة

فأصابت إطار الانتماء لديه بالعطب، الأمر الذى أصاب المجتمعات التى ابتليت بذلك بتمزق الهوية، والانقسام فى التوجه الأيديولوجى، فأعاق ذلك شعوب هذه البلاد عن بلوغ حقيقة الاستقلال عن هيمنة الأغنياء ـ أهل الشمال ـ فظلوا فى معسكر الفقراء ـ أهل الجنوب ـ.. فالعامل الأيديولوجى قائم، بل وبارز، أيضاً فى هذا التقسيم وهذا الانقسام..

إن هذا الذى يشهده واقعنا المعاصر لا يعدو أن يكون تنوعًا وتغيراً فى أشكال الصراع بين الأيديولوجيات.. فهو شاهد على دورها فى تحريك فرقاء هذا الصراع.. وليس شاهداً على سقوطها أو تراجعها بحال من الأحوال..

* * *

٣ ـ فإذا ما جئنا إلى «وضعنا الحضارى»، وجدنا أنفسنا إزاء أمتنا الإسلامية التى فرض عليها الغرب ـ باستعماره ـ هيمنة وتغريباً واستلابا حضاريًا، يناهز عمره القرنين من الزمان، مارس فيه ولا يزال ضروب المسخ والنسخ والتشويه لهويتنا الإسلامية وخصوصيتنا القومية وتميزنا الحضارى..

لقد أحرز الغرب نجاحًا لا ينكر على جبهة شق «وحدة عقل الأمة»، فتكونت فى واقعنا الفكرى نخبة اتخذت منه قبلتها الفكرية والحضارية، ورأت فى نموذجه وخياره الحضارى «مدينتها الفاضلة»، فبدأت من حيث انتهى ـ بل: وأحياناً، من حيث بدأ؟! ـ قاطعة الأسباب التى تصلها بتراثها الفكرى والمسيرة الحضارية لأمتها الإسلامية..

ولقد ساعد الغرب على إحراز هذا النجاح عجز المؤسسات الفكرية الإسلامية التى كانت قائمة فى بلادنا عند اجتياحه لها، وجمود الفكر الموروث الذى كانت قد عكفت عليه هذه المؤسسات، على النحو الذى أعجزه عن ملء الحياة الفكرية للأمة، وتحريك طاقات المقاومة فيها، وتقديم البديل المنافس للنموذج الغربى.. لقد حاصر الغرب محاولاتنا فى اليقظة، ليبقى الفراغ الذى حاول ملئه بالتغريب!..

لقد مثلت مؤسساتنا الفكرية الموروثة، فى جملتها: «السلفية ـ النصوصية»، التى اتخذت من سلف عصر التراجع الحضارى المرجع والقدوة والمعين.. الأمر

انتماء وروحا حضارية لا بديل عنها؛ كى تحقق الأمة نصرها المأمول فى هذا الجهاد..

* * *

والأمر الذى لا شك فيه أن حاجتنا إلى الإحياء والتجديد لفلسفة إسلامية معاصرة، ستزايد إلحاحها وتبرز ضروراتها إذا نحن نظرنا فى «واقعنا الفلسفى الراهن» و«المأزق الفلسفى» الذى نعيش فيه.. فالمقارنة بين المهام الواجبة وبين الواقع القائم تبرز حجم الجهد الفكرى المطلوب فى هذا الميدان..

إن الواقع الراهن للفكر الفلسفى فى حياتنا العقلية، مصاب - إلى حد كبير جداً - بالانفصام عن الهوية العقدية للأمة، وبالغربة عن واقعها، ومن ثم بالعجز عن تلبية احتياجاتها العقلية، ومواجهة التحديات التى تنازع عقلها ووجدانها، سواء منها «التخلف الموروث» أو «الوافد الغريب» والضار..

● فموروثنا فى علم الكلام الإسلامى - والذى مثل فى عصر نشأته فلسفة الأمة، ودرع عقيدتها، وإحدى قسمات أيديولوجيتها.. هذا الموروث - كما هو حاله الآن - مثقل بمشكلات ومعارك ومقولات تجاوزها الزمن.. حتى لقد غدت قيوداً تعجز حركة هذا العلم، وتحول بينه وبين أن يكون قسمة فى فلسفة إسلامية معاصرة.. بل لا نبالغ إذا قلنا إن بقاءه على ما هو عليه هو عامل من عوامل «غبن» العقيدة، حيث المطلوب منه أن يكون الباعث على صفائها ويقينها!..

● وموروثنا فى التصوف، قد توزعت آثاره وتياراته بين تيارين.. تيار غلب عليه الغنوص الباطنى، المجافى للعقل والنقل معاً، والذى إن صلح لتجربة ذاتية، فهو غير صالح للتعميم، ومن ثم فهو عاجز عن أن يكون قسمة فى أيديولوجية محركة للأمة فى هذا الجهاد.. أما التيار الثانى فى موروثنا الصوفى، فهو ذلك الذى سادت فيه الشعوذة والخرافة، على النحو الذى جعل منه قيداً غليظاً وثقيلاً يعجز قطاعات عريضة من الأمة عن أن تكون إيجابية فى مواجهة ما فرض علينا من تحديات..

● أما التراث اليونانى، فى موروثنا الفلسفى - والمتمثل فى آثار فلاسفتنا المسلمين - فهو - بالرغم من فوائده فى الدراسات الفلسفية المقارنة - إلا أنه -

بالنسبة لموضوعنا ـ موضوع: الفلسفة الإسلامية، التى تسهم فى بناء أيديولوجية معاصرة للأمة، تجدد بها ذاتها وواقعها ودينها ودنياها ـ إن هذا التراث الفلسفى اليونانى هو: بذرة ثبتت غربتها عن تربة واقع هذه الأمة، وتأكد عجزها عن أن تنبت وتنمو فيها على نحو طبيعى، يحقق الملائم من الثمرات..

● وهذا الفكر الفلسفى، الذى استعرناه من الفلسفة الغربية الحديثة والمعاصرة ـ رغم أهميته البالغة فى توسيع الأفق الذى يقارن بين الفلسفات والأنساق الفكرية ـ إلا أنه لم يعد دائرة المذاهب التى عبرت وتعبر عن «خصوصيات» للواقع الغربى وللعقل الغربى.. عجزت، هى الأخرى ـ كما عجز الموروث الفلسفى اليونانى ـ عن أن تكون فلسفة الأمة الإسلامية عجز المقولات اليونانية فى تراثنا الفلسفى عن أن تكون فلسفة الإسلام.. وهذا العجز هو الذى جعل الساحة الفلسفية ببلادنا تخلو من الفيلسوف المسلم، صاحب المذهب، والذى يجد له جمهوراً أو مدرسة أو تياراً فلسفيًا.. إننا إذا صنفنا الأفغانى، أو محمد عبده، أو مصطفى عبد الرازق فى عداد فلاسفة الإسلام المحدثين والمعاصرين، فلن نستطيع أن نضم إليهم أحداً من أساتذة الفلسفة اليونانية أو الغربية، باعتبارهم من فلاسفة الإسلام!..

إن النقص لم يكن فى الكفاءة.. والعيب لم يكن فى المعدن.. والمشكلة لم تكن فى الأرض الرافضة للتفلسف والفلسفة.. وإنما كان النقص والعيب والمشكلة فى البذرة الغريبة، غير الصالحة للإنبات والنمو فى عقل الأمة ووجدانها؛ لأنها من «خصوصيات» الغير الاعتقادية، وليست من «المشترك الإنسانى العام»!..

● إذن.. فنحن أمام «مأزق فلسفى»، أصاب فكرنا الفلسفى بالقصور ـ الذى يقارب العقم ـ. وهو مأزق جعل حياتنا العقلية ـ فى الفكر الفلسفى ـ تقف عند: «مُدَرِّس الفلسفة» و«دارس الفلسفة».. دون أن تتبلور لدينا فلسفة إسلامية معاصرة، لها فلاسفتها ومدارسها وتياراتها.. فلسفة تستجيب لمشكلات العقل المسلم المعاصرة، وتعينه على تفسير واقعه وعلى تغييره، وتشد أزره فى مواجهة ما يواجه من تحديات..

إنه مأزق الفقر فى الإبداع؛ بسبب الكسل النابع من عادة واعتياد التقليد للآخرين، بل والتسول ـ أحياناً ـ على موائد هؤلاء الآخرين!.. فالبذور المستعارة

غير ملائمة للأرض الخاصة.. والزراع لا علاقة لمهاراتهم بعلم فلاحة الأرض التي عليها يعيشون؟!..

* * *

٤ـ لكن.. هل من سبيل للخروج من هذا المأزق الفكري الفلسفي؟..

إن الجواب لا يمكن إلا أن يكون بالإيجاب!.. ففي حضارة جعل الله التجديد لدينها سنة وقانونًا، لا يمكن لأهلها دوام البقاء على التقليد في فلسفتها؟!.. فمن الممكن ـ بل والواجب ـ القيام بنهضة فلسفية ـ كجزء من فريضة النهضة الفكرية العامة ـ تستعين بـ«التجديد» وبـ«الإبداع» على صياغة فلسفة إسلامية معاصرة للإسلام والمسلمين، لتكون هذه الفلسفة هي «الفكرية ـ الأيديولوجية» التي ينظرون من خلالها النظرة الإسلامية للكون، ويفسرون بها واقع الحياة التفسير الإسلامي، ويستعينون بها على تطوير هذا الواقع وتغييره بمعايير الإسلام وأدواته في التطوير والتغيير، ويتسلحون بها في مواجهة التحديات، سواء منها ما كان موروثًا متخلفًا أو وافدًا ضارًا..

وفي اعتقادي أن إنجاز هذه المهمة الكبرى ـ مهمة بلورة فلسفة إسلامية معاصرة، تمثل فكرية أيديولوجية ـ لأمة تريد أن تجدد واقعها بواسطة دينها الإسلامي ـ إن إنجاز هذه المهمة إنما يستدعي تخطيطًا وتنفيذًا ـ لابد له من فريق عمل قائد لكوكبة عريضة من صفوة المشتغلين بالفلسفة الإسلامية ـ.. يستدعي هذا الإنجاز تخطيطًا وتنفيذًا أوجز أبرز معالمه فيما يلي من نقاط:

١ ـ الالتزام بالحقيقة القائلة: إن المسلمين أمة متميزة حضاريًا، لتميز شريعة الإسلام عن غيرها من الشرائع.. وأن العلاقة مع «الآخر» الحضاري ـ ومن ثم «الآخر» الفلسفي يجب أن تكون علاقة «التفاعل»، من موقع المستقل الراشد، فتبرأ من غلو «الانغلاق» أو «المحاكاة والتقليد»..

٢ ـ اعتماد سبيلي:

أ ـ التجديد والإحياء والتنقية لموروثنا الفلسفي ـ من الوحي الإلهي، والسنة النبوية، وتراث الفلاسفة الإسلاميين ـ وفق معايير العقيدة الإسلامية.. وبعقل معاصر ومستنير.. وفي ضوء مشكلات العصر وتحدياته وقضاياه..

ب ـ والإبداع الفلسفي الجديد، الذى يستجيب لضرورات العصر وقضاياه الفكرية التي لم يعرفها القدماء..

٣ ـ استهداف أن تمثل هذه الفلسفة: فكرية ـ أيديولوجية ـ أمة الإسلام، لالتزامها بعقيدة هذه الأمة، وتوجهها لتفسير واقعها وتطويره وتغييره باتجاه الاتساق مع معايير الإسلام.. وذلك كى لا تكون هذه الفلسفة ترفًا فكريًا لصفوة معزولة عن الواقع ومتعالية عليه، وعلى عقيدة أهله الدينية.. فالمطلوب لهذه الفلسفة ومنها: أن تكون قسمة فى «المشروع الحضارى الإسلامى»، المدعو كى يكون «دليل عمل» النهضة الإسلامية، التى تعيد الإسلام وأمته إلى موقع الإمامة والصدارة والشهود الحضارى فى منتدى الحضارات الإنسانية، قيامًا بفريضة القيادة والترشيد للعالمين.. إنها «فلسفة ـ مجاهدة»، لابد لها من «فلاسفة ـ مجاهدين»!..

٤ ـ أن يكون «التوحيد الإسلامى» بأبعاده العقدية والحضارية والاجتماعية والإنسانية، التي لا تعرف التناهى.. وكذلك «الوسطية الإسلامية ـ الجامعة»: الروح والمزاج والصبغة التى تعصم هذه الفلسفة الإسلامية من أزمة ومأزق فلسفة الحضارة الغربية: مأزق «الثنائية ـ الانشطارية» بين: مادية ومثالية.. فرد ومجموع.. ذات وموضوع.. جسد وروح.. دين ودولة.. دنيا وآخرة.. سماء وأرض.. إلى آخر هذه الثنائيات التى أفقدت وتفقد إنسان تلك الحضارة الغربية التوازن والاتزان.

إن فلسفة الإسلام، وفلسفة المسلم، هى التى تنبع من شمولية الإسلام الجامعة والمحيطة بكل عوالم الكون ـ الغائبة والمشاهدة ـ وبكل أمم المخلوقات ـ الإنسية وغير الإنسية ـ.. وهى التى تعين المسلم ـ إذا اتخذ منها المنظار الذى ينظر به ـ على الانتماء إلى هذا الكون ـ كخليفة عن خالقه، وزميل لمخلوقاته الأخرى ـ فتحقق له السعادة، بالموقف الوسطى المتوازن أمام المتناقضات..

إنها الفلسفة التى يتحقق فيها وبها الجمع والتأليف والتوفيق والتساند والارتفاق بين كل من:

● العقل والنقل.. فعقلها مدرك لنطاقه ولآفاقه.. ونقلها معقول..

● وعالم الغيب وعالم الشهادة..

● والمادية المؤمنة بخالق المادة، الداعي لتقديرها حق قدرها..

● والسببية المؤمنة بخالق الأسباب والمسببات.. والسنن والقوانين الفاعلة والمخلوقة في ذات الوقت..

● واعتماد العقل أداة للنظر في كتابي: الوحي.. والكون.

● ونظرية في المعرفة ترى أثر الموجودات في المعارف.. وتؤمن بالسمعيات مصدراً للمعارف فيما لا تستقل الحواس ـ ومنها العقل ـ بإدراكه..

● وتحقق ـ بالإيمان الديني ـ انتماء الإنسان للكون والمحيط، كي لا يصاب بالاغتراب..

● وتمثل الدليل الذي يفسر للإنسان ـ ويجيبه على ـ علامات استفهامه عن: البدء.. والمسيرة.. والمصير.. والحكمة.. والغاية. وذلك عندما تشمل مقولاتها قضايا من مثل:

أ ـ العقائد: في الألوهية.. والخلق.. والنبوة والرسالة.. وعالم الغيب.. واليوم الآخر.. والحساب والجزاء..

ب ـ والحياة الروحية التي توازن ضرورات الجسد وغرائزه..

جـ ـ والأخلاق..

د ـ والاجتماع الإنساني.. في السياسة.. والاقتصاد.. وكل شئون العمران البشري..

هـ ـ والتربية الجمالية والفنية والأدبية للإنسان..

و ـ والحياة العقلية..

ز ـ وفلسفة الإسلام في العلوم والفنون والآداب.. وفي تصنيف هذه العلوم.. إنها فلسفة حياة المسلمين كما حددها دين الإسلام..

* * *

وإذا كان «الإبداع الفلسفى» الذى يستجيب لهذا التصور، هو سبيل أساسى لتحقيقه، فإن إسلامية هذا الإبداع هى رهن بمجيئه فى إطار وسياق التواصل الحضارى مع ثوابت وأصول دين الإسلام وتراثه فى العقلانية الإسلامية.. وأصول الدين.. وأصول الفقه.. والحكمة والفلسفة الإسلامية..

ولذلك، فأنا أتصور نقطة البدء فى هذا المشروع - الذى يمثل «طموحًا - ضروريًا» - أتصور نقطة البدء فيه متمثلة فى:

أ - الجمع والتصنيف والتبويب لنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية والحكمة العربية المتعلقة بالنظر العقلى.. والعقائد.. والكون.. والإنسان..

ب - إنجاز مشروع: [صفوة المختار من التراث الفلسفى الإسلامى].. لتجتمع لهذا العمل - من أدواته ومنطلقاته - بعد نصوص القرآن والسنة والحكمة العربية:

● المختارات التى تمثل ثوابت وأصول علم الكلام الإسلامى - بعد تنقيته وتجريده وتهذيبه من المعارك والمشكلات التى تجاوزها الزمن، وزالت ملابساتها.. وكذلك ثوابت وأصول فلسفة التشريع الإسلامى - أصول الفقه -..

● والمختارات التى تمثل الإضافة الإسلامية والإبداعات الإسلامية للفلاسفة المسلمين فى شروحهم على فلسفة اليونان والهند..

● والمختارات الصوفية التى جعلت من الذوق والقلب سبيلاً للوعى والمعرفة والارتقاء الروحى، بعد تنقيتها - قدر الإمكان - من الغنوص الباطنى ومن الشعوذة والخرافة..

● والمختارات التى تمثل إبداع المسلمين فى فلسفة العلوم.. وفى تصنيف العلوم.. فإذا أنجزنا هذا المشروع، الذى يجدد وينقى ويحيى: [صفوة النصوص الفلسفية الإسلامية].. ويبوبها، كنا قد يسرنا لفكرنا الفلسفى المعاصر: «الموروث الإسلامى فى الفلسفة».. وهيأنا للعقل الفلسفى المسلم المعاصر: «المنطلق»، الذى يستطيع - إذا هو رأى فى ضوئه واقعه المعاصر - أن يبدع ويطور كى يصل إلى فلسفة إسلامية معاصرة، تتحقق فيها الإسلامية، بالارتباط بالأصول الإسلامية.. وبالاستجابة لمشكلات الواقع الذى يعيشه المسلمون.. الاستجابة الإيجابية التى

توظف الفكر الفلسفى فى مشروع النهضة والإحياء والتجديد..

تلك مجرد نقاط وعناوين تصور أولى.. إذا أغناه الحوار، وطورته الإضافات والتعديلات.. فلقد يكون صالحًا ـ إذا وضع فى الممارسة والتطبيق ـ أن يعبر بنا الحلقة المفرغة للمأزق الفلسفى الذى نعيش فيه، ويقودنا ـ عبر مرحلة «النحو»! ـ إلى «فلسفة إسلامية معاصرة»!.. تتأسس على العقيدة الإسلامية.. وتستعين بالعقلانية الإسلامية.. وتكون بمثابة «الفكرية ـ الأيديولوجية»، التى تصطبغ بها نظرة المسلم للكون، كما تكون قسمة من قسمات المشروع الحضارى الإسلامى.. وأداة من أدوات التغيير للواقع البائس الذى يحياه المسلمون الآن.. والله من وراء القصد.. به نستعين.. وهو ولى التوفيق..

* * *

التنزيه.. والتشبيه

● التنزيه ـ في عـرف المصطلحات الإسـلامـية ـ: هو المغـايرة الكاملة والتامـة والمطلقـة بين الذات الإلهـية وبين سـائر المخلوقـات والمحـدثات.. ووفق عبـارة القدمـاء: فكل ما خطر على بالك فـالله، سبحـانه، ليس كذلك؟!.. لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

● أما التشبيه: فهو المذهب المقابل للتنزيه، يثبت أصحابه للذات الإلهية ما يجعل بينها وبين المخلوقات والمحدثات شبها، قريبًا كان ذلك الشبه أو بعيدًا، ماديًا كان أو معنويًا ـ ويدخل فيه المماثلة.. والتجسد.. والحلول.. إلى آخر مذاهب التشبيه التي عرفتها فلسفات قديمة، تسربت تأثيرات منها إلى بعض مذاهب فلسفة المسلمين..

ولما كانت آيات القرآن الكريم منها المحكم ومنها المتشابه.. ومنها ما تبدو ظواهر دلالاته متعارضة مع ظواهر دلالات آيات أخـرى.. كان رد المتشابه إلى المحكم.. وتفسير القرآن بالقرآن.. والنظر إلى القضية في ضوء مجموع الآيات التي عرضت لهـا، وليس بالوقوف عند بعض هذه الآيات.. وكـان التأويل، الذي هـو: صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتـمله ـ وفق ضوابط الشرع واللغة ـ.. كانت تلك جميعها سبلاً للنظر العقلي الذي يحقق الاتساق للفكر القرآني، ويفتح السبل أمام العقل المسلم كي يمد ظلال النصوص المتناهية إلى ما لا يتناهى من المستجدات والمستحدثات..

صحـيح أن تيارات الفكر الإسـلامـي قد عرفت «جـمود النصوصـيين»، الذين وقفوا ـ ببلادة! ـ عند ظواهر النصـوص، والذين اتخذوا من أدوات النظر العقلي موقفًا عدائيًا أو غير ودي.. لـكنهم كانوا في مجرى الفكر الإسلامي «الاستثناء ـ الشاذ» وليس «القاعدة ـ العـامة».. وظلت العقلانية الإسلامـية تسلك سبل النظر

العقلى لتنفى التناقض أو التعارض عن آيات القرآن الكريم.. صنعت العقلانية الإسلامية ذلك فى الكثير من القضايا الفكرية.. ومنها قضيتا: التنزيه والتشبيه.. والجبر والاختيار..

● التنزيه.. والتشبيه

ولا يحسبن أحد أن هذا الأفق الذى اتسع أمام العقل المسلم، بالتأويل الذى قام على قواعد البلاغة العربية، إنما كان أثرا من آثار ترجمة الفلسفة اليونانية إلى العربية، والتأثيرات التى أحدثتها فى فلسفة المسلمين.. فتلك قسمة أصيلة فى تراثنا الفلسفى، نمت وتبلورت فى مباحثنا الكلامية قبل ترجمة فلسفة اليونان واستيعابها.. كما أنها قد صيغت فى لغة لا أثر فيها للطابع الذى تميزت به صياغاتنا الفلسفية المتأثرة بمقولات فلاسفة اليونان..

فالإمام ـ المعتزلى فى الأصول والمذهب الكلامى ـ الزيدى فى نظرية الإمامة ـ القاسم الرسى [١٦٩ ـ ٢٤٦هـ ٧٨٥ ـ ٨٦٠م] يستقصى فى كتبه ورسائله، تقريبا، جميع المواطن التى توهم تشبيه الذات الإلهية بالمخلوقات والمحدثات، ثم يسلك سبيل البلاغة العربية، فيؤول جميع الآيات المتشابهات لتلحق معانيها وتتآزر بالأخرى المحكمات.

فإذا وقفت مدارك المشبهة عند ظاهر نص الآية القرآنية ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[١] فقالوا برؤية الله جهرة بالأبصار يوم القيامة.. رفض أهل التنزيه ذلك ـ بلسان القاسم الرسى ـ منبهين على أن قوانين التأويل العربية تؤول هذه الآية بما يتفق مع الآية المحكمة التى تتحدث عن ذات الله، سبحانه، فتقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾[٢].. فالوجوه الناضرة، هى: المشرقة الحسنة.. ومعنى أنها إلى ربها ناظرة: «منتظرة ثوابه وكرامته ورحمته.. هكذا ذلك فى لغات العرب، وبلغاتها ولسانها نزل القرآن. يقولون، إذا جاء الخصب بعد الجدب: قد نظر الله إلى خلقه.. يريدون: أنه أتاهم بالفرج والرخاء، ليس يعنون أنه كان لا يراهم ثم صار يراهم».. ومثل ذلك معنى قوله سبحانه عن أهل النار ﴿أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[٣].. أى «أنهم لا يرجون من الله ثوابا»[٤].

ومثل ذلك معنى «الوجـه» في القرآن الكريم عندما يرد في حق الله ﴿كُلُّ شيءٍ هالكٌ إلاَّ وجْهَهُ﴾[٥] . . ﴿ويبْقَى وجْهُ ربِّك﴾[٦] . . فليس المراد ظاهر النص الذي يثبت لله وجهًا، حتى يشبه المحدثات ـ تعالى سبحانه عن ذلك، فهو ﴿لَيْس كَمثْله شَيْءٌ﴾ وإنما المراد «إياه، لا غيره. . كل شيء هالك إلا إياه»

ومثل ذلك معنى «اليـد» في قوله تعـالى: ﴿خَلَقْتُ بيَدَيَّ﴾[٧] . . أي بقـدرتي وعلمي. . ومـعنى «المجيء» في قـوله: ﴿وجَاءَ رَبُّكَ والْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[٨] . . أي جاءت آياتـه العظام في مشـاهد القيـامة. . وهذا التأويـل جارٍ على سنن البـلاغة العربيـة، فالعـرب «تقول: أسلم فـلان على يدي فلان، يريدون: بقـوله وأمره، ويقولون:

* بيد الله عمرنا والفناء *

يريدون: بالله عمرنا والفناء. ويقولون: نواصينا بيد الله، ونحن في قبضة الله، يريدون بهذا كله: إنا في قدرته وملكه، ليس يذهبون إلى يد كـيد الإنسان أو غيره من الخلق. .»[٩].

وعلى هذا الدرب يسير الإمـام يحيى بن الحسين بن القـاسم الرسي [٣٤٠ ـ ٤٢٤هـ ٩٥٢ ـ ١٠٣٣م] عندما يؤول قول الله سبحانه: ﴿ويَحْمِلُ عرْش ربِّك فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾[١٠] بما ينفي التشبيه ويشهد للتنزيه، مسـتخدمًا وسـائل البلاغة العربية في التأويل، وضاربًا الأمثال من أسـاليب العرب في هذا الميدان. . «فالعرش هو: المُلْك، كما قال: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[١١] . . قال الشاعر:

تداركتها عبسًا وقد ثل عرشها وذبيان إذ زلت بأقدامها النعل

يقول: إنه تهدم عـزها وملكها. ومعنى ﴿ويَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾ يقول: يتقلدون أمر الله ونهيه في خلقه، كما قال: ﴿ولَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[١٢] يقول: يتقلدون أمورهم، وقال:

حُمِّلْتَ أمرًا جليلاً فاضطلعت به وقمـت فيـه بحـق الله يا عمـرا

يقول: قُلِّدْتَ أمرًا جليلاً: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ يقول: منهم، قامت «فوق» مقام «من».

﴿ثَمَانِيَةٌ﴾، يمكن أن تكون ثمانية أصناف، أو ثمانية آلاف، أو ثمانية أنفس..».

كذلك يؤول «الساق» فى قوله تعالى ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾[13] بـ «الشدة».. كما قال الشاعر العربى:

* قامت بنا الحرب على ساق فشمرنا على[14] *

هكذا.. وعلى هذا النحو أفاض المتكلمون المسلمون فى مباحث «التنزيه»، متخذين من التأويل، وفق قوانين البلاغة العربية، سبيلاً إلى نفى «التشبيه» عن الذات الإلهية، رادين الآيات المتشابهات إلى الأخرى المحكمات فى القرآن الكريم..

* الجبر.. والاختيار

وكما سلك المتكلمون هذا السبيل لإثبات «التوحيد» لله سبحانه، بالبرهنة على «التنزيه» النافى «للتشبيه».. كذلك استخدموه لإثبات «العدل» لله، سبحانه، بالبرهنة على «اختيار» الإنسان وحريته ومسئوليته، حتى يكون حسابه وجزاؤه عدلاً، فنفوا شبهات «الجور» عن الذات الإلهية، تلك التى يوهم «الجبر» إلحاقها بالله.. تنزه عن ذلك سبحانه وتعالى..

وفى الكتب والرسائل التى صاغ فيها المتكلمون مقولاتهم ومقالاتهم تناثرت التأويلات للآيات المتشابهات التى توهم «جبر» الإنسان ونفى الحرية والقدرة والإرادة والاستطاعة عنه، والتى تثبت له فعلا حقيقيًا لأعماله التى يأتيها بإرادة وتقدير..

فعندما يستدل «المجبرة» على «الجبر» بظاهر قول الله سبحانه: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[15]، وبظاهر قوله: ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[16].. نجد أهل العدل، القائلين «بالاختيار»، يؤولون هذا الظاهر.. فيرون هذا «الختم» و«الطبع» «تمثيلاً».. فيقولون ـ بلسان الإمام يحيى بن الحسين ـ: «إن معنى الختم والطبع من الله هو على معنى التمثيل لهم والتقريع، وإثبات الحجة عليهم وتبيين ضلالتهم لهم، فيقول سبحانه: إن امتناعكم من فعل الرشيد وقلة قبولكم له، كمن طبع

على قلبه بما منعه من لبه وحرمه من تمييزه ونظره، وجودة فهمه.. فمثلهم في قلة تفهمهم وإنصافهم لمعقولهم وتركهم لرشدهم واتباعهم لغيهم بمن طبع على قلبه وختم، عن التمييز، على سمعه وبصره، عن أن تعلم ما يعلمون أو تفهم ما يفهمون من البهائم.. ألم تر كيف يقول: ﴿أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[17]..»[18].

وفي موطن آخر من المواطن التي تَوَهَّم فيها «المجبرة» أن ظواهر الآيات القرآنية تشهد «للجبر» فقالوا إن الله هو الذي زين للعصاة عصيانهم، مستشهدين بظاهر الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾[19].. نجد أهل العدل يتصدون لهم قائلين إن هذا القول القرآني قد جاء على سبيل «المجاز» لا «الحقيقة».. فـ ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ﴾: أي تفضلنا وأمهلنا وأحسنا في التأني بكم ورحمنا، وكذلك تقول العرب لعبيدها، يقول الرجل لمملوكه، إذا تركه من العقوبة على ذنب من بعد ذنب وتأنى به وعفى عنه وصفح ليرجع ويصلح فتمادى في العصيان ولم يشكر من سيده الإحسان، فيقول له سيده: أنا زينت لك وأطمعتك فيما أنت فيه إذ تركتك وتأنيت بك ولم آخذك ولم أعاجلك. فهذا على مجاز الكلام، المعروف عند أهل الفصاحة والتمام..»[20].

وعندما يستشهد «المجبرة» على «الجبر» بقول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾[21].. قائلين إن الله هو الذي «جعلهم مكارين، وقضى به عليهم، وركّبه فيهم».. يرفضُ أهل العدل هذا الاستدلال، سالكين للتأويل قواعد البلاغة العربية التي «تنفي لفظا بينما تعني الإيجاب معنى، أو العكس».. فيقولون: «إن جعل الله لهم هو خلقه لهم وتصويرهم في كل قرية كما صور غيرهم.. وأما قوله: ﴿لِيَمْكُرُوا﴾ فإنما أراد: لأن لا يمكروا، فطرح «لا» وهو يريدها، استخفافا لها، والقرآن عربي، بلسان العرب نزل، وهذا تفعله العرب، تطرح «لا» وهي تريدها، وتأتي بها وهي لا تريدها، فيخرج اللفظ بخلاف المعنى، يخرج اللفظ لفظ نفي وهو إيجاب، ويخرج لفظ إيجاب وهو معنى نفي. قال الله عز وجل: ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[22]، فقال: ﴿لِئَلاَّ﴾، فخرج لفظها لفظ نفي

ومعناها معنى إيجاب، فأتى بـ«لا» وهو لا يريدها، وإنما معناها: ليعلم أهل الكتاب.. وقال: ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[٢٣]، فخرج اللفظ لفظ إيجاب ومعناها نفي، يريد سبحانه: لئلا يزدادوا إثما. وقال الشاعر:

ما زال ذو الخيرات لا يقول ... ويصدق القول ولا يحول

فقال: لا يقول، وإنما يريد: يقول، فأدخلها ـ [أي «لا»] ـ وهو لا يريدها، ووصل بها كلامه ليتم له بيته استخفافا لها. وقال آخر:

بيوم حدود لا فضحتم أباكم ... وحاربتم والخيل يدمى شكيمها

فقال: لا فضحتم أباكم، وإنما يريد: فضحتم، فأدخلها وهو لا يريدها.. وقال آخر:

نزلتم منزل الأضياف منا ... فعجلنا القرى أن تشتمونا

فقال: أن تشتمونا، فخرج لفظها لفظ إيجاب في قوله: أن تشتمونا، ومعناها نفي، أراد: لأن لا تشتمونا..»[٢٤]..

* * *

تلك أمثلة قليلة العدد، أشرنا إليها نماذج لمئات الأمثلة التى ساقها المتكلمون فى آثارهم الفكرية شاهدة على استخدامهم أساليب البلاغة وقوانينها لتأويل الآيات المتشابهات وإخراجها من الدلالات الظاهرة إلى المعانى المحتملة، نفيًا لتناقض القرآن واختلافه، وردًا للمتشابه إلى المحكم، وانتصارًا لتوحيد الله سبحانه، بتنزيهه عن التشبيه والمماثلة والتجسيد والتحيز فى المكان والحلول.. وتسليمًا بعدله، جل وعلا، المقتضى تفويض الإنسان، بالإرادة الإنسانية والاستطاعة البشرية، فى خلق أفعاله، حتى يكون حسابه وجزاؤه جزاء وفاقًا..

فإذا قامت هذه النصوص ـ التى تعمدنا إيرادها كما تورد «الوثائق»! ـ شاهدًا على أهمية هذا المبحث القديم وجدارته باهتمام البلاغيين المعاصرين.. وإذا أثارت هذه الأمثلة شهية الباحثين لمزيد من التنقيب فى هذا الميدان، تحققت البغية من وراء هذه الصفحات.

• **الهوامش**

(١) القيامة: ٢٢.

(٢) الأنعام: ١٠٣.

(٣) آل عمران: ٧٧.

(٤) القاسم الرسي [رسائل العدل والتوحيد] جـ١ ص١٠٥، ١٠٦. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٧١م.

(٥) القصص: ٨٨.

(٦) الرحمن: ٢٧.

(٧) ص: ٧٥.

(٨) الفجر: ٢٢.

(٩) المصدر السابق. جـ١ ص١٠٦ ـ ١٠٩

(١٠) الحاقة: ١٧.

(١١) النمل: ٢٦.

(١٢) العنكبوت: ١٣.

(١٣) القلم: ٤٢.

(١٤) يحيى بن الحسين [رسائل العدل والتوحيد] جـ٢ ص١١٠.

(١٥) البقرة: ٧.

(١٦) النساء: ١٥٥.

(١٧) الأعراف: ١٧٩.

(١٨) [رسائل العدل والتوحيد] جـ٢ ص١٩٢.

(١٩) النمل ٤.

(٢٠) [رسائل العدل والتوحيد] جـ٢ ص٢٢١ـ٢٢٣.

(٢١) الأنعام: ١٢٣.

(٢٢) الحديد: ٢٩.

(٢٣) آل عمران: ١٧٨.

(٢٤) [رسائل العدل والتوحيد] جـ٢ ص٢٣٠ ـ ٢٣٢.

* * *

أنبياء مصر عبر التاريخ

كل الناس يرددون : «مصر أم الدنيا».. لكن يبدو ـ من حقائق هذه الدراسة ـ «أن مصر هى أم الدنيا والدين أيضاً»

بآدم، عليه السلام، بدأت مسيرة الإنسان على الأرض، فهو أبو البشرية، الذى خلقه الله وسواه ونفخ فيه من روحه.. ولطفًا من الخالق، سبحانه وتعالى، بخلقه، اقترنت رعايته لهذا الإنسان بلحظات الخلق والاستخلاف والأمر والنهى والتكليف ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣٣].

وبوحى الله لآدم، عليه السلام، بدأت النبوة فى المسيرة الإنسانية، مقترنة بلحظة استخلاف الله لهذا الإنسان، وتكليفه إياه..

وإذا كانت الدراسات الآثارية والحضارية تكاد تجمع على أن حضارة مصر هى أقدم وأعرق الحضارات، فإن أولية مصر فى الرسالات السماوية شاهد على أن حضارتها هذه قد اقترنت بالدين الإلهى والتوحيد الدينى، الأمر الذى جعلها الأم فى المدنية الدنيوية وفى التوحيد الدينى أيضًا..

١ ـ نبوة ورسالة إدريس، عليه السلام

لقد بدأت النبوة بآدم، ثم تلاه «شيث».. ومنذ حياة آدم، في فجر الإنسانية، اصطفت مشيئة الله مصر ـ كنانة الله في أرضه ـ لتبدأ على أرضها النبوة والرسالة الدينية.. ففي ربوعها، وانطلاقًا منها كانت بعثة نبي الله إدريس، الذي مثل في سلسلة النبوة ثالث الأنبياء، والذي عاش وبعث في حياة آدم ـ عليهم جميعًا الصلاة والسلام ـ..

وإذا كان آدم قد وقفت علاقته بالشرائع الإلهية عند «النبوة» فقط، ولم يكن «رسولا».. وإذا كان هذا هو حال «شيث» أيضًا ـ والذي لم يحفظ لنا التاريخ الوطن الذي عاش فيه ـ فإن الوضع مع إدريس كان متميزًا.. فهو معدود ضمن الأنبياء المرسلين، ولقد حفظ لنا التاريخ ـ وخاصة تاريخ الحكمة والحكماء ـ ذكر مصر، باعتبارها الوطن الذي بدأت فيه أولى وأقدم رسالات السماء إلى الإنسان، على يد إدريس، عليه السلام..

وعن إدريس تحدث القرآن الكريم: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم ٥٦، ٥٧]، ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء ٨٥، ٨٦]، وفي الصحيحين ـ من حديث الإسراء ـ أن رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ مر بإدريس في السماء الرابعة ـ في رحلة المعراج ـ ضمن من مر بهم من الرسل والأنبياء..

وعن ترتيب إدريس وسبقه على درب النبوة والرسالة، ومن ثم سبق مصر على درب الاصطفاء هذا، يتحدث الذين كتبوا قصص الأنبياء.. فيقول الحافظ ابن كثير [٧٠١ ـ ٧٧٤هـ ١٣٠٢ ـ ١٣٧٣م] في [البداية والنهاية]: «إنه كان أول بني آدم أُعطي النبوة بعد جده آدم وبعد شيث، عليهما السلام».. كما يقول الشهرستاني [٤٧٩ ـ ٥٤٨هـ ١٠٨٦ ـ ١١٥٣م]: «ولما كبر إدريس آتاه الله النبوة، فنهى المفسدين من بني آدم عن مخالفتهم شريعة آدم وشيث..»..

وعن معاصرته لآدم، يقول ابن إسحاق [١٥١هـ ٧٦٨م]: «إنه أدرك من حياة آدم ثلاثمائة سنة وثماني سنين»..

لقد ولد إدريس «بمنف»، وخرج من مصر، وجاب الأرض المعمورة يومئذ كلها، ثم عاد إلى مصر، وفيها بعث، حتى رفعه الله فيها مكانًا عليًا، بعد اثنين وثمانين عامًا.. واسمه، في التوراة العبرية «خنوخ»، وفي ترجمتها العربية «أخنوخ».. أما في اليونانية فإن اسمه: «أرميس»، وعُرِّب اسمه إلى «هرمس».. ولأبوته ومرجعية رسالته في الحكمة والتوحيد اشتهر «بهرمس الهرامسة»، وترجمت له كتب طبقات الحكماء مع قصص الأنبياء..

ومعنى ذلك، أن مصر قد دخلت في دين الله، وعرفت التوحيد، وحيًا لها، وليس وضعًا بشريًا وإفرازًا إنسانيًا، وتلقت علم النبوة، واحتضنت الرسالة السماوية منذ فجر الإنسانية، وفي حياة أبي البشرية آدم، عليه السلام.

بل إن ما بقى لنا من قصص نبي الله ورسول مصر إدريس، عليه السلام، ليوحي بأن هذا العمق الحضاري والسبق في التمدن الدنيوي، اللذين تميزت بهما مصر قبل سائر الحضارات، إنما كانت لهما عروة وثقى بعلم النبوة الذي جاءها به رسولها إدريس، عليه السلام.. فأمومتها «للدنيا» هي جزء من أمومتها «للدين».. فمنذ فجر الإنسانية تميزت الرسالة التي شرفت بها مصر بعلوم: الحكمة، والتمدن، والسياسة المدنية، وعلوم الكون، الأرضية منها والسماوية، إلى جانب علوم الشرع والدين.. حتى ليتحدث الذين أرخوا للحكمة والحكماء ـ ومنهم القِفْطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف [٥٦٨ ـ ٦٤٦ هـ ١١٧٢ ـ ١٢٤٨م] ـ صاحب كتاب [تاريخ الحكماء] ـ وابن جلجل، داود بن حسان [بعد ٣٧٢هـ ٩٨٢م] ـ صاحب كتاب [طبقات الأطباء والحكماء] ـ يتحدثون عن هذه الأبعاد العلمية والحضارية في رسالة إدريس فيقولون: «إنه دعا إلى دين الله، والقول بالتوحيد، وعبادة الخالق، وتخليص النفوس من العذاب في الآخرة بالعمل الصالح في الدنيا، وحض على الزهد في الدنيا، والعمل بالعدل، وأمر الناس بصلوات ذكرها لهم على صفات بينها، وأمرهم بصيام أيام معروفة من كل شهر، وحثهم على الجهاد لأعداء دينهم، وأمرهم بزكاة الأموال معونة للضعفاء بها، وغلظ عليهم في الطهارة من الجنابة، وحرم المسكر من كل شيء من المشروبات، وجعل لهم أعيادًا

كثيرة في أوقات معروفة وقربانات، منها: دخول الشمس رءوس البروج، ومنها رؤية الهلال، وكلما صارت الكواكب في بيوتها وشرفها وناظرت كواكب أخرى.

ولقد أقام إدريس بمصر - ومن معه - يدعو الخلائق إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وطاعة الله، عز وجل.. ورسم لهم تمدين المدن، وجمع له طالبى العلم بكل مدينة، فعرفهم السياسة المدنية، وقرر لهم قواعدها.. وعلمهم العلوم.. وهو أول من استخرج الحكمة، وعلم النجوم، فإن الله، عز وجل، أفهمه أسرار الفلك، وتركيبه، ونقط اجتماع الكواكب فيه، وأفهمه عدد السنين والحساب.

كذلك نجد فيما جاء عن إدريس، عليه السلام، ما يشهد بأن رسالته كانت عالمية، لا محلية، انطلقت من مصر لتشمل كل المعمور من الأرض في ذلك الحين، فهو قد كلم الناس يومئذ بألسنتهم المتعددة.. وعلمهم العلوم.. فبنت كل جماعة مدنا في أرضها.. وأقام للأمم سننا - طرقا - في كل إقليم سنة تليق بأهله.. ووعد أهل ملته بأنبياء يأتون من بعده، وعرفهم صفة النبي، فقال يكون بريئا من المذمات والآفات كلها، كاملا في الفضائل الممدوحات، لا يقصر عن مسألة يسأل عنها، وأن يكون مستجاب الدعوة، وأن يكون مذهبه ودعوته المذهب الذي يصلح به العالم.. وطبقت شريعته المعمور من الأرض، وكانت قبلته إلى حقيقة الجنوب على خط نصف النهار - أي إلى أول بيت وضع للناس في الأرض -..

وإلى إدريس ترجع جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان.. وهو أول من خط بالقلم، وعلم أسرار الحروف.. وأول من تكلم في الجواهر العلوية والحركات النجومية.. وأول من بنى الهياكل ومجد الله فيها.. وأول من نظر في علم الطب، وألف لأهل زمانه قصائد موزونة في الأشياء الأرضية والسماوية.. وحتى يخلد هذه العلوم، ويحفظها من عاديات الدهر وآفات النار والطوفان، بنى الأهرام والبرابي، وصور فيها جميع الصناعات والآلات، ورسم فيها صفات العلوم، حرصا منه على تخليدها لمن بعده، خيفة أن يذهب رسمها من العالم..!..

كل هذا نسبته كتب طبقات الحكماء وقصص الأنبياء إلى إدريس عليه السلام.. وذلك قبل كشوف الأهرامات وآثار ومخلفات حضارة المصريين القدماء..

ففى مصر، إذا، بدأت بواكير التوحيد الدينى فى الألوهية، وحيا سماويًا، منذ عصر آدم عليه السلام - وليس - كما يزعم الوضعيون والماديون من علماء المصريات - إفرازًا بشريًا، واختراعًا مصريا قبل الديانات والرسالات! -. . فالإنسانية بدأت بالإيمان الدينى والتوحيد فى الألوهية، والعمق والسبق المصرى فى هذا التوحيد، هو جزء من رسالة إدريس، عليه السلام. . وكما علّم الله آدم الأسماء كلها، أوحى، سبحانه وتعالى، إلى نبى مصر إدريس علوم الحكمة والتمدن والسياسة المدنية وحقائق العلوم الطبيعية، فعلّمها للمصريين، لتتواصل ومضات التوحيد الدينى مع عبقرية العلوم المدنية على أرض مصر، جيلاً بعد جيل - صعودًا تارة وهبوطًا تارة أخرى - منذ فجر الإنسانية وإلى أن دخل أهلها - بالفتح الإسلامى لأرضها - فى الشريعة المحمدية الخاتمة أفواجًا، وذلك عندما اكتمل دين الله الواحد بنبوة ورسالة محمد بن عبد الله، عليه وعلى كل الأنبياء والرسل أفضل الصلاة وأزكى السلام. .

* * *

وعبر هذا التاريخ المصرى - الذى هو أطول وأعرق ما حفظت ذاكرة الإنسانية من التاريخ - ظلت ومضات التوحيد الدينى فى مصر شاهدة على انتماء المصريين إلى دين الله. . ولقد تمثل ذلك فيمن زارها وعاش فيها وبشّر من الأنبياء والمرسلين. . وفيمن ولد فيها ونشأ وبعث منها - ممن قصّ الله علينا قصصهم فى القرآن الكريم. . وأيضًا فى حكمائها، الذين جددوا الدعوة إلى التوحيد، ورفعوا راياته فى مواجهة طوارئ الوثنية. . والذين قد يكونون أنبياء ورسلاً ممن لم يرد ذكرهم فى القرآن الكريم ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]. .

* * *

٢- إبراهيم الخليل

فإلى مصر رحل إبراهيم الخليل، عليه السلام، وهو أبو الأنبياء - وكان ذلك فى عصر الهكسوس [١٦٧٥ - ١٥٨٠ ق م] -. . بل إن هناك من يقول إنه نشأ بمصر وبعث فيها، بدليل أن دعوته إلى التوحيد قد بدأت بالاعتراض على عبادة

قومه «لآزر» ـ الذى هو «أزوريس» ـ وكان معناه عندهم الإله القوى المعين ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].. ولما كان أبو إبراهيم هو «تارح بن ناحور» ـ وليس «آزر» ـ فآزر مفعول القول، أى: أتتخذ ـ يا أبى ـ آزر الصنم إلهًا معبودًا؟!.. وبدليل احتجاج الخليل إبراهيم بمنطق الفلك والكواكب والنجوم، والذى لا يستقيم إلا فى مناخ ـ كمصر ـ كان له السبق ـ منذ إدريس ـ فى ازدهار مثل هذه العلوم ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥ ـ ٧٩]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ومن بنات مصر ـ هاجر عليها السلام ـ أنجب إبراهيم نبى الله ورسوله إسماعيل، عليه السلام ـ وهو الذى زوجته أمه هاجر من مصرية أيضًا، فجاء منها نسل العرب العدنانيين..

وفى إحدى رحلات إبراهيم الخليل، عليه السلام، أعاد العمران إلى أول بيت وضع للناس فى الأرض ـ البيت الحرام، قبلة إدريس وقومه ـ الذى سيكون الحرم الآمن والقبلة للأمة الخاتمة ـ أمة خاتم الأنبياء محمد، التى ستحيى ملة ومناسك الخليل أبى الأنبياء.. ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩].

* * *

٣ـ لوط

وفى مصر، صحب لوط بن هاران بن تارح، عليه السلام، عمه إبراهيم الخليل، عليه السلام، وآمن برسالته، واهتدى بهديه.. ومنها خرج - بأمر الله - رسولاً إلى أهل «سدوم» - فى دائرة الأردن ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت:٢٦].

* * *

٤ـ يوسف

وإلى مصر جاء يوسف بن يعقوب، عليهما السلام.. بعد أن التقطته قافلة من «المديانيين»، وباعته إلى قافلة من «الإسماعيليين»، الذين باعوه إلى قائد شرطة عاصمة الهكسوس «صان».. وفيها امتحن.. وسجن.. وأوحى إليه ربه.. وبها بلغ رسالته.. وعمل وساس وأصلح.. وكان ذلك على عهد الأسرة الخامسة عشرة - فى حكم الهكسوس - التى يبدأ حكمها سنة ١٦٧٥ق م - وكان دخوله لمصر حوالى سنة ١٦٠٠ ق م - على عهد الملك «أبابى الأول».. ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف:٤٦ - ٤٩]، ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٥٤ - ٥٦].

* * *

٥ـ يعقوب

وباستدعاء من يوسف، عليه السلام، جاء إلى مصر وعاش فيها، وعبد الله ودعا إليه نبى الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، عليهم السلام.. وعدد من بنيه

سنة ١٦٢٧ ق.م.. ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

ولقد عاش يعقوب بمصر سبع عشرة سنة.. وفيها توفي، بعد أن أوصى بنيه - على أرض مصر - بالإيمان بالإسلام ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

* وفي مصر، ارتفعت رايات دعوة التوحيد الديني، كأثر من آثار النبوات والرسالات السماوية، في مناجاة «أمنحتب الثالث» [١٣٩٧ - ١٣٦٠ق م] لله الواحد الأحد:

[أيها الموجِد، دون أن تُوجَد..

مصوِّرٌ دون أن تُصوَّر..

هادي الملايين إلى السُّبل..

الخالد في آثاره التي لا يحيط بها حصر].

* وأيضًا - في رسالة التوحيد التي دعا إليها «أمنحتب الرابع» - أخناتون - [١٣٧٠ - ١٣٤٩ ق م].

[أنت إله، يا أوحد، ولا شبيه لك.

لقد خلقت الأرض حسبما تهوى، أنت وحدك..

خلقتها ولا شريك لك..

أنت خالق الجرثومة في المرأة..

والذي يذرأ من البذرة أناسًا..

وجاعل الوليد يعيش في بطن أمه..

مهدئا إياه حتى لا يبكى..

ومرضعًا إياه حتى فى الرحم..

وأنت معطى النفس حتى تحفظ الحياة على كل إنسان خلقته..

حينما ينزل من الرحم فى يوم ولادته..

وأنت تفتح فمه تمامًا..

وتمنحه ضروريات الحياة..].

● وكذلك، عند رمسيس الثانى - [١٢٩٠ - ١٢٢٣ ق م] - الذى أخذ العلم والحكمة والأخلاق من تراث نبى الله إدريس، عليه السلام..

* * *

٦، ٧- موسى وهارون

وفى مصر، ولد ونشأ وتعلم نبى الله موسى بن عمران بن قاهت بن لاوى بن يعقوب.. وأخوه هارون، عليهم السلام.. وفيها أوحى الله إليهم، وأنزل عليهم التوراة والألواح [حوالى سنة ١٢٠٠ ق م] باللغة الهيروغليفية - لغة مصر - فجابهت حرية التوحيد عبودية الفرعونية على ضفاف وادى النيل.. ولقد ولد موسى فى زمن الملك رمسيس الثانى [١٢٩٠ - ١٢٢٣ق م].. وكان خروجه فى زمن الملك منفتاح بن رمسيس الثانى [١٢٢٣ - ١٢١١ق م].. ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٢ - ٤٤].

● ثم يتجدد - فى مصر - ويسطع شعاع التوحيد عند رمسيس الثالث - الأكبر - [١١٩٢ - ١١٦٠ق م]، الذى قال - عندما احتدم القتال بينه وبين الوثنيين فى معركة «قادش» -:

[رأيت الله فى المعركة.

كان أقرب إلىّ من جنودى.

هو الذى نصرنى].

● حتى لقد غدت شريعة السماء وعقيدة التوحيد ـ اللتين عرفتهما مصر منذ فجر الإنسانية ـ روحا سارية فى الثقافة المصرية، تغالب «غَبش الشرك والوثنية» عبر التاريخ المصرى الطويل، فتعكسها وتجسدها شهادة المصرى، يوم الحساب، بين يدى الواحد الأحد ـ كما جاء فى «متون الأهرام» ـ:

[أنا لم أشرك بالإله.

أنا لم أعقّ والدىّ.

أنا لم ألوث ماء النيل.

أنا لم أصد الماء فى موسم جريانه.

ولم أقم سدًا فى مجراه.

أنا لم أنقص المقياس.

ولم أطفف الميزان.

أنا لم أطرد الماشية من مراعيها.

أنا لم أتسبب فى بكاء أحد.

أنا لم أحرم إنسانًا من حق له.

أنا لم أختطف اللبن من فم الرضيع.

أنا لم أطفئ شعلة فى وقت الحاجة إليها.

أنا لم أعترض على إرادة الله..]

حتى ليقول ابن كثير [٧٠١ـ ٧٧٤هـ ١٣٠٢ـ ١٣٧٣م] ـ فى [البداية والنهاية] ـ عن مغالبة نقاء التوحيد لغبش الوثنية عند المصريين، عبر تاريخهم الطويل: «وأهل مصر وإن كانوا يعبدون أصنامًا، إلا أنهم يعلمون أن الذى يغفر الذنوب ويؤاخذ بها هو الله وحده لا شريك له فى ذلك» ـ جـ١ ص٢٠٤.

* * *

٨ـ عيسى ابن مريم

وإلى مصر، لجأ عيسى ابن مريم، مع أمه ـ سيدة نساء العالمين ـ طلبا للأمن، ونجاة من طلب «هيرودس» [٤ق م ـ ٣٩م] ـ الذى أراد أن يقتله ـ.. وفى مصر، وجدوا الأمن والقرار ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

وعندما جدد المسيح، عليه السلام، رسالة التوحيد، وأعاد الروح إلى الشريعة ـ بعد أن تحول التوحيد إلى «وثنية ـ مادية» على يد اليهود ـ احتضنت مصر، على الفور، دين التوحيد، الذى بشر به عيسى، عليه السلام.

● فلما انحرفت الدولة البيزنطية ـ والمجامع التى انعقدت فى المدن البيزنطية.. «مجمع نيقية» سنة ٣٢٥م و«مجمع القسطنطينية» سنة ٣٨١م ـ بتوحيد النصرانية، وأفسدت «الغنوصية الهلينية» هذا التوحيد، خاضت مصر معركة الدفاع عن التوحيد، وذلك عندما رفعت «الآريوسية» ـ نسبة إلى أسقف الإسكندرية «آريوس» [٢٥٦ ـ ٣٣٦م] ـ رفعت لواء التوحيد فى الألوهية، وتمسكت بأن الله جوهر أزلى أحد، لم يلد ولم يولد، وكل ما سواه مخلوق، حتى «الكلمة»، فإنها، كغيرها من المخلوقات، مخلوقة من لا شيء.. وأن المسيح لم يكن قبل أن يولد.. وأن الله قد نجاه من الصلب ـ الذى وقع على الشبيه ـ..

● ولقد حفظت مصر كل هذا الفكر التوحيدى، حتى بعد أن طغت عقائد قانون الإيمان البيزنطى على أغلب كنائس النصرانية، فضمت «مخطوطات نجع حمادى» ـ التى اكتشفت سنة ١٩٤٧م ـ أقدم الأناجيل التى حفظت نقاء التوحيد النصرانى ـ «إنجيل توماس» و«إنجيل مريم المجدلية» و«إنجيل فيليب» و«إنجيل بطرس» و«إنجيل المصريين» ـ وغيرها.. وفيها ثلاثة وخمسون نصا، تقع فى ١١٥٣ صفحة، جمعت فى ثلاثة عشر مجلدا ـ تجسد شهادة التاريخ على ولاء المصريين لعقيدة التوحيد، كما مثلتها النبوات والرسالات السماوية التى تعاقبت على ضفاف النيل.

وإذا كانت هذه الأناجيل قد نجت من الدمار الذى أصاب به البيزنطيون تراث التوحيد النصرانى، عندما أحرقوا مكتبة معبد «سرابيوم» ـ بالإسكندرية ـ وغالبية

مخطوطات مكتبة الإسكندرية، وأغلقوا أبوابها، بعد قتل عميدها.. فإن بقاء هذه الأناجيل - التي سبق تاريخ تدوينها تاريخ تدوين الأناجيل المشهورة - متى، ومرقص، ولوقا، ويوحنا - بعشرين عامًا - قد فتح الباب لإعادة كتابة هذا التاريخ، الذي يتميز فيه دور مصر - صاحبة أول كنيسة نصرانية - على درب التوحيد الديني، منذ عصر آدم، ونبي مصر إدريس، وحتى رسالة المسيح، عليهم جميعًا الصلاة والسلام.. ذلك هو تاريخ مصر مع النبوات والأنبياء والرسل والرسالات..

● بل لعلها ذات دلالة لا يخطؤها الفكر أن يختص القرآن الكريم - في صفات الأنبياء والمرسلين - صفة «الصديق» بالذين بعثوا في مصر أو عاشوا فيها إدريس.. وإبراهيم.. ويوسف.. ومريم - عليهم السلام - ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم:٥٦]، ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم:٤١]، ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ [يوسف:٤٦]، ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة:٧٥].

● بل إن المرأتين اللتين تحدث القرآن الكريم عن أن الله قد أوحى إليهما - أم موسى.. ومريم - قد عاشتا في مصر ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧]، ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران:٤٢، ٤٣].

● ولهذا التاريخ المصري مع النبوات والرسالات.. ومع عقيدة التوحيد.. والذي هو أقدم وأعرق تاريخ لوطن من أوطان الدنيا مع الرسل والأنبياء.. كان دخول أهل مصر أفواجًا في الإسلام، عندما أطلت عليهم عقيدة التوحيد الإسلامية، في أرقى صورها تنزيهًا وتجريدًا.. فلقد استراحت إليها عقولهم وقلوبهم، بعد ما عانوه من التعقيدات التي أحدثتها الفلسفة الهلينية بعقائد الدين.. فكان العطاء المصري، في ظلال الإسلام، امتدادًا للعطاء التاريخي لمصر تحت رايات النبوات والرسالات.

* * *

* **مراجع**

في حقائق هذه الدراسة ـ غير القرآن.. وكتب السنة.. ومعاجمهما وفهارسهما ـ انظر:

١ ـ [قصص الأنبياء] لعبد الوهاب النجار ـ طبعة دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٢ ـ [طبقات الأطباء والحكماء] لابن جلجل ـ تحقيق: فؤاد سيد ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م.

٣ ـ [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي] جـ٣ ـ تحقيق ودراسة: د. محمد عمارة ـ طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م.

٤ ـ [أخناتون] للدكتور عبد المنعم أبو بكر ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٦١م.

٥ ـ [دائرة المعارف] لفؤاد أفرام البستاني ـ المجلد الأول ـ طبعة بيروت سنة ١٩٥٦م.

٦ـ [الموسوعة الأثرية العالمية] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧م.

٧ ـ صحيفة [الأهرام] في ٣٠ ـ ١ ـ ١٩٩٦م ـ مقال للدكتورة نعمات أحمد فؤاد.

٨ ـ مجلة [الهلال] عدد يونيه سنة ١٩٩٥م ـ مقال للدكتور أحمد عثمان.

* * *

فهرس الموضوعات

رقم الإيداع ٣٠٧٩ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولي I.S.B.N. 977 - 09 - 0920 - 3
كتاب فى فقه الحضارة الإسلامية

هذا الكتاب

•إن الحضارة الإسلامية ليست كغيرها من الحضارات..

- فهى ثمرة من ثمرات الدين الإسلامى.. صاغتها وصبغتها روح الوحى القرآنى.. وقام بتأسيسها خاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله عليه وسلم -..

- ولذلك فهى - مع أنها إبداع بشرى - خالدة، لارتباطها بالدين الخالد، والوحى المحفوظ، والشريعة الإلهية الخاتمة..

•لكن هذه الحضارة تتراجع بتراجع العدل والشورى والاجتهاد والتجديد.. وتزدهر فى دورات الإحياء والاجتهاد وعلو مقام الإنسان فى الدولة والثروات والاجتماع..

•وفى العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى، هناك قوانين تحكم التفاعل الصحى بين الحضارات.. وهناك عوامل للخلل الذى يدفع الحضارة إلى «التبعية» أو إلى «الانغلاق» ..

•ولفقه روح الحضارة الإسلامية .. والوعى بالقوانين الحاكمة لتجددها وإحيائها.. وعلاقتها بغيرها من الحضارات.. يصدر هذا الكتاب .



